

قلب الإخوان

محاكم تفتيش الجماعة

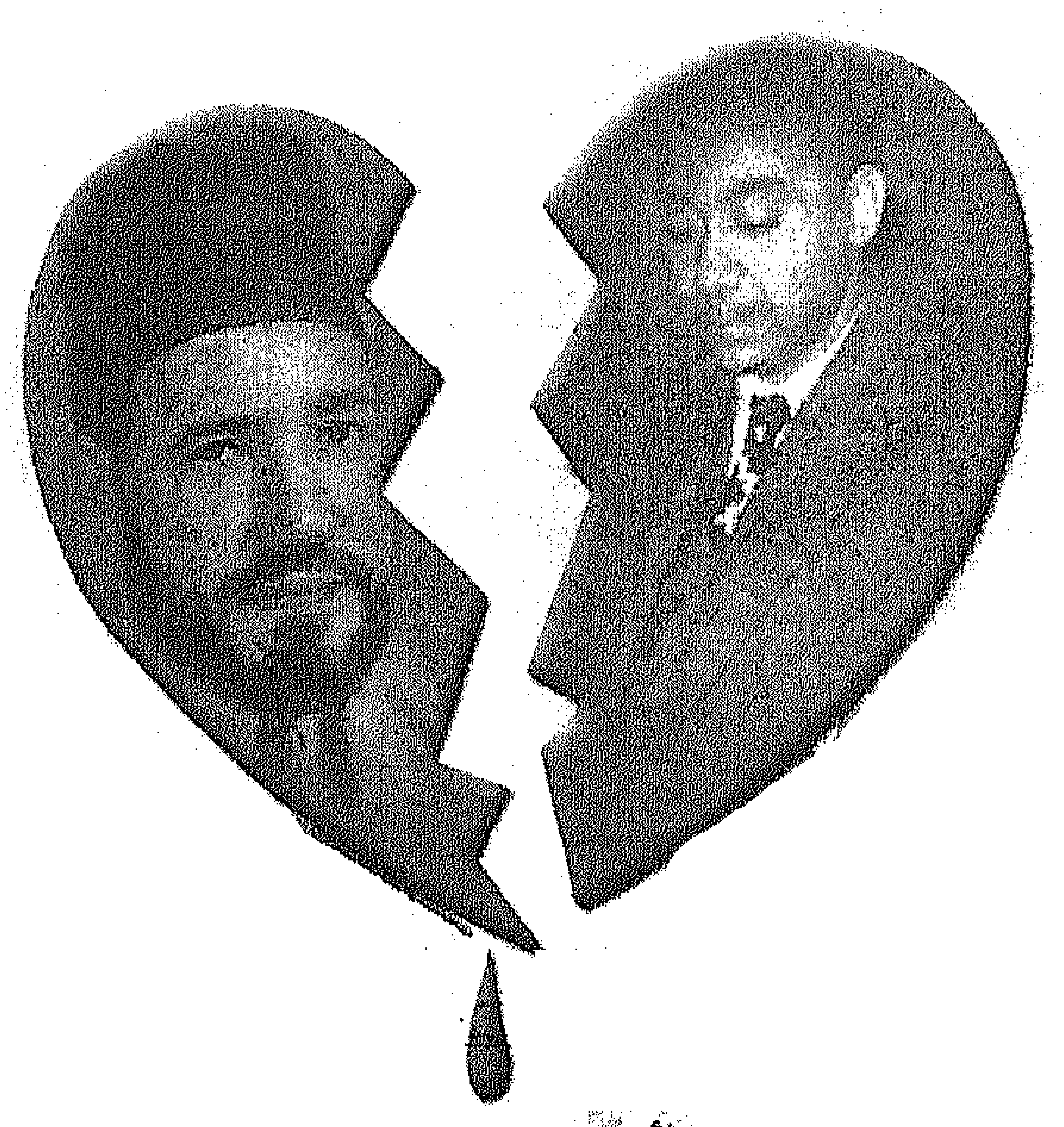




ثروت الخرباوي

تجربة شخصية

قلب الإخوان



تأليف
ثروت الخرباوي



العنوان:

قلب الإخوان

تأليف:

ثروت الخرباوي

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

جميع الحقوق محفوظة © لدار نهضة مصر للنشر

يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين

أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية

أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

الترقيم الدولي: 977-14-4510-3

رقم الإيداع: 8256 / 2012

الطبعة الأولى: يناير 2013

تليفون: 33466434 - 33472864 02

فاكس: 33462576 02

خدمة العملاء: 16766

Website: www.nahdetmisr.com

E-mail: publishing@nahdetmisr.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة

إهـداء

هناك كتاب بعينه يكون هو الأغلى بالنسبة للكاتب، وهذا الكتاب هو الأغلى عندي.. ففيه تجربتي الإنسانية والفكرية مع جماعة الإخوان، وقد خرجت من هذه التجربة.. وأنا أطول قامة وأعلى هامة، أضافت لي ولم تخصم مني، ولأن الأغلى يجب أن يُهدى للأغلى، لذلك فإنني أهدي هذا الكتاب لمصر... مصر التي ثارت على الاستبداد، وانتفضت ورفضت، مصر الوطن الذي رفع ناسًا فشتموه، واحتضن ناسًا فسرقوه، وأحب ناسًا فكرهوه، مصر التي عرفناها حمالة أسية، طيبة وكريمة، استمدت شخصيتها من النيل الذي يجري في هدوء ودعة، ولكنه حينما يفيض، لا يبقي ولا يذر.

مقـدمـة

منـذ أن خـرج هذا الكتـاب إلى الوجـود في طبعتـه الأولى والأحداث في مصر تترى، غضب ثم ثورة جرت فيها دماء الشهداء، ثم فترة انتقالية جرت فيها دماء الشـهداء، ثم حكم إخواني جرت فيه دماء الشـهداء، وكان الحكم الإخـواني هـو أول ظهـور حقيقي للجماعـة في حياة المصريـين، إذ لأول مرة تنتقل من أرض الاضطهاد والسـجون إلى أرض الأمر والنهي والحكم، وإذ وصل الإخوان للحكم تبين أن الشعب لم يكن يعرف ما الذي يدور في أروقة الجماعـة السريـة وغرفها المغلقـة، فجماعة سرية تخفي أوراقهـا وأفكارها هي جماعـة مجهولة لا نعلـم عنها إلا ما يظهر لنا على سـطحها، وقد يكون ما على السطح مختلفًا ومخالفًا لما هو في باطنها، لذلك كان من أعلى الفرائض الوطنية أن يكشـف العارفون للشـعب كله ما الذي يدور في قلب الجماعة، وكان من تقديـر الله العزيـز الحكيم أنني مارسـت تلـك الفريضة الوطنية قبـل الثورة في هـذا الكتـاب وفي مئـات من المقالات، ومـع ذلك فإن كثيريـن من جماعة الإخوان ومن التيار الإسـلامي على عمومه لم يقبل أن يكشـف واحد كان في صفوفهم «بشرية الجماعة» بأخطائها ورعونتها وتفلتها، فهم يقدمون الجماعة

للرأي العام على أنها «الإسلام» أو على أقل تقدير «راعية الحل الإسلامي» بحسب أنهم يعتبرون في ثوابتهم أن الجماعة «فريضة» ولذلك فإن أي نقد لهذه الجماعة هو في ضميرهم نقد للإسلام، إلا أن الفهم السليم يخالف ما درجوا عليه، إذ ليس لأحد في الإسلام قداسة أو عصمة تجعله أعلى من النقد والتوجيه والنصح.. ولا أظن أن العقل السليم يقبل أن يصنع أحدهم أو بعضهم لنفسه مدينة مقدسة عالية الأسوار بحيث يحجب نفسه عن أهل دينه ووطنه ويحجبهم عنه فلا يراهم ولا يرونه.. وطالما أنه لا كهنوت في الإسلام فلا كهنوتية للمسلمين.. وعندما فهم المسلمون الأوائل هذه المسلَّمات وأشربتها أنسجتهم وقفت امرأة تجادل عمر رضي الله عنه علانية أمام كل المسلمين ليصل صوتها لنا عبر القرون هادئًا هاديًا، وليصل رد عمر رضي الله عنه لنا منيرًا شامخًا وهو يقول: «أصابت امرأة وأخطأ عمر».

وعندما فهم المسلمون الأوائل حقهم في المناقشة والتعبير والتعقيب وقف الصحابي الحُباب بن المنذر رضي الله عنه في غزوة بدر ليدلي برأيه الذي كان على خلاف رأي الرسول ﷺ، مارس الحباب بن المنذر عبادة إبداء الرأي حينها وقال دون أن يخشى متقعرًا ينهاه عن مناقشة المصطفى ﷺ: يا رسول الله؛ أرأيت هذا المنزل، أمنزلًا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدَّم ولا أن نتأخَّر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟.. نظر إليه الرسول ﷺ نظرة حانية وهو يحثه على أن يصدح برأيه علانية أمام جموع المسلمين: بل هو الحرب والرأي والمكيدة... فقال الحباب بعد أن فهم تشجيع المصطفى ﷺ له: فإن هذا ليس بمنزلٍ.. يا لها من كلمة جريئة في حضرة المصطفى ﷺ،

كان في مكنة الحباب أن يغلف كلماته بطبقات من الرقة، وكان في إمكانه أن يسر في أذن الرسول ﷺ برأيه ولكنه جهر بكلماته الحادة.. هذا ليس بمنزل.. ثم قال مكملًا رأيه: فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغوِّر ما وراءه من الآبار، ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماءً، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون.. كان في مقدور الرسول ﷺ أن يترك رأي الحباب.. ولم لا وهو يعلم أن رسالته رسالة ربانية وأن الله ناصره لا محالة؟! ولكنه نهض على الفور وتحوّل إلى المكان والرأي اللذين أشار بهما الحباب.

وإذ وصلت هذه المفاهيم لأجيال من التابعين أخرجوا للعالم علم الرجال وعلم الجرح والتعديل ليعرف المسلمون ممن يأخذون دينهم من غير أن تكون هنالك غضاضة في ذلك.

ولا غرو أن تقربت لله أجيال وأجيال من المسلمين بعبادة النقد وعبادة إبداء الرأي دون أن يشترط أحدهم وجوب الأخذ بهذا النقد أو ذاك الرأي، فهو مجرد رأي يَرِد عليه الصواب كما يرد عليه الخطأ «علمنا هذا رأي فمن أتانا بخير منه قبلناه».

إلا أن واقعنا أصبح غير سالفنا، فجهل معظمنا من حيث التطبيق عبادة النقد وإبداء الرأي، وضاقت صدورنا واسترابت أنفسنا من كل صاحب رأي يختلف مع رأينا.. ونظرنا إلى الناقد ولم ننظر إلى موضوع النقد فوقعنا في دائرة « الشخصنة » تلك الدائرة التي يحركها الحب والبغض، وتحجب الرؤية فيها مشاعر الخلاف والاختلاف.

ومن عجب أن معظم أجيالنا من أبناء الحركة الإسلامية في عصرها الحديث، وأقول معظم حتى لا أقع في تعميم يسلب الموضوعية من قولي، نعيب على الأنظمة الحاكمة استبدادها ورفضها للرأي الآخر، ثم نقع في نفس ما نعيب به أنظمتنا المستبدة... وكون الحركة الإسلامية بعمومها تنشد وفقًا لأدبياتها الإسلام دينًا ودولة، عقيدة وشريعة، وتبغي رفع رايته، فإن هذا لا يعطيها قداسة ولا يعصمها من الخطأ، فإذا سكتنا عن أخطائها خوفًا من نقد يصد «المقبلين على الحل الإسلامي» فإننا نكون قد شاركنا في استمرار الخطأ.

من أجل ذلك ولتنبيه الغافلين وتوسيع مدارك الجاهلين قال سيدنا عمر رضي الله عنه: «رحم الله امرأً أهدى إليَّ عيوبي»... لم يصل سيدنا عمر إلى لآلئ الحكمة تلك إلا بعد أن وعى حديث الرسول ﷺ: «**الدين النصيحة... قلنا لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**»... ولا يخدعنك أحد فيقول لك إن النصيحة ينبغي أن تكون في السر لأن من تصدى لأمر المسلمين وانشغل بحالهم وهمهم ينبغي – وفقًا للقواعد الأصولية الصحيحة – أن ننصحه في العلن.

ويتملكني العجب ممن يجهلون هذا الأمر أو يرفضونه، ففي غياب النقد العلني غياب للشفافية وقد يدفع هذا التعتيم إلى استمراء البعض لخطئهم، كما قد يحوِّل هذا الأمر الرجال الأتقياء الأنقياء إلى مستبدين باسم الإسلام وباسم الإخوة. النقد في السر يكون في الخصوصيات كأن أنتقد أخي أو أنصحه في أمور حياته الشخصية، أما إذا نصحنا جماعة أو حكومة أو حزبًا أو حركة تتصدى لمصالح الأمة فإننا ينبغي أن ننصحهم علنًا وعلى رءوس

الأشـهاد.. ومـا تقدم الغرب إلا بذلـك... وما تأخرنـا إلا عندما جهلنا هذا الحق، لذلك أصبح الحكام لدينا مقدسـين مبرئين من الخطأ وأصبحت كلمة الحاكم أو الرئيس... أو الزعيم... أو المرشـد.. حكمة... وإشـارته عبقرية، وبـما أن جماعـة الإخوان إذ وصلـت للحكم تقف الآن عـلى رأس هذه الأمة فإنهـا ينبغـي أن تـضرب لنا المثل بحـث أفرادها عـلى النقـد والترحيب بنقد الآخرين حتى ولو كان شديد القسوة دون أن تعتبر هذا النقد سبًا أو شتمًا.

وإذا كانـت جماعـة الإخـوان تقـدم نفسـها للجماهير بحسـب أنها تحمل فـوق أكتافها الحل الإسـلامي، فإنها يجب أن تضع نفسـها تحـت رقابة الأمة دون أن تتذرع بشـأن داخلي أو شـأن خاص، فإذا ما قالوا: إننا نبغي أن نقيم العدالة في مجتمعاتنا.. أليس من حق الناس حينئذٍ أن تنظر إليهم وإلى شـأنهم الداخـلي وأمرهم الخاص لترى هـل هم يؤمنون بالعدالة فعلًا وهل يقيمونها بـين ظهرانيهـم؟ فإذا ما وجد النـاس - أي ناس - من داخـل الحركة أو من خارجهـا فيهـم اعوجاجًا في إقامـة العدل أليس من حقهـم أن ينبهوهم علنًا وعـلى رءوس الأشـهاد إلى هـذا الاعوجـاج ويطالبوهـم بتطبيق شـعاراتهم المعلنـة؟ وإذا قالـوا: عندمـا نحكم سـنحترم الرأي الآخر وسيتسـع صدرنا للمخالفـين.. أليـس من حق النـاس حينئذٍ أن تجابههم بما قـد يقعون فيه من عدم احترام الرأي الآخر وضيق صدرهم للمخالفين؟

مـن حقنـا ومن حق الناس أن نعرف، ومن حقنا أن نراقب سـواء كنا من أبنـاء الإخوان أو لم نكن، فإذا ما وجدنا نقيصة أو اعوجاجًا أو ازدواجية قام حقنا في التنبيه.

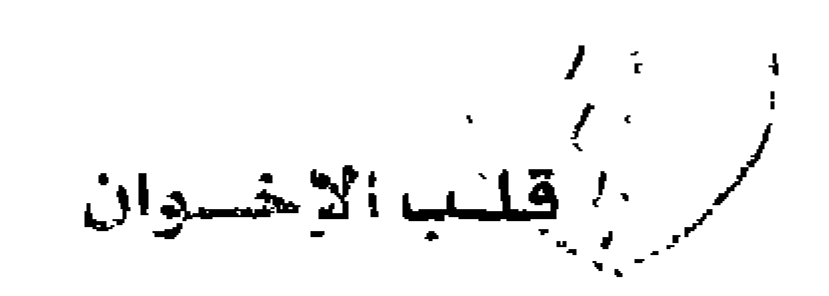
من الآن أصبح علينا واجب المراقبة والنقد، فإذا ما وجدنا حالهم في باطنهم يختلف عن ظاهرهم، ووجدنا خطابهم المعلن يختلف عن ممارستهم الحقيقية فلنا الحق آنذاك في رفضهم وتزكية غيرهم، ولا تظن أن هذا الواجب مشترط فقهيًّا لمصلحة الجماعة أو الحركة أو التنظيم، ولكنه مشترط فقهيًّا لمصلحة الأمة، فأنا أراقب سلوك جماعة الإخوان وأنتقدهم حتى ألزمهم من ناحية إلى العودة إلى جادة الصواب.

الفصل الأول

في البدء كانت كلمة

«عندما ننظر إلى القمر في ليلة اكتماله فإن نوره سيستلب عيوننا ويخطف أفئدتنا إلا أننا لن ندرك تحت وطأة هذا النور أن القمر ما هو إلا جسم معتم شديد الظلام والوحشة كثير الصخور والحفر».

لكل شيء بداية... ولكل شيء نهاية... الحضارات والأمم والجماعات تبدأ ثم تفنى... والكائنات تولد ثم تموت... هذه حقيقة كونية، وليس من شيء يسير تحت الشمس إلا وله دفقات قوة وعنفوان... وله خفقات ضعف ومرض.. هذه سُنَّة الحياة، والإنسان الفرد الذي يدب على الأرض يحمل في مِزْوَده الفجور.. ويكنز في وعائه التقوى... هذا هو تقدير الله... أما الأمم أو الجماعات فإنها ليست أوعية فارغة.. إذ فيها بشر تستمد فتوتها وخيريتها منهم، فإن أحسنوا أحسنت، وإن شمخوا شمخت.. أما إذا أساءوا أساءت... وإذا



تدنوا تدنت وعاشت بين الحفر.. سيان كانت تلك الأمة أو الجماعة مسلمة أو غير ذلك... هذه سنة الله في كونه قدرها تقديرًا.

أما البداية فكانت كلمة.. والكلمة ميراث أبينا آدم لنا.. ألم يتعلم الأسماء كلها من الله سبحانه وتعالى.. ومنه عرفنا وظائف الأشياء وتوارثناها في كل الحضارات؟... سـ ماء... سحبت الشمسُ الماءَ من البحر فكانت سـ.. من السحب، وكانت سحابة.. واحتوت السحابة على ماء.. وهطل الماء علينا.. فكانت سـ ماء.

أما الكلمة فكانت إخوان.. إخـ وان.. دخلت الكلمة قلبي فخلبت لبي.. وقعت في روعي فتمثلتها سـ سحابة ماء تسبح في سـ ماء الدعوة... تهطل علينا بالخير.. يكفي أن تقول «إخوان» لكي تدغدغ مشاعري.. تهبط على روحي كلمة «أخ» كما يهبط الوحي على النبي ﷺ.. فالأخ هو جبريل أخيه.. ينصحه ويصاحبه ويشد من أزره ولا يظلمه أبدًا... رسمتُ كلمة « أخ » في مخيلتي فقرأت حروف المروءة... الإخوة مروءة... قرأت كلمة « إخوان » فتراءى لي الأنصار والمهاجرة إذ آخى بينهم النبي ﷺ... الأخوة في الدين غلبت أخوة الدم.

وضعت الكتاب بجانبي ولكني وضعت الإخوان في قلبي، وأخذت أنهل من معين الكتب كي أستزيد منهم وعنهم.. حبسهم عبد الناصر لخلاف سياسي.. لعن الله السياسة.. عذبهم... أعدمهم... بكيت بحرقة وتعاطفت معهم، وتمنيت أن أعرفهم لأذود عنهم.

في الجامعة كان اللقاء الأول.. هل تعرف سحر اللحظة الأولى؟ المرة الأولى دائمًا هي أروع وأشجى وأعذب المرات، حيث يسبقها الغموض وتكتنفها الرهبة، وتخالطها رغبة جارفة في المعرفة.

ولعل مشاعر المرة الأولى قد ملكت زمام قلب جدي وسيدي آدم عندما رأى جدتي وسيدتي حواء تسعى بين يديه، وكأنني آدم عليه السلام اقتحمتني اللحظة الأولى عندما رأيت عمر التلمساني وبرفقته عبد المتعال الجابري وتخيلتهما أبي وجدي.. فشغفت بهما حبًا... هؤلاء هم «الإخوان المسلمون» دعاة... فكانت الكلمة.. دعوة.

وعدت إلى الكلمة المسطورة في الكتاب.. أبحث عن الإخوان المسلمين.. ضحايا.. أبرياء لا شك في ذلك عندي.. فرية اسمها النظام الخاص والاغتيالات افتراها رجال الثورة واختلقها النظام الحاكم.. محاولة اغتيال عبد الناصر في المنشية... تمثيلية... ومحاكمات وإعدامات... بكيت كمدًا واحترقت جفوني كربًا مما حدث لهم.

أردت المزيد فذهبت لمسجد عين الحياة واستمعت للشيخ عبد الحميد كشك وخرجت من عنده لمسجد الخلفاء الراشدين واستمعت لجمهرة من دعاة الإخوان.. الشيخ الغزالي بهرني.. الشيخ عبد الستار فتح الله أمتعني... الشيخ سيد سابق علمني... الشيخ القرضاوي سما بي... هؤلاء هم «الإخوان المسلمون»... فقهاء... فكانت الكلمة... فقه.

فتحت التلفاز فرأيت شابًا من الإخوان غدا نجمًا إخوانيًا بعد ذلك اسمه عبدالمنعم أبو الفتوح وهو يحاور رئيس الدولة أنور السادات بجرأة فريدة.. فلم

يهبه.. ولم يتتعتع في موقف تذل فيه أعناق الرجال.. ومن بعد رأيت شيخهم ومرشدهم التلمساني وهو يحاور السادات فيقول له: سأشكوك إلى الله... هكذا هم الإخوان قوة في الحق... فكانت الكلمة... قوة.. وكانت الكلمة... حق.

عدت إلى الجامعة وصادقت من ظننت أنهم إخوان.. كنت معهم يدًا بيد في كل الأنشطة إلا أنني كنت حرًّا طليقًا فلم يستوعبني أحدهم.

فرغت منهم إلى الكلمة وظللت زمنًا في دائرتها لم أخرج منها.. كلمة أقرأها.. وكلمة أسمعها... متيماً كنت أنا بالإخوان.

بعد الجامعة عملت بالمحاماة.. ولكن في مكتب أحد السياسيين الوفديين الكبار... محمد علوان.. سألته عن الإخوان فحدثني عن حسن البنا.. كان قد رآه فقال لي: «ألخصه في كلمتين.. عبقرية التأثير وعُلُو الهمة».

قلت له ولِمَ لَمْ تدخل الإخوان؟! فقال وهو يجتر الحكمة: «بسبب القيود التنظيمية التي تضعها الحركة وتسوس بها أفرادها، وأنا أبحث عن الحرية فلم أقبل أن أكبل نفسي بقيود التنظيمات الحديدية»، فاستغربت كلمة أستاذي عن القيود التنظيمية والتنظيمات الحديدية وتكبيل الأفراد فقلت لنفسي: من لا يعرف الإخوان يبالغ، فكان نقد الآخرين للإخوان في عيني مبالغة وكانت الكلمة.. أبرياء.

وبرفقة أستاذي محمد علوان جلست مع التلمساني فهش في وجهي وبش.. قال يوم رأيته: «نحن الإخوان ضد العنف.. ضد الاغتيالات.. كان النظام الخاص كبوة.. ولكل جواد كبوة..الإخوان لكل الأمة وليست لفريق

بعينه.. سيكون الإخوان تيارًا جارفًا يصب في نهر الأمة.. وسيخرج الإخوان من ضيق التنظيم إلى سعة الدعوة»... هؤلاء هم الإخوان... حكماء.... فكانت الكلمة... حكمة.

ذات يوم عاد الشيخ عبد المتعال الجابري الداعية الإسلامي الزاهد من غربته في أمريكا فعدته في المشفى مع رفقة من شباب الإخوان، فقال له أحدهم وكأنه يطمئنه على ثبات الشباب وغيرتهم على الإخوان: ثلة الغوغاء تهاجم الإخوان وتنتقدهم لو كان الأمر لكم لطلبت منكم أن تحاكموهم.

ابتسم وقال له وقد أخذه الوهن على فراش المرض: على رِسْلِك يا بني.. ومن نحن حتى نحاكم أو ندين؟ وهل نملك أن نتسلط على قلوب العباد؟... إنما نحن نُذكِّر وليست لنا سيطرة على أحد.. نحن دعاة... إنما يحاكم ويحقق ويدين في الحياة الدنيا من كان همهم الدنيا، ونحن طلاب آخرة.

هكذا هم الإخوان... دعاة لا قضاة... فكانت الكلمة... رحمة.. وكانت الكلمة دعوة.

في البدء كانت كلمة.. ثم كلمة.. ثم كلمة.. ثم كلمة.. فتكونت دائرة من الكلمات..دائرة ذهبية.. بدأت بالدعوة وانتهت بالدعوة... وبينهما قوة.. حق.. فقه.. حكمة... براءة.. رحمة.

وفي نقابة المحامين كانت لنا أيام.. جلستُ مع مختار نوح الذي كان من نجوم الإخوان وقتها وقرأت معه القرآن وسمعتُ منه واستمعتُ إليه... ومن بعدها صرتُ من الإخوان.

صرت أنا من الإخوان... وصار الإخوان مني.

وفي الإخوان نزفتُ نفسي.

وللإخوان سكبتُ نفسي.

وفي الإخوان نسيتُ نفسي... فتلاشيتُ.. كقطرة ماء تبخرت.

وحين يوم وقعت قطرة الماء من السحابة.. فتألَمت.. ومن ألمها ستنبت خضرة.

وذات يوم عرفتْ قطرة الماء أن الضياء ينير الطريق ولكنه أحيانًا يعمي البصر.

■■■

«نحن نتعبد لله بأعمال النظام الخاص للإخوان المسلمين قبل الثورة».

نطقها المستشار مأمون الهضيبي على مهل وبصوته الرفيع الحاد وبنغمة خطابية حماسية مفعمة بالفخر والزهو والخيلاء، ثم نظر ذات اليمين وذات الشمال ليرى أثر كلماته ووقعها على الشيخ محمد الغزالي والدكتور محمد عمارة.. لحظتئذ ضجت القاعة بالتهليل والتكبير والتصفيق.... نظرت إلى الوجوه التي تجاورني والتفت بوجهي للخلف فوجدت الفرحة قد استولت على مجامع القلوب وسيطرت على مشاعر الحاضرين... ورغم أنني هتفت مُكبرًا بلا وعي مني مع آلاف الإخوان الذين اكتظت بهم القاعة، وكأن الحالة الشعورية الجمعية التي خيَّمت على الجميع احتوتني وامتدت إلى

نفسيتي وسحبتني بداخلها، إلا أنني استغربت نفسي بعد ذاك وتعجبت من هتافي وكأن الذي هتف وكبَّر ليس أنا بل شخص غيري.

وبعد أكثر من ساعتين من الجدل والصخب وبعض من العلم والفقه والفهم انتهت المناظرة التي عقدها معرض القاهرة الدولي للكتاب في شتاء 1992 م والتي دار موضوعها عن «مصر بين الدولة المدنية والدولة الدينية» وانصرف الجمهور الذي كان حاضرًا بالآلاف إلى شأنه، إلا أنني مكثت وحيدًا بالقرب من القاعة التي شهدت المناظرة أفكر في وقائعها وأحداثها.. لم يعجبني فكر فرج فودة أحد أقطاب العلمانيين في مصر، إذ كان يبدو متحاملًا على تاريخ الإسلام والمسلمين وكأن عينه كليلة لا ترى إلا السيئ... إلا أن مأمون الهضيبي عضو مكتب الإرشاد للإخوان المسلمين وقتئذ لم يعجبني هو الآخر رغم أنني كنت أحمل له في قلبي ساعتئذ مشاعر مفعمة بالمحبة والتقدير... ففضلًا عن كونه عمل بالقضاء لفترات طويلة... والقضاء يعطي لمن جلس على مقعده نظرة شمولية وحيادية متوازنة... إلا أن طريقته في المناظرة كانت تحمل قدرًا من التعالي والجفاء، ومنهجه في الجدل كان ذاتيًا، وآية ذلك أنه ترك الحديث عن الإسلام كله فلم ينافح عن تاريخه ورجاله، وكان جل همه أن يدافع عن تاريخ الإخوان المسلمين ورجال النظام الخاص فيه الذين حملوا السلاح قبل الثورة ونفذوا العديد من عمليات الاغتيال!!... توقف عقلي عند دفاع المستشار مأمون عن رجال النظام الخاص فلم يستسغه.. ولم تقع صيحته المدوية بتعبد الإخوان لله بالاغتيالات موقعًا حسنًا في نفسي عندما استدبرت معناها.

وعـن بعد رأيت المهندس أسـامة الغزاوي الذي كان يشـغل في منتصف الثمانينيـات من القرن المـاضي موقعًا قياديًّا للإخوان المسـلمين بمنطقة شرق القاهـرة، وكان يزاملنـي في أسرتي الإخوانية بمنطقة الزيتون، إلا أنه لسـبب لا أعلم تفصيلاته انقطع عن الإخوان، وتناهى إلى سـمعي همسًـا من بعض الإخوة أنه قطع صلته بالجماعة تمامًا بعد محاكمة إخوانية تعرَّض لها.

ويبدو أنه رآني هو الآخر فعبر الطريق إليَّ وتوجه ناحية الأريكة الخشـبية التـي كنت أجلس عليها وهو يبادرني بالسـلام قائلًا: السـلام عليكم ورحمة الله.. أأنـت في المناظرة هنا؟...ثـم ضاحكني مداعبًا وهو يقول: الآن عرفت لماذا ارتبك فرج فودة وهو يحاورهـم يبدو أنه رآك فعرف أن القضاء قد حم.

قلـت وأنـا أبادله الضحـكات: لا.. يبـدو أنه رآك أنت فعـرف أن رجال النظام الخاص للإخوان لا يزالون على قيد الحياة ويمتلكون مقاليد الأمور... بالمناسبة أريد أن أسألك سؤالًا مهمًّا.

قال وهو يستمر في مداعبته: سل تُعط..

- لـماذا كان المستشـار مأمـون يدافع عـن الاغتيالات التـي نفذها رجال النظام الخاص رغم أنه صاحب عقلية قانونية... نبت في بيت قضائي ووهب حياته للقضاء والدعوة؟!!

- يا عزيزي لا يفل الحديد إلا الحديد.. فرج فودة لا ينفع معه إلا هذا.

- ولكن «هذه مناظرة لله ثم للتاريخ».

«وليس من أجل عيون فرج فودة نخالف ما نعتقده».

«ما قاله المستشـار سـيصل حتماً إلى أجيال قادمة وسيكون مُعبِّرًا عن رأي الإخوان».

«ذات يوم قال حسـن البنا عن أفراد النظام الخاص الذين نفذوا عمليات اغتيال إنهم ليسوا إخوانًا وليسوا مسلمين».

«أيأتي اليوم المستشـار مأمون ليقول للعالم أجمع إننا نتعبد لله بأعمالهم؟!.. كيف هذا وايم الله؟!..».

«لقد أثارت كلماته حيرتي وأدخلت الريبة في نفسي..».

«أي عبادة تلك التي قتلت مسلمين آمنين على أنفسهم؟!...».

«في ليلة وضحاها وعلى لسـان رجل القضـاء الكبير يصبح قتل النقراشي رئيس وزراء مصر عبادة!!..».

«تنقلب المعايير رأسًـا على عقب في منطق المستشـار ليصير قتل المستشـار الخازندار عبادة!!..».

«وكمثل السـاحر اللبيـب الفطن أو الخطيـب البليغ ذرب اللسـان يقف المستشـار عضو مكتب إرشـاد جماعة الإخوان ليبدل الحقائق ويسـحر أعين الناس وعقولهم... فتتحول عملية قتل سيد فايز الإخواني الذي نشأ في معية الجماعة ثم اختلف مع النظام الخاص إلى عبادة نتقرب بها إلى الله!!».

«حدثنـي يا أسـامة.. أهذا هو التاريخ الذي سـنعلمه للإخـوان وللناس أجمعين؟!».

«كيف سقط المستشار مأمون هذه السقطة وهو الذي رأيت فيه قيمة فكرية ودعوية سامقة؟!».

«ليست هذه منهجية الإخوان!!.. أتبدلت الأفكار وسكنت أفكارنا التي درجنا عليها في مقابر أمواتنا من السابقين الأولين كالتلمساني وغيره؟!».

قال أسامة وهو يبدي دهشته من كلامي المتدفق: هذا كلام كبير يا أستاذ.. أنا معك طبعًا في أن هذه عمليات إجرامية وليست تعبدية ولكن للضرورة أحكام.

قلت وأنا أبدي امتعاضي: ضرورة! أي ضرورة؟ قل لي بربك.. هل تؤيد تلك العمليات التي خرجت عن سياق الجماعة وأفكارها المعتدلة؟

سحب أسامة ابتسامة من داخله ووضعها على وجهه وهو يقول: أنت تعلم أني ضد أي عنف ولو تستر وراء الدين.. ولكني أقصد أن المستشار مأمون له ضروراته التي دفعته إلى هذا القول.

قلت مجتدًّا: ضرورات!! ألا يحتاج هذا التبرير إلى شرح وتوضيح؟

أطال أسامة التفكير وتلفت بريبة إلى الناحية الأخرى ثم قال ببطء وكأنما يبحث عن الكلمات: سيكون لنا لقاء... سأنتظرك في الخميس القادم في شقتي التي تعرفها لأتحدث معك فيما غمض عليك.

■■■

يسكن أسامة الغزاوي في أول شارع طومان باي بحي الزيتون في أحد العقارات القريبة من قسم الشرطة.. وكان قد انضم إلى الإخوان المسلمين قبلي

بسنوات ونشأت بينه وبين الحاج مصطفى مشهور نائب المرشد العام للإخوان المسلمين وقتها صلات قوية، إذ كان الحاج مصطفى هو أول نقيب لأسرة ينخرط فيها أسامة عام 1980 م (الأسرة هي البناء الإخواني القاعدي.. وتتكون من خمسة أو ستة أفراد يرأسهم شخص يُطلق عليه لقب النقيب.. وكل مجموعة أسر تشكل شُعبة، وكل مجموعة شُعب تشكل منطقة، وكل مجموعة مناطق تشكل محافظة) وبين بيت أسامة وبيت الحاج مصطفى بضع خطوات لا غير، أما أنا فقد كنت أسكن وقتها في آخر شارع طومان باي من ناحية «ميدان ابن الحكم» القريب من منطقة تجنيد القاهرة ولذلك جمعتني شعبة إخوانية واحدة مع أسامة ثم جمعتني معه أسرة إخوانية واحدة كان هو نقيبها.

كنت قد اعتدت سابقًا على الذهاب بشكل دوري إلى أسامة، فقد كانت معظم لقاءات الأسرة تعقد عنده، وأحيانًا كنا نبيت بشقته في اليوم الذي تنعقد فيه الكتيبة الشهرية (الكتيبة هي لقاء شهري للشعبة يستمر للفجر ويشمل درسًا دينيًّا وصلاة قيام)... إلا أن ذهابي إليه انقطع مذ ترددت الأنباء عن ترك أسامة للجماعة... وقتها قام المسئولون في الشعبة بإعادة ترتيب الأسر من جديد وإعادة تصنيف الإخوة وتصنيف درجاتهم التنظيمية (أخ، أخ عامل، أخ مجاهد) خاصة أن المحاكمة التي تم عقدها لأسامة استبان منها وفقًا لما وصل إلينا أن هناك حركة تمرد اشترك فيها بعض الإخوة، وأن حركة التمرد هذه قادها اثنان من أفضل الإخوة هما المهندس أسامة الغزاوي والمهندس عمرو التلاوي، إلا أن أحدًا لم يقل لنا ما هو هذا التمرد وما هي أسبابه!! اللهم إلا أنهما رفضا تنفيذ أمر إداري... ولم يفصح أحد لنا عن كنه هذا الأمر...

وعندما سألت مسئول الشعبة عن حقيقة ما يتردد عن التمرد وعن الأمر الذي خالفه الأخوان، قال لي وهو يرتدي ثياب الفقيه الحكيم: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ (المائدة: 101) ثم أردف قائلًا: ثق في القيادة دون أن تسأل!!... فآثرت الصمت وعدم تكرار السؤال تأدبًا مع الرجل، إلا أن غياب أسامة عن الإخوان أحدث غصة في قلبي.. ودهشة في ضميري.. فقد كان تصوري أن الجماعة ينبغي أن تطلق طاقات الأخ وجهوده وأن توجهها لمسارها الصحيح لا أن تكبلها وتعطلها وتستنزفها في خلافات إدارية.. لم يستوعب قلبي أن أخًا يترك الجماعة بسبب اختلافه مع القيادات في قرار ما!! أو رفضه تنفيذ قرار ما مهما كان شأن هذا القرار.. فنحن في دعوة ولسنا في شركة... ولكن تزداد حيرتي ويخاصم النوم جفوني حينما يتردد في خافقي صدى كلمات سمعتها من بعض الإخوة في كتيبة من الكتائب: «ينبغي أن يكون الأخ بين يدي مرشده أو نقيبه أو مسئوله كالميت بين يدي من يغسله يقلبه كيف يشاء».. نعم قد يكون هذا من باب المحبة.. أستوعب هذه المقولة في هذا الإطار وقد قرأتها من قبل لبعض الصوفية.. فهل يتم تطبيقها بشكل تنظيمي جاف؟!!.. وتزداد حيرتي.. أيهما على خطأ إذن.. الجماعة أم الأخ؟

كان الإخوة عقب ذلك يترحمون على أيام هذين الأخوين وعلى النشاط الدعوي الذي كانا يمارسانه ويبعثان من أجله الحيوية والنشاط في منطقة كانت في السابق تقع تحت سيطرة الجماعة الإسلامية من ناحية، وسيطرة الجمعية الشرعية من ناحية أخرى... ولكن يبدو أنه لا كرامة لأخ يترك الجماعة... فقد كانت تجابهنا حين نذكرهم بفضل هذين الأخوين مقولة صلدة متدثرة

بوشائج الإيمان: لا فضل لأخ على الجماعة مهما كان قدره، فالدعوة تسير بفضل الله بكم أو بغيركم، ولكن الفضل كل الفضل للجماعة على الأخ!!

في الموعد المحدد بعد صلاة المغرب كنت أجلس مع المهندس أسامة في حجرة الاستقبال بشقته السكنية متدثرًا بمعطف شتوي يقيني قر الشتاء، وأرتشف قدح الشاي الساخن وأنا أستعيد معه ذكرى أيام خلت ذَهَبَتْ إلى عالم الذكريات... وسبقتنا إلى عالم البرزخ... أو إلى الدار الآخرة.. إلا أنها ما زالت مخبوءة في نفوسنا وضمائرنا فأصبحت بضعة من شخصيَّاتنا وثقافتنا وأخلاقنا.. استروحت معه نفحات تلك الأوقات التي حفظنا فيها ما تيسر لنا من القرآن الكريم والحديث الشريف، وتذكرنا معًا دروس المساجد التي كنا نحضرها لعلماء الأمة مثل الشيخ الغزالي والشيخ سيد سابق والشيخ عبد اللطيف مشتهري والشيخ إبراهيم عزت والدكتور سليمان ربيع.. وكيف أننا كنا لا نُفرِّق في التلقي بين علماء خرجوا من رحم الإخوان وعلماء وهبوا أنفسهم للأمة بلا تحيز لجماعة عن أخرى.

وهنا تحول الحديث إلى وجهته الأصلية.. انتفضت شراييني وسرت قشعريرة في جسدي واحدودب ظهري وأنا أتحدث إليه بصوت مبحوح لا يكاد يُبين: أنتظر منك الإجابة يا صديقي عن سؤالي الذي طرحته عليك بعد مناظرة معرض الكتاب..هل تذكره؟

قال بعد أن ارتسمت على وجهه مخائل الجدية: أذكره ولا أنساه..

.. ثم تحدث أسامة بما لم أتوقعه وبما هو أغرب من الخيال.

الفصل الثاني

أسامة الغزاوي يتحدث

«مرض «الذئبة الحمراء» هو مرض يصيب الجسم ينتج عن خلل في الجهاز المناعي يجعله بدلًا من أن يحمي جسده من البكتيريا والفيروسات فإنه يهاجم الجسم الذي يحميه متصورًا أن هذا الجسم هو العدو الذي يجب أن تتم مواجهته.. يحدث هذا في الإنسان كما يحدث في الجماعات».

حدثني الشيخ عبد المتعال الجابري الذي كان يُدرِّس لنا اللغة العربية في مدرسة ابن خلدون الثانوية بحلمية الزيتون وكان قد قضى أكثر من نصف عمره في السجون بحسب أنه كان من قيادات الإخوان فضلًا عن أنه كان رفيق درب للشيخ عمر التلمساني رحمه الله... أنه بعد حرب أكتوبر عام 1973 م وبعد أن دخل النصف الثاني من نوفمبر مات المستشار حسن الهضيبي مرشد الإخوان.. أفضى إلى ما قدم.. وكل نفس ذائقة الموت.. مات

الرجل الذي خلف حسـن البنا فكان مرشـد المحنة كـما يطلقون عليه، مات الرجـل وتـرك فراغًا هائلًا في الجماعة.. مات وترك سـفينة الإخوان تتلاعب بهـا الأمـواج ولا ربان لهـا.. كان هذا الرجل يحمل في نفسـه شـيئًا من رجال النظـام الخاص فقد كان يعتبر أنهم هم الذيـن أدخلوا الجماعة في محنة قاصمة باقعـة ،وتسـببوا برعونتهم وجهلهم في حل جماعة الإخوان الذي أسـفر عن مقتـل حسـن البنا، لذلك كان أول قراراته التـي أبرمها بعد أن تولى الأمر هو حـل النظام الخاص وفصل عبد الرحمن السـندي مسـئول هـذا النظام الذي كان شابًّا حدثًا مضمحل العلم والثقافة وفصل بعض القادة الآخرين الذين يتبعون هذا الشـاب ويأتمـرون بأمره... وقام عقب ذلـك بتعيين أحد رجاله مسـئولًا عن نظام خاص جديد يدين له هو بالولاء والطاعة، فكان أن وضع عـلى رأس الفريـق الجديد « يوسـف طلعـت » الذي كان مـن المجاهدين في فلسـطين... وعندمـا احتـدم الخـلاف بـين النظام الخـاص الجديـد والنظام القديم قام أحدهم باغتيال سيد فايز الذي كان وقتها أحد المسئولين الجدد في النظام الخاص بتشكيله الجديد، وأشارت يد الشك والاحتمال إلى أحد أفراد النظـام القديم الذي تم حله ولكن لم تتأكـد الظنون.. وحدثت محنة الخلاف الأزلي بـين الإخوان وحكومـة الثورة ودخل الإخوان السـجون، والتقى في الزنازين أفراد النظام الخاص جديدهم وقديمهم، ودخل معهم الشـيخ سيد قطب الذي كان قد هجر الشـعر والأدب والنقد وتفرغ للكتابة عن الإسلام وتفسـير القرآن وأطنب في ذكر تصوراته عن المجتمع الجاهلي بعقلية الشاعر الأديـب لا بعقليـة العالم الفقيه.. ثم جاءت فترة منتصف السـتينيات ودخل

الإخوان مرة ثانية إلى السجون في قضية سيد قطب التي اتُّهم فيها مع آخرين بمحاولة اغتيال عبد الناصر وقلب نظام الحكم.

وفي السجن التقى رجال النظام الخاص بسيد قطب وتلاميذه فكان الاتحاد وكان التلاحم، بل كان التماهي والتمازج، فقد كان رجال النظام الخاص يفتقدون إلى المرجعية الدينية التي تؤصل لهم عمليات الاغتيال وتبيحها لهم من الناحية الشرعية، إذ نفض الشيخ سيد سابق يده منهم وتركهم إلى غير رجعة وآمن أن في عقول بعضهم آفة، وبعد أن كانوا يطلقون عليه « مفتي الدماء » تبرأ منهم وقال قولته الشهيرة: « نعم أنا أفتي في دم الحيض » فوجد النظام الخاص بغيته في الشيخ سيد قطب الذي استمد فكره من الشيخ أبي الأعلى المودودي الذي ولد وترعرع في ولاية حيدر آباد بالهند في مجتمع تتعدد فيه الديانات ويكثر فيه عبدة البقر والشجر والثعابين.. تأثر الشيخ سيد قطب بأبي الأعلى المودودي أيما تأثر ومنه أخذ فكرة «الحاكمية» حيث اعتبر أن المجتمع المصري يقوم على أسس جاهلية لعدم احتكامه لله سبحانه وتعالى في الحكم.. هذه الجاهلية التي تعتدي على سلطان الله في الأرض فتتحاكم إلى تشريعات وأنظمة وضعها تصور بشري محض كما في الآية القرآنية: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ (النساء: 60) بالمخالفة للآية القرآنية: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ (الأنعام: 57) ومن هنا قام سيد قطب بوضع تصور حركي من خلال تقسيم المجتمع إلى فريقين.. مجتمع المسلمين والمجتمع الجاهلي.. وأوجب على المجتمع المسلم أن يتقوقع على نفسه في

محضن إسلامي، ويعتزل المجتمع الجاهلي شعوريًّا وفقًا لقاعدة ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ (المزمل: 11) لكي ينأى بنفسه عن شوائب الجاهلية وخشاشها، إلى أن يتمكن ويشتد ساعده من ناحية وتصبح عقيدته نقية خالصة من الأدران من ناحية أخرى، حينها يستطيع المجتمع المسلم المنعزل أن يفرض نفسه ويرفع رايته رغمًا عن أنف الجاهليين.

وضع سيد قطب أفكاره هذه في كتابه «معالم في الطريق» وصاغها بطريقته الأدبية البديعة وبألفاظه الشاعرة المرهفة ودون أن يمر بها على عقلية العالم الفقيه الأريب الفطن.. ومنه انطلقت تلك الأفكار إلى رجال التنظيم الخاص الذين استراحت ضمائرهم وهدأت أفئدتهم لتلك القسمة... مجتمع جاهلي حتى النخاع... ومجتمع إسلامي بلا انقطاع.. وبتلك الفكرة تشرعنت عمليات الاغتيال التي قاموا بها، ومن خلالها أصبح اغتيال النقراشي والخازندار مواجهة مع المجتمع الجاهلي الذي يحارب مجتمع الإسلام، والذي هو في جاهليته أشد وطأة من تلك الجاهلية التي سبقت الإسلام، فكان من الطبيعي أن يلوذ رجال النظام الخاص بحياض الأديب الشاعر ويتدثرون بمعطفه.

كانت أفكار سيد قطب منبتة الصلة عن منهج حسن البنا ومسلكه الدعوي.. ففكرة حسن البنا لا تقوم أبدًا على جاهلية المجتمع بل تقوم على أن الناس ابتعدوا من خلال التطبيق عن منهج الإسلام وأن هذا الابتعاد لا يمس عقيدتهم ولا يخرجهم من الملة، كما أنه لا يدخلهم في نسق جاهلي،

وكل ما يحتاجون إليه هو الدعوة العلنية المفتوحة التي يجب أن تصل إلى الجميع حتى تستقيم أخلاقيات الناس وتتفاعل سلوكياتهم مع ما يدعو إليه الإسلام في المعاملات والعبادات دون أن نضع أهمية لضم أحد إلى التنظيم، فالتنظيم هنا يقوم بدور القائد الذي يدعو ويوجه لا بدور الوعاء الذي يضم ويحتوي.. ولا أخفيك سرًّا أن الخطأ الذي جر الوبال على إخوان البنا هو إنشاء فرقة النظام الخاص التي كانت بمثابة الجسم الغريب عن الجماعة، وقد حكى لي الأستاذ فريد عبد الخالق أن حسن البنا تقابل معه بالقرب من كوبري قصر النيل قبل اغتياله وقال له مقولته الشهيرة: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أنشأت النظام الخاص».

أما فكرة سيد قطب من حيث الوسيلة فتقوم على الانتقاء والتجنيد والتجييش وذلك عن طريق استثمار الدعوة العلنية من أجل تكوين تنظيم سري شديد الإحكام عن طريق جذب الأنصار وضمهم لـ «ماكينة الدعوة» حتى تقوى تروسها وتصبح قادرة ذات يوم على مواجهة المجتمع الجاهلي.. وبهذا نستعيد بعضًا من قبس جيل الصحابة ذلك الجيل القرآني الفريد.. فإذا دعونا الناس وتركناهم في المجتمع الجاهلي ينهلون منه فسوف تذروهم رياح الجاهلية ويصبحون وقتها دمًا يتدفق في شرايين تلك الجاهلية العرجاء، وتفت معيتهم مع الجاهليين في عضد المجتمع المسلم... كانت هذه هي الأفكار التي التف حولها الجمع الفريد وبها قام الحلف المقدس بين النظام الخاص وتلاميذ سيد قطب... كان هؤلاء هم «إخوان سيد قطب».

مات حسن الهضيبي عليه رحمة الله الذي كان قد أدرك خطورة هذا الحلف المقدس، وكان التلمساني وغيره قد نبهوا الهضيبي إلى خطورة هذه الأفكار ودقوا له ناقوس الخطر.. فالتقى الهضيبي ذات يوم وهو في مشفى السجن بسيد قطب فكان أن سأله: هل تُكفر المسلمين يا شيخ سيد؟... فنفى سيد قطب هذا الأمر وقال إنه غير مسئول عن فهم الناس لأفكاره على غير محلها وعلى غير مقصدها.. فلم يجد الهضيبي أمامه من بد إلا كتابة كتابه الوحيد «دعاة لا قضاة» لمواجهة حلف فريق النظام الخاص والقطبيين.. ولكن يبدو أن هذا الحلف سيشتد عوده ويقوى بنيانه فيما بعد.

وفي ليلة التحفت بظلام الأيام الأخيرة من شهر فبراير البارد من عام 1975 م وبعد صلاة العشاء اجتمع فريق من النظام الخاص في بيت أحد سدنة هذا النظام وحراسه وهو الحاج أحمد حسانين في قليوب البلد، وكان صاحب الدار قد خرج من السجن منذ أسابيع خلت قبل هذا الاجتماع التاريخي مع آخر دفعة نالت الإفراج من الإخوان، بدا اللقاء وكأن الجمع يحتفلون بخروج ثلة ليس لها نظير من أركان التنظيم من سجنهم الذي احتضنهم ما يقرب من العشرين عامًا.

وفي حجرة فقيرة في أثاثها ومحتوياتها تطل شرفتها على أرض زراعية شاسعة، جلس كل من مصطفى مشهور وكمال السنانيري وأحمد الملط وحسني عبد الباقي وخامسهم صاحب الدار أحمد حسانين وهم يستدبرون تاريخهم مع الجماعة ورحلتهم في السجون وخطط المستقبل الذي يجب أن يكون.

كان قد مضى على وفاة المرشد الثاني حسن الهضيبي عام وعدة أشهر، ومازالت الجماعة بلا مرشد جديد إذ مات الهضيبي الأب دون أن يعيد تشكيل التنظيم ويحدد آلياته، اللهم إلا أنه التقى في الحج قبل وفاته ببعض المهاجرين من الإخوان وأخذ منهم البيعة... وبعث النشاط في أرواحهم، وتعاهدوا معه على إعادة تشكيل حركة الإخوان في البلاد التي يعملون فيها.

وبعد عودته إلى مصر انشغل الرجل بجمع الشمل مع من اختلف معهم من قبل مثل الشيخ محمد الغزالي الذي كان قد هاجم الهضيبي هجومًا ضاريًا في بداية الخمسينيات واتهمه بأنه من عتاة الماسونيين!! وتعكر الماء بين الاثنين وتم فصل الشيخ الغزالي من جماعة الإخوان إلى غير رجعة وأخيرًا تداعى العالمان العلمان للتسامح والتغافر وتم الصلح بينهما.

لم يمهل القدر حسن الهضيبي حتى يقوم بإعادة بناء الجماعة التي كانت قد تفككت وانمحت وتاه رجالها في البلاد يبحثون عن معايشهم، فعاجله الموت الذي هو نهاية كل حي.

كان الحاج مصطفى مشهور أكثر الجميع حماسة وحيوية في اجتماع قليوب الخطير، فقد اقترح أن يتم تعيين مكتب جديد للإرشاد من الحاضرين في الاجتماع... وأن يتم اختيار مرشد جديد خلفًا للمستشار حسن الهضيبي.. وهنا أصر الحاج أحمد حسانين على مبايعة الحاج مصطفى كي يكون مرشدًا للإخوان إلا أن الحاج مصطفى رفض هذا الأمر تمامًا واقترح أن يتم اختيار شخصية أخرى... شخصية لا يعرفها أحد ولكن يسهل من خلالها إعادة

تشكيل الجماعة وفقًا لرؤية هذا الفريق، شخصية سينساها التاريخ ولن يعرف ملامحها... وكأن من ألف السرِّية واعتادها لا يأتلف إلا مع شخصية سرية!!

■■■

توقف أسامة الغزاوي عن الحديث، إذ كانت صلاة العشاء قد دخل وقتها، فخرجنا معًا كي نصلي في مسجد العزيز بالله وهو من المساجد الشهيرة في المنطقة والتي وقعت تحت سيطرة التيار السلفي... وبعد الصلاة أخذنا نتجول على مهل بطول شارع طومان باي حيث استطرد أسامة قائلًا :

«هل تعرف أسماء من تولى موقع المرشد العام للإخوان المسلمين وجلس متربعًا على سدة القيادة فيها؟ ستقول لي وأنت تقطب جبينك استنكارًا من السؤال: طبعًا أعرفهم.. فهم الشهيد حسن البنا والمستشار حسن الهضيبي ثم الأستاذ عمر التلمساني وأخيرًا الأستاذ حامد أبو النصر.. لا يا عزيزي لقد تسرعت في الإجابة فأخفقت فيها... هناك مرشد آخر لا تعرفه ولا يعرفه أحد..».

«غالبية الناس وغالبية الإخوان المسلمين لا يعرفون أنه بعد وفاة المستشار حسن الهضيبي بعام وفي هذا الاجتماع الذي حدثتك عن طرف منه وقع اختيار الحاضرين على المهندس حلمي عبد المجيد الذي كان الساعد الأيمن للمقاول الشهير عثمان أحمد عثمان وكان من الرعيل الأول للإخوان ليكون مرشدًا للجماعة.

وبعد يومين ذهب هؤلاء القوم إلى من وقع عليه الاختيار في بيته بالدقي وعرضوا عليه الأمر برمته، وقالوا له إن مسئولية الدعوة بل مسئولية الإسلام أصبحت معلقة في رقبته، وأنهم لا يقبلون بغيره بدلًا، فوافق الرجل إلا أنه اشترط شرطين لذلك أولهما أن تصدر موافقة بتنصيبه في هذا الموقع من الأعضاء الباقين على قيد الحياة من الهيئة التأسيسية من الإخوان وكان عددهم يزيد على الثلاثين بقليل، أما الشرط الآخر فهو أن يكون مرشدًا سريًّا لا يفصح عن اسمه أحد، على أن يظل قائمًا بمهامه إلى حين إعادة تشكيل التنظيم ثم يترك موقعه لغيره... ولم يتحقق الشرط الأول بشكل كامل إذ لم تصدر بيعة أو موافقة إلا من عدد يزيد على عشرة أفراد بقليل فلم يحصل الرجل على شرعية، إلا أنه قبل على مضض أن يقوم بدوره المرسوم له حتى حين.

وبعد عام تقريبًا من هذا اليوم قام بعض الإخوان في المملكة السعودية بتوزيع بيان على كل الإخوان في الأقطار العربية كان عنوانه «المرشد السري المجهول يقود الجماعة إلى المجهول» وظل هذا البيان التحريضي يجوب الأقطار العربية ويقع تحت يد الإخوان في كل البلاد بلا ملل ولا كلل فيحدث في نفوسهم مساحة من الامتعاض... وقد أورد المفكر الإخواني السابق عبد الله النفيسي خبر هذا البيان بحذافيره في كتابه الشهير «أوراق في النقد الذاتي» وقد تسبب هذا البيان في حالة قلق لأفراد النظام الخاص الذين يعرفون أن معظم الإخوان لا يرحبون بهم، فأسرعوا في نهايات عام 1976 م إلى رجل حيي دمث الخلق عف اللسان من الذين شربوا الدعوة من حسن البنا هو عمر التلمساني وعرضوا عليه أن يتولى موقع المرشد وأن يعيد تشكيل مكتب

الإرشاد من جديد، وكان التلمساني شخصية شديدة المرونة، وقد سمحت له مرونته أن يرتبط مع جميع الأطياف الإخوانية من أفراد النظام العام أو أفراد النظام الخاص بروابط قوية ووشائج متينة من المودة... فظنوا من فرط دماثة خلقه أنه رجل مهيض الجناح ضعيف التأثير وأنه سيكون مجرد واجهة، في حين إنهم سيتحركون هم من خلف الستار حيث سيتحكمون في مقاليد الأمور».

■■■

أعجزتني رواية أسامة الغزاوي عن النطق والتعقيب... يا لها من مفاجأة مذهلة.. أيعقل هذا؟ مرشد سري ولا يعرف عنه أحد شيئًا؟!!... ويكأنني اكتشفت في هذا اليوم اكتشافًا مذهلًا تتحير منه الألباب وتتيه منه العقول.

استكمل أسامة روايته المدهشة قائلًا :

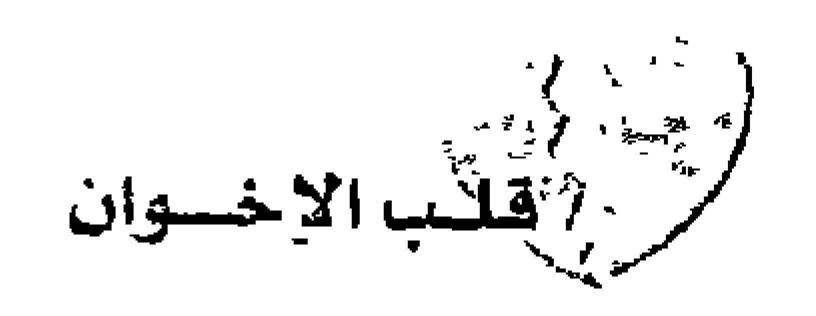
«لعلك تعرف الأستاذ فريد عبد الخالق الذي كان من المقربين من حسن البنا، ولكن لعلك لا تعرف أن أفراد النظام الخاص كانوا من أحرص الناس على استبعاده من قيادة التنظيم هو والدكتور توفيق الشاوي القانوني الشهير والأستاذ عبد المتعال الجابري... أما الأول فقد جلس على ضفاف الجماعة يحضر في مناسباتها العامة دون أن تكون له صلة بالشأن الداخلي للجماعة، والثاني هجر الكل وسافر إلى المملكة السعودية وتفرغ لتأسيس مدارس إسلامية وكتابة مؤلفات عميقة في القانون والاقتصاد الإسلامي والشورى في الإسلام، أما الثالث فقد سافر إلى أمريكا حيث فر من رجال النظام الخاص

ونذر نفسه للدعوة العلنية المفتوحة هناك في إحدى الولايات بأمريكا يرافقه في ذلك الدكتور حسان حتحوت الذي كان من التلاميذ النجباء لحسن البنا».

سادت فترة صمت طويلة بيننا إذ كنا ما زلنا نسير في الشارع الطويل في حين كان الليل قد دخل إلى نصفه الثاني دون أن نشعر بتوغله، وكنا قد اقتربنا من سيارتي فجلسنا فيها كي نحتمي بها من لسعة البرد وبعض قطرات من المطر غشيتنا.. وبعد أن أحكمنا إغلاق نوافذ السيارة أكمل الغزاوي:

«كنت أجلس عند الأستاذ فريد عبد الخالق وسمعته وهو يدلي بحوار لأحد الصحفيين، فقال من ضمن ما قال: « ظن رجال النظام الخاص أنهم أحكموا السيطرة على الجماعة وبالفعل اشتكى لي الأستاذ عمر التلمساني من أنه أصدر أمرًا ذات يوم، إلا أن هذا الأمر لم يتم تبليغه لأحد فاحتد الأستاذ عمر على المسئول عن التبليغ وهو الأستاذ كمال السنانيري أحد رجال النظام الخاص الأقوياء وأحد رجال مصطفى مشهور الأمناء، وسأله عن الأسباب التي دعته إلى عدم تبليغ القرار، فقال السنانيري: لأن قيادة الإخوان لم توافق على قرارك... فتعجب التلمساني وقال: وهل من قيادة غيري؟.. فقال السنانيري: نعم... نحن القادة... مصطفى مشهور وأحمد حسانين وحسني عبد الباقي وأنا... ثم قام السنانيري بدعوة أحد العاملين في مقر الدعوة وسأله أمام التلمساني قائلًا: «لو أمرتك أمرًا وأمرك بغيره المرشد فلمن ستطيع؟» فقال الرجل: «لك طبعًا».

وهنا أيقن التلمساني أنه يجب أن يدفع في الجماعة دفقة من الشباب يؤمنون به وبأفكاره فكان عبدالمنعم أبو الفتوح وأبو العلا ماضي وعصام



العريـان ومختار نوح وغيرهم..ومـن خلال هؤلاء الطلبـة وقتها دخل جيل الشـباب بـالآلاف إلى مدينة الإخـوان فكان هذا هو الإحيـاء الثاني للتنظيم، بيد أن أطياف الجماعة المختلفة اقتسمتهم فيما بينهم، فمنهم من تتلمذ على يد أفـراد النظام الخاص وانضوى تحـت راية أفكارهم، ومنهم من تتلمذ على يد التلمسـاني والمدنيين من شـيوخ الجماعة وآمن بفكرهم وطريقتهم.. فريق مع عسكرة التنظيم وفريق مع مدنية الجماعة.

يقـول الأسـتاذ فريـد عبـد الخالـق: وقد طلـب منـي التلمسـاني أن أكون بجـواره إلا أنني لم أسـتطع العمـل مع هؤلاء... من أجل ذلك قام التلمسـاني بفتـح منافـذ الجماعة لكل أفراد التيار الإسـلامي... ومن أجـل ذلك أيضًا قام باستدعاء بعض الطيور المهاجرة من الإخوان فأعاد إلى مصر في النصف الأول من الثمانينيات المستشـار مأمون الهضيبي رجل القانون المتمرس وابن المرشـد الثاني وكان يعمل آنذاك مستشارًا قانونيًّا لوزير الداخلية السعودي، فأسند إليه إدارة بعـض الملفات السياسـية رغم اعتراض أفراد النظـام الخاص عليه، فقد ظـل الهضيبي الابن بعيدًا عن الإخوان مدة عشر سـنوات كاملة بعد أن صدر ضـده قـرار بالفصل مـن الجماعة بعد مشـكلة تنظيمية كبرى نشـبت بينه وبين الشيخ مناع القطان مسئول الإخوان بالمملكة والأب الروحي لهم هناك!!

كاد الهزيـع المتبقـي مـن الليـل أن يلتقط أنفاسـه الأخـيرة ويحمل ظلامه ويرحل، وكانت قطرات المطر الخفيف قد انقطعت وكأنها تتأدب مع المصلين الذيـن سـيبرحون دورهم عنـد الفجر للصلاة في المسـاجد فغادرنا السـيارة لنذهب مترجلين إلى أحد المسـاجد اسـتعدادًا للصـلاة... وغمرتني حينذاك

رعشــة بـرودة وأنــا أحدث نفسي: هــا هي المفاجــأة الثانية التــي لا يمكن أن يتوقعها أحد!! المستشــار مأمون الهضيبي ابن المرشد الأسبق حسن الهضيبي تم فصله من الإخوان فتركهم لمدة عشر سـنوات!! ليت شعري أحقيقة هذه أم نحن في عالم العجائب الإخوانية؟

أخذت أستزيد أسامة الغزاوي بشغف فقال:

«كانت هذه هي القصة التي سـمعتها من الأستاذ عبد المتعال الجابري كما قلت لك، وسمعت طرفها الآخر من الأستاذ فريد عبد الخالق، وقد حاولت الاسـتيثاق من الحـاج مصطفى ذات يوم عن صحة خبر المرشـد السري فلم يجبنـي وقال لي: هذا علم لا ينفع.. لا تتحدث إلا فيما يعنيك.. إلا أنني كنت أتحرق شوقًا لاستجلاء غموض هذه القصة التي أخفتها القيادات عن الجميع وكأنها عورة ينبغي طمسها أو ذكرى بائدة يجب أن تكون نسيًا منسيًّا!!..».

«ذهبـت إلى أخينـا الدمـث الدكتور عبدالمنعـم أبو الفتـوح عضو مكتب الإرشـاد الـذي تعرفـه فقال لي: كنـت حاضرًا في هـذه الأيام ولكن المرشـد الـسري لم يكـن المهنـدس حلمي عبـد المجيد بل كان الشـيخ زكـي وهو من شيوخ الإخوان الكبار وقتها، وتم اختياره ليدير دفة الجماعة إلى أن يتم اختيار مرشد جديد.. وردد مثل ذلك الدكتور السيد عبد الستار المليجي».

«وذكر أخونا الدكتور عصام العريان نجم الإخوان البازغ المثقف في لقاء خاص جمعه ببعض الإخوة أن المرشـد السري لم يكن حلمي عبد المجيد.. بل كان الشـيخ حسني عبد الباقي أحد سدنة التنظيم وأحد أهم قيادات النظام الخاص..».



«بيد أن كبار الإخوة أجمعوا على أن «أبو الفتوح» والعريان والمليجي كانوا وقتها من صغار الشباب ولم يكن يسمح لهم بالاطلاع على تلكم الشئون، وأن المرشد السري كان هو حلمي عبد المجيد الذي خرج بعد ذلك من زمرة الجماعة ولم يظهر في أي مناسبة من مناسباتها».

دارت رأسي من تلك القصة الغريبة التي جعلتني عندما استمعت لها ما بين مندهش ومتعجب، إلا أن الحرارة التي كان يتحدث بها أسامة والاسترسال الذي حرك لسانه جعلا صدقه عندي لا مراء فيه.

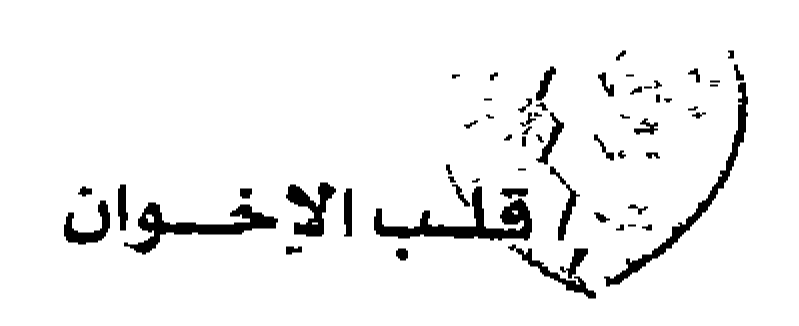
كانت رسل الفجر قد بدأت في التجلي وظهر بعض المصلين وهم يغادرون دورهم في طريقهم إلى المساجد انتظارًا لأذان الفجر، وكنا قد قطعنا الشارع مرة أخرى وحديث الغزاوي المشوق لا ينتهي وكأن جعبته لا تنفد من الأسرار.

تدخلت في الحوار مستفهمًا: نعود مرة أخرى إلى سؤالي الذي جرنا إلى هذه القصة العجيبة.. تلك القصة التي لا أظن أن أحدًا من شباب الإخوان يعرف تفصيلاتها أو يدرك مراميها ومغزاها والتي قطعًا تحتاج إلى بحث وتنقيب للوصول إلى كنهها... ولكن يظل سؤالي حائرًا.. لماذا يا أخي قال المستشار مأمون الهضيبي في معرض الكتاب عبارته المؤلمة التي أظن أن فكره يرفضها؟ لماذا قال: «نحن نتعبد لله بأعمال التنظيم الخاص قبل الثورة»؟!!

قال الغزاوي وقد أخذه التعب وظهر على صوته الإرهاق: عندما وضع المستشار مأمون الهضيبي قدمه على أرض الإخوان في مصر أدرك أن رجال

التنظيم الخاص يسيطرون.. ولكنه وضع يده في يد بعض رجال الأستاذ عمر التلمساني ووثق صلته بالأستاذ صلاح شادي رحمه الله وكوّن معه لجنة سياسية ضموا إليها عددًا من المفكرين من غير الإخوان، وبعد أن مات الأستاذ التلمساني وجاء الأستاذ حامد أبو النصر أدرك الهضيبي الابن أن مقاليد الأمور آلت كلها إلى رجال التنظيم الخاص وأنه لن تكون له مكانة إلا إذا صانعهم ومالأهم فبدأ يتقرب إلى كبيرهم الحاج مصطفى مشهور، أما هم فقد نظروا إليه فوجدوه مستشارًا كبيرًا مرهوب الجانب مكث سنوات من عمره قريبًا من الحكام والملوك إذ كان كما قلت لك مستشارًا لوزير سعودي من آل سعود فسعدوا بصحبته واستناموا له خاصة أنه أخذ يدافع عن أعمالهم قبل الثورة... ومن هنا فإن المستشار مأمون كان يفسح لنفسه مجالًا داخل الجماعة من خلال كلماته في معرض الكتاب عنهم ليسحب منهم أهم ملفات التنظيم كي يديرها بعقلية مدنية بعيدًا عن الطريقة العسكرية الآلية التي أتقنوها ولم يعرفوا غيرها... وعن قريب سيصل هذا الرجل إلى بغيته إذ من السهل عليه أن يسيطر عليهم ويسوسهم بذكائه وحنكته ودهائه.

ولك أن تعلم أن المرشد السابق الأستاذ التلمساني وضع المستشار مأمون في لجنة سياسية بالإخوان هدفها وضع تصور لحزب مدني وكان معه في هذه اللجنة الأستاذ صلاح شادي ولكن يبدو أن المستشار مأمون عدل عن هذه الفكرة حاليًّا وتوقف عن المضي فيها بعد أن وجد أن رجال النظام الخاص يمقتونها ويبغضون من يطرحها وكأنه قتل أباهم لأنه في مخيلتهم لا تستقيم الجماعة في وجود حزب ولا يصلح الحزب مع جماعة... وقد قال لنا الحاج



مصطفى مشـهور ذات يوم ونحن نناقشـه في جدوى عمل حزب سياسي إن حسن البنا قال: إن الأحزاب مخالفة للشرع!!

وبعد وفاة الأسـتاذ التلمسـاني تم مناقشـة فكرة الحزب في مكتب الإرشاد، وقتها قال الحاج مصطفى: إن فكرة الأحزاب السياسية تخالف الإسلام وتدعو إلى التفـرق وقـد انبثقت الأحزاب مـن ثقافة الغرب الملحد ولـن ندخل معهم جحـر الضـب ولكننا سـنعيش في طهـارة الجماعـة (يقصد لن نسـتدرج لعمل حزب سـياسي) ومـن بعدها وضع المستشـار مأمون برامج الأحـزاب التي تم إعدادها في سلة مهملات الجماعة حتى يكسب رضاء رجال النظام الخاص.

لا أعـرف لمـاذا وقـع في خلدي عندمـا اسـتمعت إلى التبرير الذي سـاقه الغـزاوي قصة « تاييس » التي كتبهـا الروائي الفرنسي « أناتول ىرانس » عن تاييـس والراهب بافنـوس.. ذهب بافنوس إلى تاييس كي يسـحبها إلى دائرة الإيمان فخرج هو من دائرة الإيمان... فهل تتكرر القصة؟

أذَّن الفجر في نهاية الكلمة الأخيرة لأسامة وكنا على باب مسجد عاطف السـادات، ذلك المسـجد الكبير الضخـم القابع في الثلث الأخير من شـارع طومان باي والذي كان في يوم من الأيام مجرد زاوية مقتطعة من مركز شباب طومان باي ثم أصبح بعد حرب 1973 م مسجدًا ضخمًا وقد امتد إليه نفوذ التجمعـات السـلفية دون أن يكـون لجماعة الإخـوان أي وجود في أنشـطته وبذلك سـيطر السـلفيون عـلى الجامعين الكبيريـن بالمنطقة كلها... مسـجد العزيز بالله ومسجد عاطف السادات.

وبعد أن صلينا الفجر دعانا البعض إلى الجلوس في مقرأة متخصصة في تعليم أحكام تلاوة القرآن ولكننا اعتذرنا للإجهاد الذي سيطر علينا وانصرفنا وأقدامنا لا تكاد تحملنا إلا أن عقلي كان في أوج نشاطه وتوهجه، ومن حالة الشبق المعرفي التي اعترتني قلت لأسامة الغزاوي ونحن في الطريق إلى بيته حيث تقف سيارتي: هل لك أن تخبرني عن سبب تركك للإخوان... أو بالأحرى فصلك منها؟

قال والأسى يمتزج بابتسامته: جاء لنا أمر من مسئول المنطقة بخصوص انتخابات مجلس شورى الجماعة بوجوب أن يختار الأخ أسماءً معينة بذاتها دون غيرها وكان من ضمن هذه الأسماء الحاج مصطفى مشهور... والله يا أخي لو تركوا الأمر دون توجيه لاخترت هذه الأسماء، ولكنني أنا وآخرين رفضنا تلك الشورى الزائفة وقلنا لبعض: رغم حبنا للحاج مصطفى إلا أننا لن نختاره، ولن نختار الأسماء التي أعطونا إياها، ولكن أحد الإخوة سامحه الله أفشى أمري أنا وعمر التلاوي فتم التحقيق معنا ثم تم وقفنا لمدة عام... وإذ رفضنا هذا الظلم صدر قرار بفصلنا من الجماعة.

■■■

لم أستطع أن أخلد إلى النوم رغم تلك السهرة التاريخية، من بعد المغرب إلى ما بعد الفجر وحتى تباشير الصباح ونحن نستدعي ذلك التاريخ القريب للإخوان، وعندما أويت إلى فراشي تداعت الأفكار وتفاعلت في فؤادي فأقضت مضجعي ومنعتني من النوم.. ينبغي أن أسير في الجماعة وأنا أحمل

مصباح ديوجين فيلسوف أثينا الشهير الذي كان يحمل مصباحه في وضح النهار يبحث به عن الحقيقة، ينبغي أن أحتفظ بعقلي لا أسلمه لأحد مهما كان قدره، فلم تصب الإنسانية بآفة كآفة تسليم العقول يعبث بها من يشاء، لقد أدركت من خلال ذاكرة أسامة الغزاوي أن الجماعة عندما تشعر أنها مهددة بالزوال فإنها تدافع عن نفسها عبر عدة وسائل، إذ تسعى أولًا إلى وأد أي حركات تجديدية داخلية ومحاربتها بشتى الطرق، كما أنها تسعى في ذات الوقت إلى الانكماش والتقوقع على ذاتها كوسيلة من وسائل الدفاع عن النفس بحيث تبقى بمعزل عن البناء الحضاري للمجتمع... أما طبيعتي فهي ضد العزلة والتقوقع والانعزال.. أنا مع الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة... وما التنظيم إلا وسيلة فإن خاب في مسعاه فليذهب إلى ذمة التاريخ ولتكن الدعوة إلى أن يشاء الله.

بعد عصر يوم الجمعة الذي جاء ردف تلك السهرة الليلية المدهشة من بدايات عام 1992 م قررت أن أدون في مفكرتي كل ما يمر بي في الجماعة من أحداث، وأن أدون أيضًا تلك الأحداث التي مرت بالجماعة وكنت قريبًا منها أو التي مرت بمن سبقوني في الإخوان... وكان أول ما كتبته عن أيام الإخوان المسلمين في نقابة المحامين من بداية التجربة إلى تلك اللحظة التي أمسكت فيها بالقلم ثم ما بعد ذلك مع توالي الأحداث.. تلك الأيام التي كانت ماثلة بين أيدينا والتي كنا نرتع فيها في أقدم نقابة مهنية ليس في مصر فحسب ولكن في العالم العربي كله.. أيام الإخوان في تلك النقابة العلمانية الليبرالية الصلدة.. ويا لها من أيام.

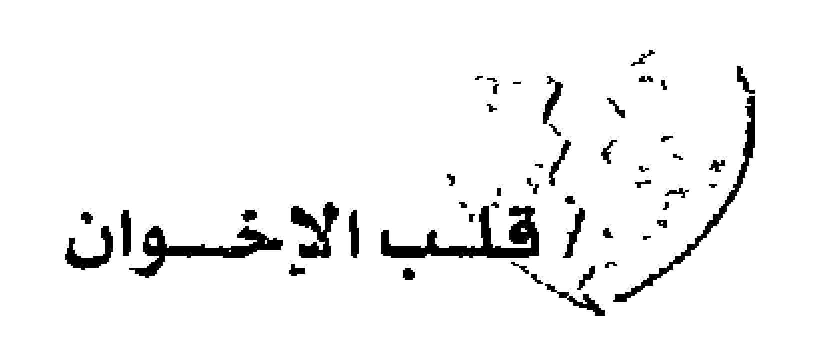
الفصل الثالث

سفر التكوين(*)

«عندما يتسلقَ الإنسانُ بدأبٍ وإصرار الجبلَ ليصل إلى القمةِ فإنه سيصل حتمًا ولكن ينبغي عليه أن يعلمَ أن الغيومَ والسحبَ تحيطُ بالقمةِ من كل جانب».

كان ذلك قبل أن أدخل إلى الإخوان أو أنخرط في تنظيمهم، لم أكن أعرف بحسب أنني كنت أنظر إلى جسم الإخوان من الخارج حقيقة ما يدور داخل التنظيم، أما الآن فإنني أكاد أقسم أن الأستاذ عمر التلمساني رحمه الله لم يكن يتصور أنه عندما أطلق شرارة بدء حركة الإخوان المسلمين في نقابة المحامين أن يئول الأمر إلى ما وصل إليه الحال فيما بعد.

(*) كتبت هذه السطور في مفكرتي بدءًا من عام 1992م، وبعد هذا التاريخ حدثت الكثير من الأحداث والوقائع وتبدلت أحوال البعض، ولذلك قمت بكتابة إضافات سأجعلها في موقعها المناسب ولكنني سأضعها بين قوسين لتمييزها عن النص الأصلي، إلا أنني اختصرت الذي دونته في مفكرتي وتجاوزت أحداثًا هامة حتى لا أستدرج القارئ إلى تفريعات ليس هنا مجال ذكرها.



في بداية عام 1983 م حينما أصبح الشتاء في عنفوانه، قام الأستاذ عمر التلمساني مرشد الإخوان آنذاك بدعوة عدد من أبناء الحركة الإسلامية من العاملين بالمحاماة كي يستأنس برأيهم في شأن وضع حجر الأساس للحركة الإسلامية بعمومها في نقابة المحامين، كان من بين الحضور عدد من قيادات الإخوان من غير المحامين وكان من بينهم أيضًا بعض شيوخ المحامين الذين انتسبوا للإخوان بشكل أو بآخر.

وبعد أن صلى الجميع الظهر خلف إمامهم وقائد دعوتهم ومرشدهم عمر التلمساني، تحلَّق الجمع حوله وقد توسطهم في الحجرة الرئيسية بمقر الدعوة الإخوان بالتوفيقية وأخذ الرجل وهو المحامي الأريب يستمع إلى الشباب والشيوخ.. يتفرس وجوههم ويبحث في قلوبهم ويقرأ تصوراتهم الحركية في الشأن الذي دعاهم إليه، إلا أنه أعرض بامتعاض عن كل ما استمع إليه إذ كان المتكلمون يتحدثون وكأنهم من أهل الكهف لا يدرون عن واقعهم شيئًا.

وعندما انتهى الجميع قام من آخر الصف شاب في نهاية العقد الثالث من عمره يطلب الكلمة... وعندما أذن له المرشد تكلم واحتد وشرح كل ما في عقله وكانت كلماته تحمل قدرًا من اللوم على جيل فشل في وضع أقدام الحركة الإسلامية في نقابة المحامين حتى أصبحت هذه النقابة قلعة من قلاع الأيديولوجيات الليبرالية واليسارية التي تقف في موقع المنافسة مع ما أطلق عليه الباحثون « الإسلام السياسي ». أثار كلام هذا الشاب سخط الكبار وإعجاب الشباب حتى إن المرشد التلمساني انتهره وطلب منه الجلوس،

إلا أنه عند انصراف الجميع همس المرشـد في أذن الشاب مختار نوح قائلًا: مُر عليَّ في الغد.

لم تكن هذه اللفتة لتمر بسلام وبين الجالسين الحاج أحمد حسانين والدكتور أحمد الملط والشـيخ حسـني عبد الباقي أبناء النظام الخاص الذين استشعروا أن المرشـد يسـعى قدمًا نحو اجتذاب شباب الإخوان إلى دائرته الخاصة التي تنشد الدعوة، بعيدًا عن عيونهم ورقابتهم، وإلا فما الداعي أن يهمس في أذن هذا الشـاب وهو يبتسم ابتسامة نافذة، فأوجسوا في أنفسهم خيفة وأضمروا في ضمائرهم شيئًا.

(صـدرت تعليمات بعد ذلك إلى مسـئولي المحافظات بعـدم تنفيذ أي أمر يصـدر بخصوص مختار نـوح إلا بعد الحصول على موافقـة من أحد هؤلاء، إلا أن المرشد التلمساني كان لهم بالمرصاد ومن بعد استطاع نوح التغلب على تلـك المعوقات مـن خلال صلته الوطيدة بالمستشـار مأمـون الهضيبي إلى أن تغيرت الأحوال وسبحان من له الدوام).

في اليـوم التالي كان التلمسـاني يسـتمع مـن مختار نـوح إلى تصور حركي واسـتراتيجي كامـل يسـمح للحركـة الإسـلامية بعمومها وليس الإخوان فحسـب بالولـوج إلى نقابة المحامين تلـك النقابة التي كانـت الحلم للحركة الإسلامية... والأمل للإخوان المسلمين إلا أنها كانت عصية عليهم.

قال نوح للمرشـد وهو ينظـر تأدبًا إلى الأرض: أرى يا فضيلة المرشـد أنه ينبغـي أن نقوم بتكوين صف واحد في نقابـة المحامين ينضوي تحت رايته كل

التيار الإسلامي.. الإخوان وغير الإخوان.. يمتد جغرافيًا إلى كل القُطر بحيث يرتبط الجميع برباط عضوي، كما لا بد أن نقدم عملًا إسلاميًا واضحًا ونعلن عن طموحاتنا وأنفسنا وشعاراتنا بلا مواربة إذ لم نجن من المواربة التي كان السابقون يحرصون عليها إلا الفشل... ثم مد نوح يده للمرشد ببضع ورقات تحتوي على تصور حركي ومنهجي ثم استطرد: هذه الورقات تحتوي على تصوري أقدمها لفضيلتكم حتى أحصل على رأيكم وتوجيهكم بشأنها.

مما لاشك فيه أن المرشد المستبصر تنفس الصعداء ثم ربت على كتف نوح وهو يقول له :

«أوافق على هذا التصور، إلا أنني أطلب منك أن يكون صفك باحثًا عن مصالح المحامين قبل غيرهم، ولو كان غيرهم هم الإخوان».

«أنت الآن مسئول عن تنفيذ تصوراتك وأفكارك وسأساعدك ما وسعني الجهد».

«اعلم أنه ستقابلك العديد من المشاكل والصعوبات الجمة، لن تكون الصعوبات أو المشاكل التي أعنيها من المنافسين الذين ينتمون لتوجهات سياسية منافسة فهذه مقدور عليها، ولكن ستقوم عليك الحروب من أبناء جلدتك الفكرية.. أبناء مرجعيتك فاحذر منهم».

«إذا أردت أن تسلك طريقًا في الحركة ووجدت معارضة من أحد من الإخوان هدفها توقيفك وإحباطك فاضرب الصفح عنهم وقل لمن يعارضك: إنما أفعل ما أمرني به التلمساني».

كان المرشد على يقين من أن مشروعه الفكري الرامي إلى تحويل الجماعة إلى تيار دافق يسري في أوصال المجتمع ويضم كل أبناء الحركة الإسلامية سواء من انضم منهم للتنظيم أو من لم ينضم ،لا فارق بينهما إلا بمقدار الإيمان والعمل، سوف يلقى معارضة أكيدة من فريق يسعى بقضه وقضيضه نحو إحكام قبضته على عنق الجماعة، إذ كان هذا الفريق قد نشأ بعضه في حضن النظام الخاص وتحت رعاية عبد الرحمن السندي، وشرب بعضه الآخر من معين سيد قطب وكانوا سدنة معبده الفكري وأتباعه في قضية 1965م، من أجل هذا كان المرشد حريصًا على تحذير نوح من أولاء بكلمات تحمل تلميحًا وتخفي تصريحًا أو تبطن أكثر مما تظهر.

■■■

لم ينصرم عام 1983 م حتى جمع مختار نوح حوله من جيله عددًا من المحامين الذين يحملون عاطفة دينية مشبوبة... لم يكن منهم من ينتمي إلى الإخوان المسلمين إلا ستة نفر؛ خمسة من المحامين أما السادس فقد كان طالبًا في كلية الحقوق (سيكون بعض هؤلاء صاحب دور مؤثر في مسار جماعة الإخوان في نقابة المحامين في مستقبل الأيام)، أما عن هؤلاء الستة فهم جمال تاج الدين (الذي أصبح نقابيًا بارزًا فيما بعد كما أصبح صاحب مكانة إخوانية إلا أن مكانته ارتبطت مدًّا أو جزرًا بمن هم على مقاعد الإدارة الإخوانية العليا، كما أن شخصيته الصدامية عطلته عن الترقي في مدارج الإخوان وأوقفت رحلة صعوده حتى حين)، وجمال فايز (الذي اختفى من الأحداث

بعد ذلك بسـنوات وترك جماعة الإخوان رغم النسـب الذي ربطه بأحد كبار الإخوان الأوائل الراحل محمد المسماري والصلة العميقة التي كانت بينه وبين المرشـد التلمساني)، ومحمد غريب (الذي دخل الإخوان عن طريق بوابة نوح ومـا لبث أن خط لنفسـه طريقـه في الإخـوان وتراوحت رحلتـه الإخوانية ما بـين الصعود والركـود)، ومصطفى زهـران (الذي كان راقصًـا في فرقة رضا للفنون الشعبية وكان من المتوقع أن يكون له الشأن الأكبر في تلك الفرقة الفنية التليدة، وإذا به يغير مسـاره عندمـا التقى بنوح حيث ترك الفرقة الفنية ودخل إلى الفرقة الدينية.. الإخوان المسلمون.. وأصبح بعد ذلك من علامات البداية للإخـوان في نقابـة المحامين إلا أن الحال لا يـدوم فسرعان ما تراجعت مكانته الإخوانيـة وتعرض لكثير من المشـاكل داخل المحضـن الإخواني حتى أصبح قاب قوسـين أو أدنى من ترك الجماعة إلى أن تم تسـكينه في أسرة إخوانية تضم المشـكوك في ولائهم فأصبح على الهامش بعد أن كان من القلب)، وأحمد ربيع (أحـد أوائل مـن انضم مـن محافظة الجيزة للإخـوان المسـلمين وكانت تربطه بالحاج مصطفى مشـهور رابطة قوية حيث دخـل الإخوان عن طريقه في نهاية السـبعينيات ثم انقطع الحبل السري الـذي كان يربطه بالحاج مصطفى بعد أن استوى عـوده... وقـد ترقى أحمد داخـل الإخوان وأصبح في فـترة من فتراته مسـئولًا عن نشـاط الأشـبال في الإخـوان وتمـازج أحمد مع نـوح وشرب منه وتعلـم الكثـير على يديه وبعد محنـة نوح التي دخل فيها السـجن عام 1999م ستصيب أحمد لعنة الإخوان بسبب قربه من نوح وسيتم تنحيته من كل مواقعه الإخوانية وسيصبح خالي الوفاض وأثرًا بعد عين).

ثم طالب الحقوق وقتها سيد عبد العزيز الذي كان أحد شباب الإخوان في منطقة الزيتون وكان مقربًا من نوح حيث ظل منافحًا عنه وسندًا له (إلا أن السفر خارج البلاد للبحث عن الرزق أبعده لسنوات عن الجمع وعندما عاد من سفره عاد بغير القلب الذي ذهب به)، ثم انضم إليهم بعد ذلك خالد بدوي الداعية الذي عُرف عنه أنه رقيق الحاشية دمث الخلق بشوشًا مبتسمًا يمتلك وهو يقرأ القرآن صوتًا خاشعًا مؤثرًا يهز الأفئدة (وأصبح بعد ذلك من مختار نوح كهارون من موسى عليه السلام ومن بعد صار خالد عضوًا شهيرا بمجلس نقابة المحامين وتم حبسه مع نوح في قضية عبد الحارث مدني عام 1994م ثم في قضية النقابيين عام 1999 وبذلك أصبح رفيقًا لمختار في سجنه كما كان رفيقًا له في العمل النقابي).

وبهذا العدد بدأ مختار نوح في تأسيس الصف الإسلامي حيث قام بالطواف في المحافظات والقرى كي يجمع أنصارًا من المحامين يعرض عليهم فكرته وتصوراته الإسلامية والحركية التي كان نبعها هو فكر الإخوان... وبدأ العدد في التكاثر من حوله رغم المعوقات العديدة التي وضعها أمامه من أشار عليهم التلمساني.

كانت المشاكل تترى، والبيروقراطية تقف حائلاً دون انطلاقات هذا الشاب كأنَّ الذين يعوقونه ينتمون إلى جماعة أخرى وتنظيم آخر... ولم يكن نوح يستطيع في كثير من الأحايين التغلب على تلك البيروقراطية إلا بالاتصال بالمرشد التلمساني حتى يأمر بفك تلك الطلاسم التنظيمية.

ورغم كل ذلك فقد كانت البداية برّاقة لامعة تخطف الأبصار، وقد أسهم في الزخم الذي صاحب البداية تلك الحالة المصرية الفريدة التي لم تتكرر كثيرًا فقد كانت مصر المتدينة أصلاً آنذاك في حالة شعورية فريدة من التدين والإقبال على الحركة الإسلامية التي اكتسبت ثقة الشارع بسبب حكمة وحصافة التلمساني، وبسبب العلماء والدعاة الذين انتشروا قبلها في مصر من خلال مساجدها ومنابرها وجامعاتها يصنعون مساحة تأثير غير مسبوقة ويمهدون الطريق لمن يجني الثمار.

لكل هذا ولغيره تكوّن في نقابة المحامين صف من المحامين يحملون خليطًا فكريًا وحركيًا متناثرًا إلا أنه تجمعهم مرجعية واحدة وعاطفة دينية مشبوبة، انتمى معظمهم إلى الإخوان المسلمين عن طريق نوح وظل البعض الآخر بغير انتماء تنظيمي.

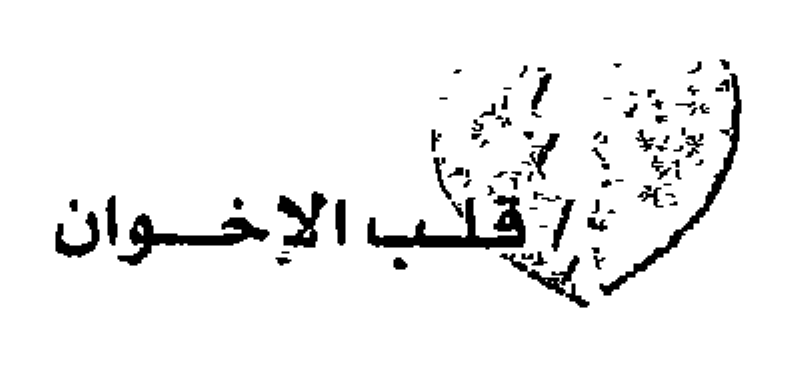
كانت المشكلة الأساسية التي واجهت نوح ومجموعته هي تحت أي غطاء نقابي يعملون؟ إذ لم يكن التلمساني يحبذ لهم العمل في النقابة تحت راية الإخوان بشكل فج، وإن لم يمانع بطبيعة الحال من أن تكون الراية التي يلتف من حولها المحامون هي راية إسلامية ذات شعارات إسلامية واضحة، كما أنهم يذكرون تلك الليلة التي اجتمعوا فيها مع القطب الإخواني الشهير الأستاذ فريد عبد الخالق في بيته حينها قال لهم بكلمات واضحة رقراقة: ينبغي وأنتم تمارسون عملكم النقابي أن تقطعوا الحبل السُّري بينكم وبين الإخوان، بل وينبغي أن تنتهي فترة فطامكم الإخواني.. أنتم من المحامين وينبغي أن يكون عملكم لمصلحة المحامين قبل أي مصلحة أخرى... ولا ريب أن مثل

هذه الأفكار قد ألقت بالأستاذ فريد عبد الخالق بعيدًا عن المواقع القيادية في الجماعة رغم تاريخه الذي يضرب بجذوره في تربة الإخوان وصلته القوية بالمرشد التلمساني... وعلى نفس النهج نصحهم المفكر الإسلامي والقانوني العملاق الدكتور توفيق الشاوي (رحمه الله) الذي كان قد أبحر بعيدًا عن التنظيم منذ أمد.

(ولعل لجوء نوح إلى أولاء الرجال يطلب منهم المشورة جعل فريق النظام الخاص يضع تحت اسمه ورسمه خطًّا أحمر ظل يصاحبه كظله فيما بعد).

تعددت مصادر الشورى وتنوعت وكان من رأي الأستاذ محمد هلال (وهو من كبار المحامين بالإخوان وأحد أكبر أعضاء مكتب الإرشاد سنًّا وتولى موقع المرشد المؤقت عقب وفاة المرشد السابق مأمون الهضيبي وسيكون له دور مهم في الأحداث بالنسبة لي فيما بعد) أن يكون العمل تحت مظلة لجنة أو رابطة يطلقون عليها الصوت الإخواني أو ما شابه.. مما جعلهم يغوصون في حيرتهم.. تحت أي مظلة في نقابة المحامين نعمل؟.. هل تحت مظلة لجنة الحريات؟ أم تحت مظلة لجنة الشئون العربية أم أم أم؟ ولكن سرعان ما سينطلق ركب الإخوان إلى لجنة الشريعة الإسلامية التي ستصبح الناطق الرسمي للإخوان في النقابة... إلا أن الوصول إلى هذه اللجنة كان أشبه بالوصول إلى قمة إفرست، كنا نتصور لجنة الشريعة لقمة سائغة ولكن تصورنا هذا كان مستغرقًا في السذاجة... فقد كانت المفاجآت تنتظرنا.

■■■



كان أحمـد الخواجة هو أول من أدرك في نقابة المحامين ملكات مختار نوح وقدراتـه الانتخابية التي من الممكن أن تفسـح المجال للإخوان المسـلمين في نقابـة تتأبى على السـيطرة الحزبية. فقبيل انتخابـات المجلس التي أجريت في مايو من عام 1985م؛ عام المواجهة، توفي الأسـتاذ محمد المسـماري المحامي وعضو مجلس نقابة المحامين المنصرم والذي ينتسـب بصلة تماس أو انتسـاب لجماعة الإخوان المسلمين فضلًا عن أنه كان من المقربين للنقيب الداهية أحمد الخواجة وللمرشـد التلمسـاني في ذات الآن وفي سرادق العزاء المهيب تقابل أحمد الخواجة مع مختار نوح وانتحى به جانبًا ثم بدأ يُسر في أذنه كلمات: أنت شـاب رائع وسـيكون لك مسـتقبل إلا أنك تحفر نهايتـك ونهاية جماعتك في النقابة بنفسـك. كان من المفترض أن تتعلم من المرحوم المسـماري أهمية عدم رفع شعاراتكم الدينية.

قـال لـه نوح وهو يمتطي جواد الثقة: المسـماري رحمه الله أسـتاذي ولكن لـكل مرحلـة متطلباتها وقد آن أن نُعبِّر عن أنفسـنا وعن فكرنا ونحن نثق في ضمير المحامين.

فبـادره الخواجـة: اعلم يـا مختار يـا ابني أن الشـعار الذي رفعتـه والذي تقولـون فيـه نعـم نريدها إسـلامية مـن شـأنه أن يسـقطك في الانتخابات، فنقابـة المحامين نقابة علمانية وسـوف يقف ضدك الناصريون والشـيوعيون والمسـيحيون والوفديون.. سـيقف ضدك الجميع وسـوف يكون هذا كفيلًا بإسقاطك أنت وجماعتك.

إلا أن نـوح أجابـه بثقـة وهـو يتسربل بعبـاءة الجدية: أعلم هـذا يا معالي النقيب ولكن لا تقلق فسوف أنجح نجاحًا غير مسبوق.

فقاطعه الخواجة في هدوء امتزج بقليل من الحدَّة: السنة الماضية يا مختار لم يستطع الإخوان إعلان شعارهم في انتخابات مجلس الشعب بل إنهم تحالفوا مـع الوفـد ودخلـوا البرلمان مـن خـلال معطف غـير معطفهم وشـعار غير شـعارهم... صدقني فقد كنت حاضرًا للتحالـف من أوله لآخره وأنا الذي ذللت الصعاب التي واجهت هذا التحالف... أنا أحبكم يا بني وأحبك أنت على وجه الخصوص وأرى فيك شـبابي.. ارجع للأسـتاذ التلمسـاني وقل له الخواجـة نصحنـي بذلك وهو سَـيَفْهَمُ قصدي.. فقـد كان معي منذ لحظات يقـدم واجب العزاء، ويا ليتك حضرت مبكرًا ولحقت به حتى يكون كلامي هذا على مرمى حجر من أذنه.

قال مختار وهو يسـتمر في ثقته: هذا أمر محسـوم يا معالي النقيب ولا مجال للجدال فيه.

وكأنه لم ييأس.. وبحميمية تميز بها الخواجة أمسـك بيد نوح واقترب من أذنه هامسًا وكأنه سيدلي له بسر خطير: مصر يا مختار لا تتحمل في هذه الأيام شـعارات دينيـة... مصر مـا صدقت أنها خرجـت من دوامـة التطرف..... أرجوكم لا تعيدوا هذه الأيام....لو لم تنتبهوا فسيحدث في المستقبل القريب صـدام لا محالـة بينكم وبين النظـام.. بل سـتصطدمون بمؤسسـات الدولة المدنيـة كلهـا... وإذا فعـل الإخوان فعلتـك وأصروا على المواجهـة والمغالبة

بالشعار والأسلوب فستكون هذه هي بداية النهاية للإخوان ككل.. الأمر يحتاج إلى فطنة لا إلى شجاعة.

لم يأخذ أحد بنصيحة الخواجة فقد اعتبرناها مناورة وقد تكون كذلك إلا أننا لم نفكر حتى في طرحها للنقاش، ولكننا فقط تناقلنا خبرها بزهو وانتشاء، فالخواجة بجلالة قدره يخشانا ويحاول أن يستقطبنا وكأننا المجهول المخيف، وقد زاد من شعورنا بالفخر تلك النتيجة التي أسفرت عنها الانتخابات.... فعلى غير ما توقعت القوى السياسية في مصر فاز مختار نوح بالمقعد الأول للشباب مزاحمًا الكبار في عدد الأصوات ومتفوقًا بثلاثة أضعاف تقريبًا على سامح عاشور الابن الروحي لأحمد الخواجة الذي فاز بالمقعد الثاني، وكان هذا الفوز هو قمة المفاجآت التي أذهلت أحمد الخواجة ومجلسه، ولكن يبدو أن الخواجة لم يستسلم... فقد دبر أمرًا وأجرى اتفاقًا مع مجلسه سيكون هو الضربة الأولى للإخوان.

■■■

كان نوح قد جاب المحافظات والمراكز في جولاته الانتخابية وقد ساعدته هذه الجولات على اكتساب مزيد من الأنصار بل كانت هذه الجولات هي العامل الرئيسي في تكوين الصف الإخواني الكبير في نقابة المحامين فقد دخل إلى الإخوان من خلالها العشرات من المحامين واقترب من الإخوان بضع مئات يتحلقون حول نوح الذي ظهر كقائد منتصر استطاع فتح تلك النقابة الليبرالية التي كانت ذات يوم بعيدة المنال عن الحلم الإخواني.

وبدخول مختار نوح صاحب الثوب الإخواني للمجلس بدأت حقبة جديدة في نقابة المحامين وظهرت أمام نوح مظلة شرعية يعمل هو ومجموعته تحتها ومن خلالها هي مظلة لجنة الشريعة الإسلامية وهي إحدى لجان العمل النقابي في نقابة المحامين كان من ضمن أهدافها الرئيسية التي أنشأت من أجلها تقنين الشريعة الإسلامية وعمل أبحاث شرعية وقانونية لهذا الغرض.

وبعد أن أقمنا الأفراح ابتهاجًا بهذا النجاح الذي اعتبرناه أسطورة من الأساطير، حتى إن النوم خاصم جفوننا أيامًا من فرط السعادة ولِمَ لا تعترينا الفرحة وقد أصبح نوح هو الفارس الأول من فرسان الإخوان الذين ولجوا بالتنظيم إلى داخل النقابة كما يلج الجمل في سم الخياط؟!

أخذ بعضنا يتردد بشكل مستمر على مقر الإخوان المسلمين بالتوفيقية محاولاً لفت الأنظار إليه وكأنه يقول لكبار الإخوان: انظروا.. نحن جيل الفتح... نحن الذين فتحنا نقابة المحامين.

ووقع في قلوبنا الظن أن النقابة قد حيزت لنا بلجانها ورجالها.. إلا أننا أفقنا من أحلامنا البُلَهْنِيَّة عندما بدأ النقيب الخواجة في تنفيذ الأمر الذي دبره مع أعضاء مجلسه... فقد بدأ في دعم سامح عاشور بكل ما يملك من قوة.. في الوقت الذي أبعد فيه مختار نوح عن كل لجان النقابة بما فيها لجنة الشريعة الإسلامية!! وقتها أدركنا أن قوسنا لم تخرج من كبدها بعد وأننا ما زلنا في بداية الطريق ولم تستو شجرتنا على سوقها.

وبدأت المواجهة بين تيار الليبرالية المصرية الذي ضم تحت معطفه كل

التيارات السياسية.. والإخوان المسلمين الذين رفعوا شعار «نعم نريدها إسلامية»... وشعار من أجل نقابة يمنحها الإسلام صدق الوعود وتعيش بالإسلام ثبات الموقف.. صراع من أجل مساحة تبتغيها جماعة الإخوان ومحاولة عنيدة من القوى الليبرالية بإغلاق الباب أمامهم وإقصائهم.. إلا أن الرياح أتت بما لم تشته السفن.

■■■

كانت الصورة توحي بمعركة... مجلس نقابة يرفض بكامله إعطاء نوح مساحة يمارس من خلالها أنشطته... يرفض تسليمه لجنة الشريعة الإسلامية... ونوح يعلن على المحامين كافة أنه هو مقرر ومسئول تلك اللجنة النقابية.. والصراع يحتدم.

وفي وسط هذه الأجواء عاد الحاج مصطفى مشهور من غربته التي قضى فيها خمس سنوات، كانت حاسته الثاقبة وفراسته الصائبة قد أرشدته إلى أن الرئيس السادات سيقوم بالقبض على النخب من كافة الأطياف السياسية فغادر البلاد قبل اعتقالات سبتمبر الشهيرة عام 1981م، أخذ الحاج مصطفى يجوب بلاد الله ويتقابل مع خلق الله حيث استضافته المراكز الإسلامية في أمريكا ولندن وشرع وقتها في إقامة التنظيم الدولي للإخوان ثم عاد قبل أن يرتد إلينا طرفنا أو يرتد إليه طرفه وكأنه لبث يومًا أو بعض يوم، عاد إلينا بعرش التنظيم الدولي الذي أنشأ بنيانه أو أعاده للوجود وأنشأ لائحته.

عاد عندما وجد أن الجو السياسي في مصر قد استطاب لأهلها من الإخوان

وأمن كل واحد منهم على نفسه وماله، عاد الرجل من غربته ليجد المرشد التلمساني حرضًا في نزعه الأخير، فأخذ يُقلِّب ملفات الإخوان التنظيمية وأوراقها ويبسط نفوذه هنا وهناك، وكان أن وجد الإخوان قد قطعوا مسافة في النقابات المهنية وتوطدت أركانهم في الأطباء والمهندسين وبدءوا يظهرون في المحامين، فأوجس في نفسه خيفة أن يكون المرشد التلمساني قد جرى بهؤلاء بعيدًا عن سطوة التنظيم، فأسرها في نفسه ولم يبدها إلا لرجاله العتاة الأقوياء.

وكان لابد أن تجري المقادير بما قدَّره الله فقد مات الأستاذ عمر التلمساني وأفضى إلى ما قدَّم وبكاه من بكاه من الإخوان ومن غير الإخوان، واستراح لموته من استراح من الإخوان ومن غير الإخوان، وكأني سمعتُ وقتها الأستاذ فريد عبد الخالق الصديق الحميم للمرشد التلمساني وهو يقول لأحدهم مصطبرًا بصوت غلفته رعشة الحزن: إن صبرت جرت عليك المقادير وأنت مأجور، وإن جزعت جرت المقادير وأنت مأزور.

وكأني سمعته أيضًا وهو يقول: إن أخشى ما أخشاه على الجماعة أن تقع في يد من لا يحسن تدبير أمرها فيقذف بها بعيدًا عن منهج حسن البنا والتلمساني.

ولكني سمعتُ أيضًا آخر وهو يقول لآخر وقد دان لهم موقع المرشد: «والله لنتلقفها كما تتلقف الكرة ولن ندعها تقع من بين أيدينا أبدًا».

وأصبح الأستاذ حامد أبو النصر هو المرشد الرابع للإخوان المسلمين.

في أحـد الأيام من شـتاء 1987م انتحى الحاج مصطفى مشـهور بعد أن أصبح نائبًا للمرشـد أبو النصر بمختار نـوح وأحمد ربيع في حجرته المواجهة لصالـة الاسـتقبال بمقـر الإخـوان بالتوفيقيـة (تلـك الحجـرة العتيقـة التي شـهدت أحداثًا جمة وكان المستشـار مأمـون الهضيبي يزامله فيهـا أحيانًا)... كانت الحجرة بسيطة المحتويات وكان الحاج مصطفى بصورته المعتادة التي لم تغيرها الأحداث ولحيته الخفيفة غير المنتظمة وطاقية رأسه البيضاء... يرتدي كعادته صيفًا أو شتاءً حُلة صيفية رمادية اللون إلا أنه لبرودة الجو كان يرتدي تحتها رداءً من الصوف يقيه قر الشتاء ويحميه من نزلات الكحة الصدرية.

تنحنح الحاج مصطفى وقال وكأنه ينصح زائريه بصيغة أبوية آمرة: ينبغي أن تكون حركتكم في نقابة المحامين خالصة للجماعة وحدها دون غيرها.

وقبل أن يرد عليه نوح أو يعقب استطرد الحاج مصطفى: ليس الأمر مجرد كلام ولكـن أين العمل للدعوة؟ أين المقارئ التي ينبغي أن تكون هي حجر الأسـاس؟ أين المعسـكرات الإسـلامية؟ هذه هي النبتة التي منها سـتنطلق الدعوة... ومن خلالها سـيدخل إلى الإخوان الآلاف من المحامين وسيكون الفتح إن شاء الله.

قاطعـه نـوح وكأنه يسـتفهم: ولكن أيـن دور العمـل النقـابي المتمثل في الارتقاء بالمهنة وتقديم الخدمات للمحامين وإنشاء المشروعات النقابية؟

قال مصطفى مشـهور وهو يخترق وجه نوح بنظراته النافذة: يسـتطيع أي واحد تقديم مثل هذه الأعمال النقابية لكن لن يسـتطيع غيركم تقديم العمل

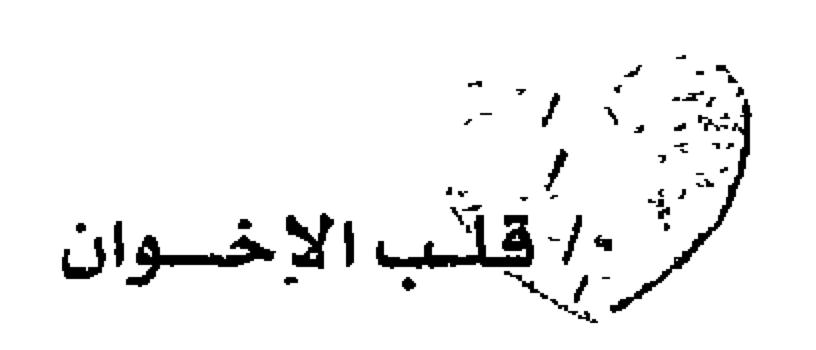
الإسـلامي... أنتم رسـل الدعوة في النقابة، ولذلك فليضع كل واحد منكما أمامه هذا الشـعار لا تغادراه أبدًا... في سـبيل الله قمنا نبتغي رفع اللـواء.. لا لحزب قد عملنا نحن للدين فداء... فليدم للدين مجده أو ترق فيه الدماء.

أكاد أقسـم أن مختار نوح تأثر بهذه الأفـكار وقتها، فقد أيقن أن فتح نقابة المحامـين لن يكون إلا من خلال العمل الدعـوي ولن تكون الدعوة إلا من خلال الإخوان وحدهم دون غيرهم ولن يكون الإخوان إلا بتنظيم محكم.. ولن يقبل الإخوان وجود أي حركة إسلامية منافسة مهما كان قدرها.. وعلى غير المتوقع ظهرت في سماء نقابة المحامين حركة إسلامية منافسة أثارت قلق الإخوان.

(ولكـن التجربة أعطـت لنوح بعد ذلك بُعـدًا فكريًّا مختلفًا، بُعدًا واسـع الأفق عظيم الامتداد، ولكن لم يمهله أحد فقد تعرض نوح في مستقبل الأيام بسبب أفكاره لإقصاء وتجميد).

■■■

ذات صبـح لأحـد أيـام عـام 1988 م انتـشرت في حجـرات المحامـين بالمحاكـم إعلانـات عن تأسـيس رابطة أطلقت على نفسـها جماعـة المحامين الإسـلاميين، كان أفراد هذه الرابطة ممن ينتمون إلى تجمعات إسـلامية مختلفة مثل الجهاد والجماعة الإسـلامية، وكان بعضهم جذوره سلفية إلا أنهم كلهم يقفون موقف الاختلاف مع الإخوان المسلمين، وبدأت أنشطة تلك الرابطة تنهـض وتظهر بصـورة توحـي وكأنهـا المنافس الإسـلامي للجنـة الشريعة



الإسلامية... أو على وجه الدقة للإخوان المسلمين.. وظهر على رأس هذه الرابطة منتصر الزيات الذي كان قد بدأ خطواته الأولى في المحاماة بعد خروجه من السجن، ومحمود عبد الشافي وهو شخصية إسلامية معروفة بين المحامين ولها حضورها، وقمر موسى الذي كان أميرًا للجماعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة في السبعينيات... وغيرهم.

أثارت هذه الرابطة قلق الإخوان وخوفهم... فأولئك المحامون ينتمون في الأصل إلى تجمعات حركية انتهجت العنف ودخل قادتهم السجون بعد اغتيال السادات وقد تصم تلك الرابطة بتاريخها المعروف كل التجمعات الإسلامية في النقابة بما فيها الإخوان بالعنف الذي كان قد استعدى ضده نفسية المصريين.. وغير هذا فإن تلك الرابطة بدت وفقًا لحركة رجالها وحضور بعضهم كمنافس صلب لجماعة الإخوان بالنقابة، فبعد أن كان الإخوان هم وحدهم أصحاب هذه البضاعة ورجالها في نقابة المحامين، إذا ببعضهم يظهر ويقول لهم: ونحن أيضًا نملك مثل بضاعتكم وسنرفع مثل شعاراتكم... لا تثريب علينا إن فعلنا ذلك، فلستم الوكلاء الحصريين للإسلام، ولن تكونوا.

ولذلك بدأت الحرب الخفية المستترة بين الأشقاء، وكانت الحرب تستعر نارها علنًا في بعض الأحيان أمام الغادي والرائح من عامة المحامين.. إلا أن الغلبة كانت دائمًا لفريق الإخوان، فقد كان فريق منتصر الزيات وقمر موسى يفتقد الحنكة السياسية والقدرة على إدارة المعارك إذ كان كل همهم في المحاكم وبين المحامين انتقاد جماعة الإخوان والحط من قدرهم وتسفيه أحلامهم،

ومن ناحية أخرى كان مختار نوح قد قطع شوطًا كبيرًا في دعم حركته وتجنيد الأنصار لجماعته في كل المحافظات فلم تُجْد انتقادات المحامين الإسلاميين ولم تفت في عضد الإخوان الذين ردوا على الهجوم بهجوم وشككوا في نوايا المحامين الإسلاميين وأثاروا الشبهات حولهم.

وعندما اشتد أوار الصراع الإسلامي واحتدمت المنافسة بدأ الوسطاء الطيبون من أصحاب النوايا الحسنة في التدخل للتوفيق بينهما، فتم تحديد موعد للقاء قد يسفر عن مصالحة وقد ينتهي بقطيعة.

كان شتاء عام 1988م قد حمل متاعه واستعد للرحيل وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، وقبل أن يهل الربيع استعد مقر جماعة الإخوان بشارع جول جمال بمنطقة الألف مسكن القابعة على أطراف شرق القاهرة لاستقبال ضيوف غير عاديين، كان عم خليل فرّاش المقر قد جهَّز المقرمشات وشرائح متنوعة من المخبوزات وأدوات الشاي والينسون والقرفة ثم غادر المقر تنفيذًا للتعليمات التي تلقاها، وقبيل صلاة العشاء بلحظات بدأ بعض أفراد يتوافدون على المقر، كان مختار نوح ومعه خالد بدوي وجمال تاج أول الحاضرين، ودخلتُ إلى المقر عقبهم مباشرة ومعي عبد السلام دياب (أحد المقربين من الإخوان وقتها) وسيد عبد العزيز فوجدناهم قد أقاموا صلاة العشاء فدخلنا في الجماعة ومن خلفنا اصطف عدد آخر كان قد دخل بعدنا، وبعد التسليم من الصلاة نظرنا خلفنا لنرى منتصر الزيات ومحمود عبد الشافي وقمر موسى وقد دخلوا معنا في صلاة الجماعة ومعهم بعض نفر من المحامين المنتمين لجماعتهم.

وبعد عبارات الترحيب والمودة الظاهرة التي كانت تخفي ترقبًا بدأ مختار نوح الحديث قائلًا: إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا... اليوم نجتمع لنضع حدًّا فاصلًا للانقسام الذي لا ينبغي أن يكون أبدًا بيننا... وقبل أن يكمل حديثه قاطعه خالد بدوي وهو يقطب جبينه: لو سمحت يا أخ مختار أنا معترض على ما تقول.

فقال مختار مندهشًا: ولكني لم أقل شيئًا بعد.

بادره خالد: أنت قلت « انقسام بيننا» وليس بيننا انقسام فالإخوة من الجماعة الإسلامية من أحب الناس إلى قلوبنا، وأنا أُشهد الله سبحانه وتعالى وأُشهد الحاضرين أن أخي «منتصر» وأخي «محمود» وأخي «قمر» والإخوة كلهم هم أحب الناس إلى قلبي.. ثم أطرق خالد إلى الأرض وقال وهو يكاد يهمس: ألم يقل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (الحجر: 47)؟

ابتسم مختار وهو يقول: صدقت يا أخ خالد... ثم استدار للإخوة الحاضرين قائلا وكأنه يشرح لهم: أخي خالد دائمًا ما يُذكرنا بالله.. ثم استطرد: نعم.. لا يستطيع أحد أن ينكر أن الحب في الله جمعنا وآخى بيننا ولكنني أتحدث عن اختلاف العقول والأفهام وليس عن خلاف القلوب

والأرواح.... أكمل مختار نوح حديثه: أنا أدعوكم للانضمام إلى لجنة الشريعة الإسلامية... لو انضممتم إلينا سيشكل جمعنا قوة لا يستهان بها.

وهنا قال محمود عبد الشافي: يا أخ مختار.. يا أخ خالد.. أنا معكما فيما تقولان.. لو أصبحنا كيانًا واحدًا لأصبحنا قوة لا يستهان بها.. ولكن لماذا لا تنضمون أنتم لنا؟

وقبل أن يرد مختار نوح تدخل منتصر الزيات قائلًا: نحن واحد يا أخ مختار وأنت صاحب فضل علينا فلا ننسى دفاعك عنا وعن إخواننا في قضايا الجهاد والجماعة الإسلامية ومرافعاتك التي تعلمنا منها الكثير... لكن مسألة انضمامنا لكم مسألة فيها نظر فأنتم تتبعون الإخوان ولكم قيادات إخوانية ومرشد وتنظيم.. جميعهم على رأسنا من فوق ولكن نحن لا نتبعهم.. فإذا صدرت أوامر لكم منهم فأنتم ستلتزمون بها حتمًا.. ولكننا قد نرى عكس هذه الأوامر فلا نتبعها وهنا سنتشرذم وسنختلف... ولذلك فالأولى أن تنضموا أنتم لنا وسنعطي لك يا مختار القيادة لو أردت.

فرد مختار وكأنه يتعجب: ولكن ما عندنا عندكم.. فأنتم لكم قيادات من غير المحامين.

وهنا تدخل قمر موسى منفعلاً: لا يا أخ مختار هذا ليس صحيحًا.. لا يوجد لنا قيادات من خارجنا.. لا داعي للمغالطة.

وقبل أن يحتدم الجدل دخل سيد عبد العزيز وهو يحمل الشاي والمقرمشات وشرائح الخبز المتنوعة وقال بطريقته التي يختلط فيها الجد بالهزل: صلي على

النبـي إنـت وهو وهو وهو، أحضرت لكم طعامًا لم تروه في حياتكم من باب إطعم الفم تستحي العين وصلوا على النبي.

ضحك الجميع وانشغلوا بالشـاي... وبعد أن رشف خالد بدوي رشفة من كوبه قال موجهًا كلامه لمنتصر الزيات: على فكرة يا أخ منتصر كنت أتمنى أن تكون إمامنا في صلاة العشـاء اليوم ولكنك حضرت متأخرًا بعد أن أقمنا الصلاة.

فقال سـيد عبـد العزيز ضاحكًا: بسـيطة يا عـم خالد نصلي العشـاء مرة أخرى.. هـا.. عندكم مانع أرفع الأذان والإقامـة... ضحك منتصر الزيات ومحمود عبد الشـافي من تعقيب سـيد، ثم قال منتـصر موجهًا الحديث لخالد بدوي: يا مولانا لقد اسـتمتعنا بصوتك الشجي وتلاوتك المؤثرة التي أبكتنا والله أتمنى أن أصلي وراءك العمر كله.

فقـال خالـد وكأنه يسـتدرجه: هـل كان من الممكـن يا أخـي الحبيب أن تدخل فتجدنا في صلاة الجماعة فتتركنا أنت ومن معك وتقيمون صلاة جماعة مستقلة وهناك جماعة قائمة؟

فأشار منتصر لقمر موسى ومحمود عبد الشافي وقال: يا عم خالد أنا ليس لي في الفقه عندك قمر موسى له صولات فقهية.

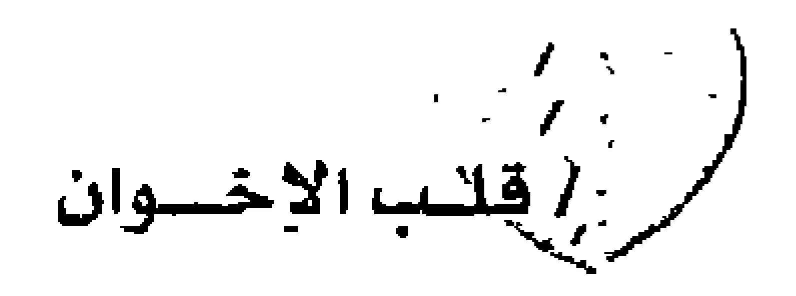
وهنا قال قمر موسى: ماذا تقصد يا أخ خالد؟

حينئـذ أوشـكتُ عـلى التدخـل في الحـوار إلا أننـي أحجمـتُ وفضلتُ التريـث، فالصورة التي كانت تخط ملامحها أمامي هي صورة جديرة بالتأمل

والفحـص والتنقيب، لا المداخلة والتعقيب، فها هم أبناء الحركة الإسـلامية يجتمعون وقد غلَّفهم الخلاف يبحثون أيهم يجلس في موضع الرئاسـة، وأيهم يكون صاحب الاسـم والشـعار، وكأنما كل حزب منهم بـما لديهم فرحون، لا يقبـل أحدهم أن يتنـازل من أجل فكرته!! وكيف يتنـازل والتنظيم عندنا جميعنا مقدَّم على الفكرة؟! شردت بأفكاري بعيدًا عن الجلسة ثم انتبهت على قـول خالـد بدوي وهو يُفصح عن غرضه من السـؤال: الحقيقـة نحن وأنتم نتعبد لله بهذا العمل ونحن جماعة بدأنا هذا العمل التعبدي قبلكم لذلك فمن الواجـب أن تنضمـوا لجماعتنا لأنـه لا يجوز شرعًا إقامة جماعـة وهناك جماعة قائمة.

فبادره محمود عبد الشافي قائلًا: هذا قياس مع الفارق يا مولانا... فتدخل قمر موسـى قائـلًا بحدة: بل هو قياس فاسـد... وإذا كان قياسـك صحيحًا فـإن جماعة الإخـوان يكـون وجودهـا مخالفًا للـشرع لأن الجمعيـة الشرعية بـدأت قبلها وأنصار السـنة بدأت قبلهـا أيضًا.... وقبل أن يسـتكمل كلامه نظر فوجد عبد السـلام دياب يشـعل سـيجارة، وكان ديـاب يدخن بشراهة ولم تمنعه صلته بالإخوان من التوقف عن التدخين..وعندما أشعل سيجارته اسـتنكرها قمر موسـى وقال بصوت حازم ولهجة توحي بأنه يتهم الإخوان بالترخص فيما لا يجوز الترخص فيه: لو سـمحتم من أراد أن يشرب سـجائر فليشربهـا خـارج هذه الحجرة فهي حرام حرام.. وأنا لا أطيقها فضلًا عن أن محمود عبد الشافي عنده حساسية بالصدر.

بهـت عبد السـلام دياب من كلمات قمر موسـى وبان الإحـراج الممتزج



بالغضب على محياه وكادت الجلسة أن تنقلب لمعركة كلامية فقد خرج فريق المحامين الإسلاميين بها ومعهم بعضنا من سياق الفكرة والتنظيم والأولويات وجاسوا حول الدخان وتساهل الإخوان بصدده وشرب الكثير من الإخوان له بما فيهم التلمساني رحمه الله، وانتهت المناوشات بأن غادر دياب الحجرة مُغضبًا فلم أرد تركه وحده بالخارج فخرجت معه وخرج معي سيد عبدالعزيز وبعد دقائق انضم إلينا جمال تاج.. وأخذنا في الخارج نتجاذب أطراف الحديث نداعب بها عبد السلام ونتضاحك معًا من حكايات وقفشات سيد عبد العزيز الذي كنا نطلق عليه «سيد عبد العزيز صاحب الفقه اللذيذ».

استمرت الجلسة بالداخل لأكثر من ساعة ثم فوجئنا بفريق الجماعة الإسلامية يخرجون وقد ارتسمت على وجوههم علامات الغضب وانصرفوا لا يلوون على شيء بعد أن ألقوا السلام بعبارات سريعة مقتضبة عابسة فعلمنا أن اللقاء قد فشل وأن الانقسام هو قدر التجمعات الإسلامية.

وبعد هذا اللقاء بعام تقريبًا جرت وقائع اتحاد غريب الشأن بين هذين الفصيلين المختلفين... اتحاد واتفاق لم يحدث بعد ذلك أبدًا.

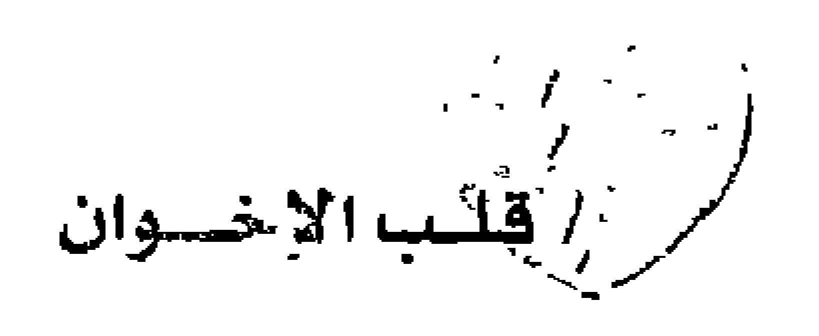
■■■

آفة القديم من جيل الأساتذة أنه لا يتواصل مع الجديد، وآفة الجديد من جيل التلاميذ أنه منبت الصلة عن القديم، فلا هذا أعطى لذاك، ولا ذاك أخذ من هذا.. ولكن أستاذية النقيب الخواجة كانت تختلف عن غيرها..

فهي أستاذية من يريد أن يمتد عبر الزمن، ويخلد في التاريخ، والإنسان يمتد بعلمه أو بعمله أو بتلاميذه، وقد امتد أبو حنيفة عبر الزمن بعلمه وفقهه وتلاميذه، أما الليث بن سعد فقد انقطع رغم علمه وفقهه لأن تلاميذه لم يعتنوا بنقل علمه، والذي يؤثر عن الخواجة أنه كان مدرسة تصنع كل يوم زعيمًا سياسيًّا أو نقابيًّا فارهًا أو محاميًا حاذقًا، كان هذا دأبه وديدنه وعلى امتداد عمره أخرجت مدرسته العشرات الذين أصبحوا بعد هذا أساتذة إلا أنهم لم ينهجوا منهج أستاذهم واقتصروا فقط على صناعة أنفسهم.

ورغم أستاذية الخواجة وانتماء تلاميذه له إلا أن هذه الأستاذية لم تكن له وجاءً من الخلافات التي لم تشهد نقابة المحامين مثيلًا لها.. فقد اشتد الصراع بين رجال حزب الوفد في مجلس النقابة ،حيث وقف البعض في جانب الخواجة وهو يمارس سطوته النقابية تجاه الفريق الذي اختلف معه، ووقف البعض الآخر في جانب الفريق المختلف... ومع تتابع الأحداث استطاع أحمد الخواجة بعقليته التكتيكية اجتذاب معظم أعضاء المجلس لصفه بمن فيهم الشاب الحركي الناصري سامح عاشور، إلا أن مختار نوح الإخواني مكث غير بعيد يترقب الأحداث ويراقب الموقف دون أن ينحاز لطرف على حساب الطرف الآخر إذ أدرك أن الانحياز لأي من الطرفين فيه خسارة لا محالة.

وعلى حين غرة من فريق الخواجة استطاع الفريق المنافس أن يعقد جمعية عمومية سحبت الثقة من المجلس والنقيب، ومن الغريب أن الخواجة لم يعر هذه الجمعية اهتمامًا رغم خطورتها!!



ومـا إن بدأ فصـل الربيع من عـام 1989 م يخط خطوطه الأولى ويبسـط نفوذه على الكرة الأرضية، حتى أعلن أحمد الخواجة قراره بفتح باب الترشح لـدورة جديـدة لمجلس النقابـة قد تكون في ظنـه دورة القضاء على المشـاكل وأصحابها.

ثـم كانـت المفاجـأة.... كان عـدد من المحامـين أعضاء جماعـة المحامين الإسلاميين قد قدَّموا أوراق ترشحهم في هذه الانتخابات، وعندما تسارعت الأحـداث إذا بوفـد منهـم يتجه صـوب مكتب مختـار نوح بحلميـة الزيتون يطلبون منه النصيحة في شأن الانسحاب من الانتخابات أو الاستمرار فيها!! فكان للحاسـة الانتخابية لمختار نوح الكلمة الفاصلة في هذا الشـأن إذ قادته إلى تغليب قرار الانسـحاب من هذه الانتخابات هو والمحامين الإسـلاميين لشبهة البطلان التي أحاطتها بسبب سحب الثقة الذي حدث لهذا المجلس.

وكان هـذا هـو العمـل الوحيـد الذي اتفـق فيـه الصديقان اللـدودان.. الإخوان والجماعة الإسلامية.

وأجريـت الانتخابـات بالفعـل في منتصـف العـام وفيها نجـح الخواجة كنقيب ونجح الأَلْفَا سامح عاشور كعضو في انتخابات شهد الجميع بالتزوير الفادح الذي تم فيها.

وبعد ثلاث سـنوات عجاف غاب فيها الإخوان عن مجلس نقابة المحامين كتبت صحيفة هيرالد تريبيون عنوانًا رئيسيًّا: «زلزال الإخوان يصيب مصر».

■■■

«هـذا الولد قفزاته واسـعة ويبـدو أنه فخـور بنجوميتـه وزعامته ويجب أن يتـم تحجيمـه» كانـت هذه هي كلمات الأسـتاذ محمد هـلال عضو مكتب الإرشـاد (وأحد أكبر الإخوان سنًّا في الوقت الحالي (توفي الأستاذ هلال فيما بعد)، أما الولد الذي كان يقصده فهو مختار نوح.

كان عام 1991م يوشـك على الرحيل، وكان بعض من قيادات الإخوان قـد بـدءوا في تضييق الخناق عـلى نوح وتكبيـل حركته، وظهر هـذا التكبيل والتلجيـم عندمـا سـعى الحاج مصطفـى مشـهور، والدكتور محمـود عزت (عضو مكتب الإرشـاد ومن تلاميذ سـيد قطب وكهنـة معبد النظام الخاص وأحد أخطر قيادات الإخوان حاليًا) والدكتور محمد حبيب (نائب المرشد في الوقت الحالي وهو المرشـح الأول ليكون المرشد القادم وكان له الدور الأكبر مـع آخريـن في أحـداث مذهلة حدثـت فيما بعد) والأسـتاذ محمـد هلال إلى اسـتصدار قرار من مكتب الإرشـاد يتضمن تشكيل لجنة برئاسة محام مجهول مـن جيل كبار الإخوان اسـمه محمـد كمال كان يعمل في السـابق محاميًا بأحد المكاتب بدولة الكويت ليكون مسـئولًا عن نشاط الإخوان في نقابة المحامين ورئيسًـا لهـذه اللجنة التـي كان من المقدَّر لهـا أن تدير هذا النشـاط وتُصرِّف أمـوره، وصـدر القـرار بالفعـل إلا أنهـم جعلوا من نـوح أحد أعضـاء هذه اللجنـة.. كان الكل يعلم أن الأسـتاذ محمد كـمال لا خبرة له على الإطلاق في أي أمر يخص نقابة المحامين ولا حتى المحاماة في مصر، كان الرجل لا يعرف السـباحة ولكنهم ألقوا به في بحر لجي إلا أنهم حذروه من الانسـياق لمختار نوح أو الاسـتجابة لأفـكاره، بيد أن هبوب ريـح انتخابات 1992م وجعل

محمد كمال رحمه الله يسند تحت إشرافه أمور الانتخابات لهذا الشاب الذي حير خصومه ونال لأسباب تنظيمية نقمة نفر من قياداته فكان بين شقي الرحى... وليس من شك أن الباحث في شئون جماعة الإخوان سيدرك دون مشقة في البحث والتنقيب أنه بعد رحيل التلمساني بدأت الخطوب تتهادى على مهل على نوح.

■■■

قبل فتح باب الترشح لانتخابات نقابة المحامين والتي تمت في سبتمبر 1992م انعقد اجتماع هام لقيادات الإخوان المسلمين على أعلى مستوى في مدينة الإسكندرية وقد ضم هذا الاجتماع قيادات قسم المهنيين للنظر في أمر هذه الانتخابات، وفي هذا الاجتماع العاصف اقترح مختار نوح أن يخوض الإخوان الانتخابات بقائمة لا يزيد عدد أفرادها على ستة أفراد لا غير وكانت حجته في ذلك أن نقابة المحامين قلعة من قلاع الليبرالية في مصر تختلف في تكوينها الفكري وجذورها التاريخية عن نقابتي الأطباء والمهندسين، وأن خوض الانتخابات بقائمة متخمة بالإخوان من شأنه أن يهدم المعبد على رءوس الجميع.. إلا أن الدكتور عبدالمنعم أبو الفتوح المشرف وقتها على قسم المهنيين بالإخوان ومعه المهندس أبو العلا ماضي رفضا هذا الرأي وأصرا على أن الفرصة مواتية لتحقيق نجاح ضخم في نقابة أغلقت أبوابها زمنًا في وجه الإخوان المسلمين.

أما الأسماء التي طرحتها قيادات الإخوان لكي تترشح في نقابة المحامين

ممثلة لهذه الحركة الإسلامية فقد كانت غريبة عجيبة، أولها أحمد سيف الإسلام حسن البنا الذي كان يحظى بتأييد مطلق من كل من الحاج أحمد حسانين رحمه الله والأستاذ محمد هلال، ورغم أن سيف الإسلام لم يكن يعمل بالمحاماة وكان يمارس التجارة وكل مؤهلاته أنه ابن مؤسس الجماعة، إلا أن ترشيحه في نقابة المحامين كان أمرًا حتميًّا عند البعض حيث إن هذا الرجل كان كثيرًا ما يسبب مشاكل جمة لقيادات الإخوان فأرادوا أن يبعدوه عن أي موقع قيادي أو تنظيمي في الجماعة فأدخلوه إلى نقابة المحامين ليأمنوا جانبه بعد أن أبعدوه عن عضوية مكتب الإرشاد... وقد كان الترشيح لعضوية مجلس نقابة المحامين وسيلة لاسترضائه!!

أما الثاني فقد كان مؤيدًا من قسم المهنيين وهو محمد طوسون (الذي كان لا يعمل أيضًا بشكل حقيقي في المحاماة حيث كان يدير مع شقيقه معرضًا للسيارات في مدينة المنيا.. إلا أنه كان في السابق ضابط مباحث في أحد مراكز المنيا حتى تم فصله من عمله وحبسه عشرة أشهر تقريبًا من منتصف عام 1982م إلى قبيل منتصف عام 1983م وكان ذلك بسبب علاقته بالجماعة الإسلامية وبعد خروجه من السجن تنقل بين أكثر من تنظيم إسلامي حتى انتظم في سلك الإخوان في غضون عام 1986م، ولأنه ينتمي إلى عائلة كبيرة في المنيا فقد دفعه الإخوان لانتخابات مجلس الشعب عام 1987م فأصبح عضوًا بالبرلمان ثم تم دفعه إلى انتخابات مجلس نقابة المحامين لكي يكون اللجام الذي يكبح جماح نوح إذا ما اندفع بعيدًا عن توجهات التنظيم وسيظهر لطوسون شأن فيما بعد).

وهكذا توالت الأسماء.. (والعجيب أن هذه الأسماء تم طرحها على اجتماع للجمعية العمومية لمحامي الإخوان في اجتماع لاحق بمقر الإخوان بشارع جول جمال بمنطقة الألف مسكن بالقاهرة إلا أنها لم تحظ بأي تأييد على الإطلاق حتى إن أحمد سيف الإسلام حسن البنا حصل على صوت واحد من مائتي صوت ولكن لم يلتفت أحد لرأي محامي الإخوان وكان السبب الذي ارتكنوا إليه في هذا الالتفات هو ما زعمه البعض خاصة أحمد سيف الإسلام أن مختار نوح قام بتوجيه الأصوات الإخوانية وفقًا لما يشاء هواه ولذلك فقد أصبحت نتيجة التصويت ليست محل اعتبار)، وتمت الانتخابات وفقًا لرؤية قسم المهنيين وبقائمة تضم عددًا لا علاقة له بالمحاماة.

ولأسباب كثيرة ليس هنا مجال ذكرها نجحت قائمة الإخوان بشكل أصاب العالم بذهول، فكان هذا هو الزلزال الذي أصاب القوى السياسية والنقابية التي تربعت زمنًا على رأس العمل السياسي والنقابي.

كان هذا هو زلزال سبتمبر الذي جاء من بعده الزلزال الحقيقي في أكتوبر من نفس العام... (وفي الحقيقة كان هذا النجاح هو أول بداية انهيار جبل الجليد الإخواني في نقابة المحامين).

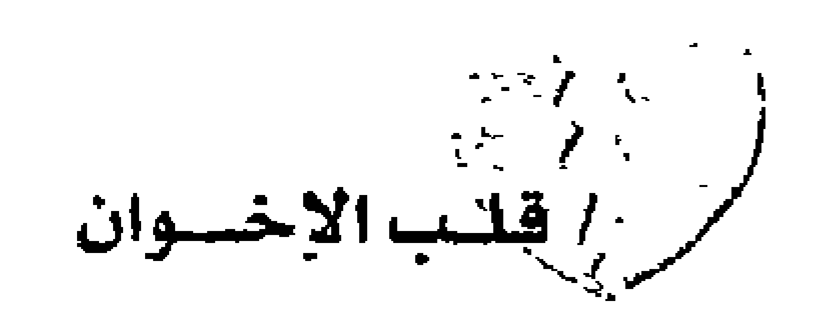
■■■

هل كان نوح مثل بروميثوس الإغريقي الذي أنشد نشيد النجاة قائلًا: سأعيش رغم ضراوة الأعداء كالنسر فوق القمة الشماء؟ أم أنه كان مثل سيزيف في الأسطورة الإغريقية؟ حيث كان عقابه أن يرفع صخرة من القاع

حتى قمة جبل شاهق، وقبل أن يصل بقليل تسقط منه لأسفل، فيعود ليبدأ من جديد، بلا نهاية!! فلتعلم أن مختار نوح ما زال يحمل الصخرة على كتفيه بإصرار غريب ليصعد بها إلى أعلى الجبل.. ولنعد إليه في عام 1996م حينما بدأ في حمل صخرة الجهاد ضد الحراسة التي مقتها المحامون وأنكروا الجرم الذي اقترفه الشانئون في حق نقابتهم.

كان بعض المحامين قد أحكموا أمرهم وخططوا ودبروا ثم أقاموا دعوى حراسة على النقابة وكان هدفهم إبعاد مختار نوح وفريقه عن مقاعدهم كأعضاء بالمجلس... وكان لهم ما أرادوا فقد تم فرض الحراسة على نقابة المحامين أقدم وأعرق نقابة مهنية في مصر.

حينها جمع نوح حوله نفرًا من أصدقائه من الإخوان ومن خارج الإخوان ليزيح الحراسة عن كاهل النقابة... استخدم نوح كل الوسائل السياسية والقانونية والنقابية لتحقيق ما نريد، فقام مثلاً بطبع وتوزيع مجلة نقابية أطلقنا عليها اسم «المحروسة» فضح فيها الحراسة وأسبابها، كما قام بتشكيل لجنة نقابية وسياسية أطلقنا عليها «لجنة المائة» تضم رموز المهنة وكان في مقدمتهم الأساتذة أحمد نبيل الهلالي وعبد المحسن شاشة رحمهما الله وهما من رموز اليسار المصري.. وكان في اللجنة أيضًا محمد علوان مساعد رئيس حزب الوفد وجمهرة من الرموز لها قيمتها ومؤهلاتها الفكرية والحركية، ومن عجب أن رموز المحامين الذين ينتمون للإخوان غابوا عن هذا النشاط ولم يكن لهم فيه ناقة ولا جمل.. فلم نر محمد طوسون أو بهاء عبد الرحمن أو أسامة محمود أو أحمد سيف الإسلام حسن البنا أو جلال سعد أو غيرهم من أعضاء مجلس النقابة العامة من الإخوان...



كما لم نر جمال تاج أو محمد غريب أو صبحي صالح (وهم من الرموز الإخوانية التي بدأت العمل في النقابة مع نوح)!!... وكانت من الأفكار التي وضعناها موضع التنفيذ إقامة دعوى قضائية بطلب إنهاء الحراسة إلا أننا وضعنا اسم محامية ناصرية هي الأستاذة فاطمة ربيع على صحيفة الدعوى كي نعطي الانطباع بأن كل القوى السياسية تناهض الحراسة.

وفي غمرة انهماكنا بمشكلة الحراسة توفي الأستاذ أحمد الخواجة نقيب المحامين رحمه الله.. توفي في العشر الأواخر من شهر ديسمبر من عام 1996م وكأنه يترك النقابة في شهر البرد رهنًا للتجميد لتزيد البرودة في أوصالها المتيبسة.

لم يكن أمامنا بعد وفاة النقيب إلا البحث عن بديل يملك بعض مقوماته فقد كنا نوقن أن هذا الرجل لن يتم تعويضه في سنوات مقبلة وفي رحلة البحث عن البديل تراءى لنا من بعيد أحد نجوم المحاماة وأحد أساطينها الأفذاذ.. ظهر لنا في الأفق الأستاذ رجائي عطية الذي خطب ودنا فذهبنا إليه نعرض بضاعتنا ويعرض بضاعته... ولربما كان هذا اللقاء هو لقاء الأحلام أو لقاء السحاب.. فقد كنا نحلم بإنهاء الحراسة وعودة الشرعية عن طريق صلاته السياسية وعلاقته الحميمية بالنخبة الحاكمة.. وكان رجائي يحلم بعد وفاة الخواجة بتوسد كرسي النقيب ليجمع بين المجد المهني والمجد النقابي.

وقبل أن يرفع شهر مايو من عام 1997م راية الاستسلام ويفسح الطريق لشهر يونية جلسنا مع الأستاذ رجائي في لقاء حفته المودة حيث عرض ما لديه ووعدناه إن هو فعل فحتمًا سنؤيده كنقيب للمحامين.. وفي اللقاء الثاني نقل لنا

رسـالة طمأنة من القيادة السياسية بأن الحراسة سيتم رفعها عن كاهل النقابة.. وبدأ رجائي في المفاوضة معنا على لسان الحكومة أو دائرة منها وكان نوح بطبيعة الحال يعرض أمر هذه المفاوضات على مرشـد الإخوان ومكتب الإرشـاد وقد وجـد صعوبـة كبيرة في إقنـاع قيادات الجماعـة بقبول تأييدنـا لرجائي في مقابل صدور قرار من الجهات المختصة في الحكومة بإنهاء حالة الحراسة، ومن عجب وقـف محمد طوسـون وجمال تاج ضد تأييدنا لرجائي عطيـة إلا أننا دافعنا بكل قـوة عن هذا الاختيار وكان لنا في النهاية ما أردنا ووافق الإخوان على الدخول في تحالف مع رجائي عطية.. تحالف نرفع فيه شعار «المشاركة لا المغالبة».

لا ريب أن الأستاذ رجائي أبدى فرحته بقرار الإخوان.. وأظن أنه أضمر في مكنون نفسه دهشته حين قال له خالد بدوي وهو يطرق إلى الأرض: وما هـو الضمان الذي سـتقدمه لنا يا أسـتاذنا؟. كيف نضمن أنه لـن يتم القبض علينا وحبسنا بعد انتهاء الحراسة؟

نظـر إليه رجائي شـزرًا وهو يقـول: ضمان! أي ضمان؟! ثم استرسـل في لهجة حائرة: هل تريد أن أكتب لك شيكًا مثلًا؟!

استمر خالد في إطراقه للأرض وحينها قال أحمد ربيع: بالطبع لا.. ولكننا نريد أن نُقسـم معًا إن تم القبض علينا أو على أحدنا قبل الانتخابات أن تعلن انسحابك من هذه الانتخابات.. وبعد كلمات أحمد ربيع وضعنا أيدينا على يد الأستاذ رجائي الذي أقسم بما طالبناه به، ثم قال خالد بدوي بعد القسم: «الله على ما نقول وكيل»، فردد الجميع خلفه: « الله على ما نقول وكيل».

تكررت وعود الأستاذ رجائي بقرب إنهاء الحراسة إلا أن وعوده لم تتحقق رغم أننا عقدنا مؤتمرًا ألفيًا له في فندق هيلتون رمسيس حضره أكثر من ألف محام وجلس على المنصة رموز من رجالات الدولة بجوار مختار نوح ورجائي عطية وأعلن نوح تأييد الإخوان لرجائي على منصب النقيب واعترف بخطأ الإخوان في الاستحواذ والسيطرة على مقاليد الأمور في النقابة وإقصاء القوى السياسية الأخرى، ورفع لأول مرة أمام الرأي العام شعار «المشاركة لا المغالبة»... ووعد رجائي بأن الحراسة آن لها أن تذهب أدراج الرياح وتحدث الجميع عن قرب تحقيق الحلم.. ولم يتحقق الحلم عن طريق رجائي ولا عن طريق صلاته السياسية ولم تتحقق وعوده المتكررة!!

وبعد عامين صدر حكم في القضية التي أقمناها باسم فاطمة ربيع من إحدى المحاكم العليا بإنهاء الحراسة المفروضة على نقابة المحامين... ولم يكن رجائي صاحب الفضل، وكأنما أراد الله أن يُنسب الفضل لأصحابه أولئك الذين جاهدوا وبذلوا وقدموا.

بعد صدور الحكم النهائي بأيام كنت أجلس في بيتي صباح يوم الجمعة الثالثة من شهر أغسطس عام 1999 منشغلاً بقراءة الصحف وإذا برنين الهاتف يقتحم خلوتي.. كان المتحدث هو الصديق عاطف عواد أحد أفراد الإخوان من المحامين وأحد المقربين من مختار نوح.. كان صوته مرتبكًا مضطربًا ثم ساق لي خبرًا مزعجًا: تعرض مختار نوح لحادث مروع على طريق السويس وقد مات سائقه في الحادث وتحطمت سيارته تمامًا.. أما مختار فقد تم نقله لأحد مستشفيات مصر الجديدة في حالة حرجة.

الفصل الرابع

بوابة الأحزان

«عندما أغلقوا عليه الزنزانة اشتد صوت الألم بداخله، فرفع صوته حتى لا يسمعه.. وظل يرفعه ويرفعه حتى تمزقت خلاياه.. وحين ظن الناس أنه يتأوه من زنزانة صخرية الجدران أو من سجان صاحب سحنة غليظة، أشار بيده إلى أخيه الذي جلس يأكل لحمه ويقتات على سيرته».

هل يستطيع المرء أن يلخص أيامًا مشحونة بالأحداث والوقائع في بضعة سطور دون أن يترك شاردة أو واردة؟ هل في مكنة الإنسان أن يذكر كل وقائع أيامه بلا اختصار مخل أو تطويل ممل؟ لا ريب عندي أن هذا هو عين المشقة التي تنوء بحملها فصاحة الفصحاء.. وها هي كراستي أمامي.. تلك الكراسة التي دوَّنت فيها كل شاردة وواردة مرت علينا في تلك الأيام البغيضة فهل أستطيع نقلها بكاملها؟! إن أنا فعلت فسأجور على وقائع

أخرى، وإن لم أفعل فسأكون قد ظلمت نفسي وظلمت رجالًا أفذاذًا تركوا حياتهم وبيوتهم ومكاتبهم من أجل نصرة إخوان لهم شاء قدرهم أن يُحبسوا في تهمة سياسية.. ها هي كراستي تعيد لي ذكرى أيام مضت.. أيام لم نفكر فيها أنا وبعض إخواني في دنيا نصيبها أو تقدير يبديه لنا مرشد أو مسئول إخواني كبير، ولكن انصرف جل همنا لهؤلاء الذين يذهبون ضحية الخلاف السياسي الذي اشتد قيظه وحمي وطيسه بين الإخوان والنظام.. من يستخلصهم من محبسهم؟ مَنْ يعيدهم إلى أهاليهم؟

تتكدس عشرات الكراسات في خِزانتي.. تلك الكراسات التي كانت وما زالت الصديق الوفي الذي أهرع إليه وأبثه أشجاني وأحزاني وأزف إليه أفراحي.. أكتب في حناياه ما مر بي وما مررت به.. وفي كل حين أعود إلى كراستي فأجدها مستودعًا لسري لم تبح به لأحد.. في أحد أجزاء كراستي وجدت الصفحات التالية، فرأيت أن أنقلها هنا دون أن أبتسر أو أختصر منها أو أضيف لها لعلها تلقي الضوء على الأحداث التي عشتها وعشت فيها وقتئذ:

«ضاقت ولما استحكمت حلقاتها فرجت... ثم ضاقت مرة أخرى... يبدو أن هذا هو حال الدنيا تضيق الأمور علينا ثم تُفرج ثم تضيق.. ولو دامت الدنيا على شيء ما بقي فيها شيء... قالها مختار نوح وهو يداري شهقة ألم أصابته ثم تقطعت أنفاسه وهو يقول: لم نكد نحصل على حكم بإنهاء الحراسة وقلنا كلنا فرجت وكنا نظنها لا تفرج حتى عاجلتني هذه الحادثة المؤلمة.. هل تصدق؟. مات السائق إلى رحمة الله.. في طريق العين السخنة داهمتنا مقطورة ضخمة فحطمت السيارة وأصابت ضلوعي وساقي بالذي

تراه الآن.. كل هذا يهون وتهون السيارة ولكن أن يموت السائق المسكين.. إيــه.. رحمة الله عليه».

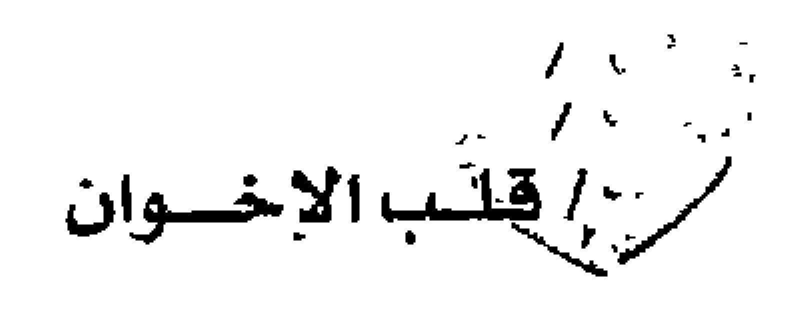
بادرته قائلًا وأنا أرتكز في وقفتي على كتف عاطف عواد الذي كان جالسًا بجوار سرير مختار في غرفته بمستشفى بدر: «هون عليك فهذا هو قدر الله، الحمد لله في السراء والضراء.. أتذكر يوم أن كنت تلقي خاطرة منذ سنوات عن الآية الكريمة: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح: 5)؟ فقد لفت نظرنا إلى أن الله سبحانه وتعالى لم يقل: إن بعد العسر يسرًا.. ولكن معه.. يأتي العسر ويرافقه اليسر.. يسير في ركابه ولكننا قد لا نرى اليسر لأن العسر يعمي بصائرنا».

زفر نوح وهو يقول في توافق لفظي مع عاطف عواد: الحمد لله.

عاد نوح إلى الكلام مرة أخرى بعد أن طرد إحساس الألم من داخله: عرفت أن وزير العدل طعن على حكم إنهاء الحراسة أمام محكمة النقض وأظن أن الجلسة ستكون في غضون شهر سبتمبر القادم ويجب أن نستعد للجلسة بكل قوتنا.

قاطعه عاطف: لا تقلق فنحن لها يا عزيزي.. لا تشغل بالك.

نظر نوح إلينا نظرة امتنان وظهرت على وجهه ابتسامة ثم قال: عرفت الجهات الأمنية أننا وراء قضية إنهاء الحراسة.. أرسلت محاميًا من مكتبي ليتابع الجلسة الأخيرة من بعيد ونبهت عليه بعدم الحضور، إلا أن الحماس دفعه إلى الحضور أمام هيئة المحكمة وإثبات اسمي في محضر الجلسة.. وطبعًا عرف الأمن.



رفعت كتفي علامة اللامبالاة وقلت بعدم اكتراث: لا يهم.. كانوا سيعلمون حتمًا.. وأظن أنهم يعلمون قبل ذلك.. فالعصافير من حولنا في النقابة لا هم لها إلا تجميع الأخبار.

استكمل نوح وهو ينظر إلينا نظرة إصرار: المهم أن نكون على أهبة الاستعداد ومن الممكن أن تتفق مع الأستاذ رجائي عطية كي يحضر جلسة النقض ويجب عليه أن يجري مفاوضات مع الحكومة من أجل تنفيذ الحكم فقد وضعنا في موقف حرج عندما عجز عن إنهاء الحراسة بقرار سياسي.. آن له الآن أن يذهب لوزير العدل وينهي هذا الأمر.. ومن باب أولى يجب عليه أن يحضر في جلسة النقض.

«اطمئن، سنذهب إليه وسنتفق معه على حضور الجلسة معنا». قالها عاطف وهو يشير لي كي ننهي الزيارة حتى لا نثقل على الرجل.. وقبل أن نغادر غرفته التي ازدحمت بباقات الزهور قال وقد أغمض عينيه: أشعر أن هذه المحنة ستعقبها محن أخرى فقد رأى أحدهم رؤيا لي كان تأويلها أنه ستمر بي ثلاث محن أدعو الله أن يثبتني فيها جميعًا.

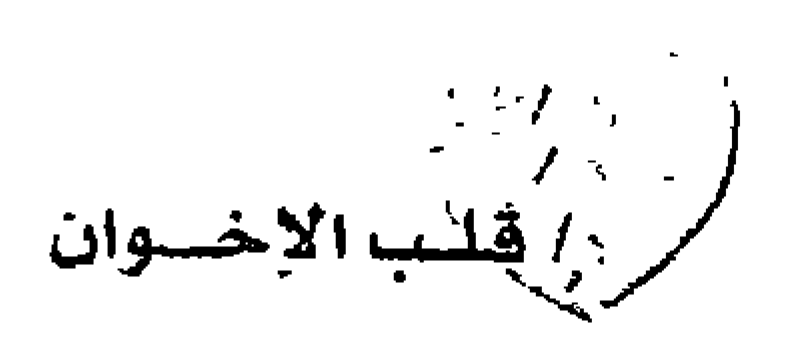
«اللهم آمين». قلناها أنا وعاطف ثم أردفت قائلًا: لا تجزع فكل أمر المسلم خير.. لا تفكر في أمر المستقبل فهو بيد الله ولرب نازلة يضيق بها الفتى ذرعًا وعند الله منها المخرج.

وبعد أن ودعناه خرجنا إلى الطريق ولسعات حر أغسطس تلفح وجوهنا».

أطوي صفحات كراستي ولكنني لا أستطيع أن أطوي تلك الأيام

وأضعها في غيابة الجب، فما زالت أحداث جمة من تلك الأحداث التي واجهتني حينها ماثلة حتى الآن أمام ناظري شاخصة أمام فؤادي، بل إن هذه الأحداث خلَّفت أحداثًا وأحداثًا وأحدثت أثرًا كبيرًا في حياتي.. أثرًا فارقًا لم يتصور خيالي أن أصل إليه، ولربما يضيق الخيال على اتساعه ورحابته وتفاجئنا النوازل بما لم يرد في الحسبان أو الخيال.. وحين أعود مرة أخرى إلى كراستي أجد في موضع آخر منها الصفحات التالية تتحدث معي وكأنها تحاورني وتذكرني بما حاولت أن أنساه:

«كان يوم الخميس الرابع عشر من أكتوبر من عام ألف وتسعمائة وتسعة وتسعين كئيبًا من أوله، فلغير سبب ظاهر أصابتني حالة وجوم هي أقرب ما تكون إلى الاكتئاب رغم أنه لم يكن هناك ما يستدعي ضيق الصدر أو الوجوم، بل إن الأسابيع الماضية كانت تحمل تباشير الخير... فقد كللت محكمة النقض جهودنا بالنجاح وأصدرت منذ أيام معدودات حكمًا نهائيًا قضى بوجوب إنهاء الحراسة المفروضة على نقابة المحامين ورفضت طعن الحكومة بعد جلسة عاصفة حضرناها وحضر معنا فيها رجائي عطية، وبات تنفيذ الحكم مسألة وقت لا أكثر، ومن ناحية أخرى بدأنا في إعداد العدة من أجل الترتيب للانتخابات القادمة، وكانت جهود الأستاذ رجائي عطية تمثلت في المفاوضة معنا بلسان الحكومة عن العدد الذي يجب أن نخوض الانتخابات به.. فالحكومة وفقًا للأستاذ رجائي تطالبنا بألا يزيد عدد المرشحين من الإخوان على أربعة ونحن نحاول معه كي يصل العدد إلى ستة أو سبعة على أكثر تقدير.. ولم تكن المفاوضات قد أغلقت صفحاتها بعد.



مر نهار الرابع عشر من أكتوبر أو كاد وقبل الغروب بلحظات تصاعدت نغمات الهاتف المحمول لتخبرني أن إبراهيم بكري يطلبني، وحين فتحت الخط جاء صوته مضطربًا: إلحق يا أستاذ ثروت.. تم القبض على مختار نوح وخالد بدوي وإبراهيم الرشيدي وآخرين من الإخوان قبل عصر اليوم.

أصابتني رعدة وجفل قلبي وأنا أقول في ذهول: نعم.. أين؟.. ولم؟.. وكيف..؟

ـــ لا أعرف التفصيلات ولكن اتصلت بي منذ دقائق زوجة الأخ خالد بدوي لتخبرني بهذا الخبر.. حاولت هي الاتصال بك منذ لحظات ولكن يبدو أن هاتفك كان مغلقًا.

قلت له وأنا لا أكاد أُبين: هل تم القبض عليهم من بيوتهم؟

ـ لا.. كانوا في المعادي في لقاء.

بح صوتي وأنا أقول: وما الذي أوجد إبراهيم الرشيدي معهما؟! ألم يكن مسافرًا؟! أليس يعمل في الخارج الآن(*)؟!

عاد صوت إبراهيم بكري الأجش يقتحم أذني مرة أخرى: هو في «أجازة» الآن.. كان من المفروض أن أكون معهم في لقاء سأحكي لك عنه عندما أقابلك ولكن الظروف منعتني من حضور هذا اللقاء.. أنا الآن ذاهب إلى بيت الأستاذ خالد بمدينة نصر.

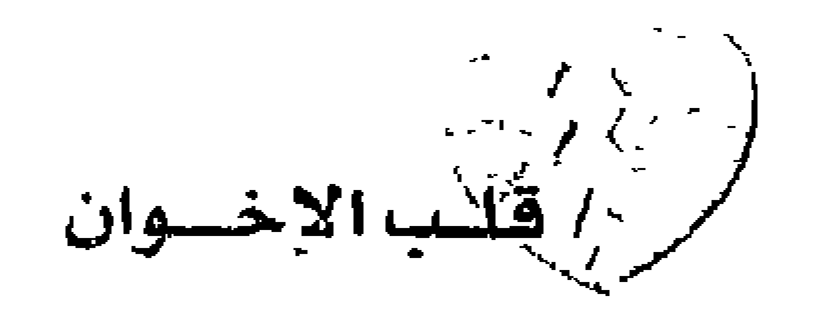
(*) كان إبراهيم الرشيدي عضوًا بمجلس نقابة المحامين الفرعية بالسويس، وكان من نشطاء الإخوان ومن المجموعة التي بدأ بها نوح عمله الإسلامي في نقابة المحامين، وعندما ضاقت به ظروف الحياة وضاق عليه الرزق سافر للعمل في إحدى دول الخليج.. ولم يتصل علمي بعودته إلى مصر مرة أخرى.

قلت وأنا أتعجل إنهاء المكالمة: سأسبقك إلى هناك.

وعندما كانت سيارتي تسابق الطريق وتتحدى الزمن غير آبهة بشيء تأرجحتُ بين المشاعر والأفكار مع تأرجح السيارة في أثناء قفزها في الطريق.. كانت مشاعري تلطم قلبي وتزلزل كياني وتحيلني إلى قطعة ملتهبة من الثورة والغضب والحزن والكمد والكرب.. ولكأنها تجمعت الخطوب على فؤادي فأحالته أثرًا بعد عين، وليت الأمر كان وقفًا على مشاعر بشرية مشروعة بثها الله في أفئدتنا حتى نواجه بها نوازل الأيام، إذ اقتحمتني أفكار أدخلتني إلى أتون من الحيرة.. كيف تم القبض على مختار وخالد وإبراهيم؟ وأين؟ ولماذا؟ ولِـمَ لَمْ يكن إبراهيم بكري معهم آنذاك؟ وما الظروف التي منعته فجأة من حضور لقاء يتصادف القبض على مختار فيه؟!... يا ألله أيعقل هذا؟(*)

وفي بيت خالد بدوي عرفت القصة.. أخبرتني زوجته أنه ذهب برفقة مختار وإبراهيم الرشيدي إلى اجتماع في ضاحية المعادي.. اجتماع لقسم المهنيين في الإخوان المسلمين.. وكان قد تم الاتفاق على عقد هذا الاجتماع

(*) كان إبراهيم بكري من شباب المحامين الذين ينتمون للإخوان المسلمين، وكان قد التحق في بداية تخرجه بمكتب مختار نوح ومكث عنده فترة التدريب ثم افتتح لنفسه مكتبًا للمحاماة بضاحية الزيتون.. ومن خلال مختار توثقت صلات إبراهيم بكري بالإخوان وأصبح أخًا عاملًا من التابعين لمنطقة الزيتون.. وفي هذه الفترة كان إبراهيم قد ارتبط نفسيًّا بمختار وأصبح لا يكاد يفارقه ليلًا أو نهارًا، ومع الأيام زادت وشائج القربى بينهما فكان يطيب لمختار أن يصطحب إبراهيم معه في كل جولاته التي يسافر فيها إلى المحافظات أو التي يحضرها في الإخوان حتى أطلقنا عليهما «مختار نوح وتابعه بكري». والحق أن إبراهيم كان محاميًا مجتهدًا وكان طموحًا في ذات الآن، وكان جل همه أن يتعلم فنون المناورة والمفاوضة؛ تلك الفنون التي يتقنها مختار والتي كانت سببًا رئيسيًا في شهرته.. ومن أجل هذا فضلًا عن إعجابه بشخصية نوح كان يرافقه طواعية في كل جولاته بحيث لم يتخلف عن أي لقاء سياسي أو تنظيمي يحضره نوح في القاهرة أو في خارج القاهرة.



في مقر اتحاد المنظمات الهندسية للدول الإسلامية والتي يخضع مقرها في مصر لإشراف نقابة المهندسين.

وعند حضور إبراهيم بكري عرفنا منه أنه كان من المقرر أن يذهب معهم لهذا الاجتماع الذي كان سيناقش بعض الأمور التنظيمية الخاصة بانتخابات نقابة المحامين ورفع الحراسة عن باقي النقابات المهنية.

خرجت من بيت خالد وقد غامت الدنيا أمام ناظري، أغالب دفقة من البكاء خرجت من مكنون ذاتي وأرادت أن تجهش وتعلن عن نفسها إلا أنني كتمتها حتى حين، وحين دخلت مسجد موسى بن نصير انفردت بربي وأجهشت بالبكاء.

■■■

ويح قلبي ما زال يخفق حين تمر من أمامه تلك اللحظات الشجية، وكأنه يلح عليَّ من فرط خفقانه أن أتوقف الآن عن النقل من كراستي، فليس في طوق خافقي الذي تحت الحُرَقُ أثره أن يستمر في استعادة تلك المشاعر الغضة المشحونة بالشجن التي غرقت في لجتها آنذاك، إذ عندما أستعيد هذه الأيام تنساب الدموع برفق من عيني رغمًا عني.

وإذ أخرج من لجة المشاعر أجدني أمام صفحات أخرى من كراستي تتحدث عن سبب الاجتماع التنظيمي الذي تم القبض عليهم فيه، فقد كان من المقرر أن يناقش هذا الاجتماع خطة الانتخابات والتحالفات التي أعددناها ووافقنا عليها في القسم.. وها هو ذا ما تَضَمَّنَتْهُ تلك الصفحات من كراستي:

«كانت محاور الخطة التي أعددناها والتي كان سيدور النقاش بشأنها في هذا الاجتماع تتلخص في عدد من المرشحين لا يزيد على ستة.. أما من حيث التحالفات فقد كانت تدور حول إفساح الطريق للقوى الوطنية المختلفة للتعبير عن نفسها عن طريق تحقيق شعار المشاركة لا المغالبة بشكل حقيقي لا يقف عند حد الشعار ولكن ينزل إلى أرض الواقع.

لم تكن هذه الخطة بطبيعة الحال ترضي الكثير من الإخوان، وكان أحمد سيف الإسلام حسن البنا من أكثر المعترضين عليها؛ إذ إنها من الممكن أن تطيح بفرصه في الترشح بل إنها كانت ستطيح به بالفعل، كما كان جمال تاج من أوائل الواقفين في صفوف المعارضة ضدها، وكان محمد طوسون بطبيعته المباحثية كضابط مباحث سابق يقف ضد هذه الخطة من طرف خفي، إذ من الممكن في حال تطبيقها أن تطيح به هو الآخر وتمنعه من الترشح لعضوية المجلس... كان أحدهم يرغب في تدمير هذه الخطة ووأدها.. ولم يكن في طوق أحد وقتها الوقوف ضد مختار نوح في إصراره على تنفيذ خطتنا وهو الذي يحظى بالتأييد المطلق من المستشار مأمون الهضيبي نائب المرشد وقتها وكانت مسألة عرض الخطة على قسم المهنيين مسألة شكلية؛ فقد تم الحوار مسبقًا مع معظم أفراد قسم المهنيين وتهيئتهم لقبول الخطة وقبول أسماء المرشحين من الإخوان، وكان أبرزهم بطبيعة الحال مختار نوح وخالد بدوي ولم يكن فيهم أحمد سيف الإسلام حسن البنا ابن المرشد الأول حسن البنا... وفي أثناء عرض مختار لخطة القسم قامت قوة من جهاز أمن الدولة بمداهمة

الاجتماع والقبض على كل الإخوة.. والغريب أن جهاز أمن الدولة قام بالقبض على بعض الإخوة الذين كانوا قد غادروا الاجتماع مبكرًا وإخوة لم يحضروا الاجتماع أصلاً.. إلا أنه أيضًا أغفل القبض على إخوة آخرين غادروا المكان منذ لحظات قليلة قبيل المداهمة وكانوا تحت بصر الأمن!!».

حتمًا أعود إلى حديث المشاعر فصفحات كراستي مشحونة بها، وقد لا أدري أأقوم الآن بالنقل من كراسة أم أقوم بالنقل من فؤاد جهل بعضهم بعض ما فيه وأنكروا البعض الآخر؟! يقول الشعراء إن المتنبي مات حتف أنفه بسبب بيت من الشعر كتبه في الفخر، فحين لقي عدوًّا له همَّ بالفرار فقال له عدوه: أتفر وأنت الذي قلت: الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم؟! فعاد إليه المتنبي فقاتله فقُتل.. أما مشاعري فهي التي أحيتني فيما بعد، فإذا كان الفخر في غير موضع يقتل حينًا فإن القلب ومشاعره في موضعها تحيي في أحيان أخرى... وهأنذا أنقل من كراستي أحداثًا أحاطتها المشاعر وتداخلت فيها:

«لكل إنسان نفسية تحب وتبغض.. ترضى وتسخط.. تستبشر وتجزع.. تحزن وتسعد.. تتوخى وتهرع.. وأظن أن المشاعر تنتاب الإنسان فرادى، فمن العسير أن تتجمع المشاعر المتناقضة كلها في آن واحد وفي لحظة واحدة وفي نفس واحدة.. ولكن العسير حدث وانتابتني كل المشاعر المتناقضة في تلك اللحظة التي رأيت فيها مختار نوح وخالد بدوي وهما تحت الأصفاد قيد الحبس.. فبقدر ما كانت مشاعري تجاههما مشاعر حب ورضا.. وبقدر ما

سعدت بصحبتهما واستبشرت بالخير دائمًا حين كنت ألقاهما بقدر ما كرهت وسخطت وبغضت الظلم الذي وقع عليهما.

كان المشهد مؤلماً في مقر نيابة أمن الدولة بمصر الجديدة.. وكان الأكثر ألماً أن رأيت مختار وخالد ومن معهم من الإخوان وهم ينزلون من سيارة الترحيلات والأصفاد تكبل أيديهم والجند يدفعونهم صوب الباب الخلفي الذي يؤدي إلى حجرة الحجز، وإذا كان ألم الجسد يتلاشى حين تخديره فليس ألم النفس يقبل تخديرًا أو تغييبًا.. ورغم محاولاتي المضنية التي بذلتها من أجل إخفاء ملامح الألم والحزن التي كست وجهي فإنني فشلت.. فما معنى الابتسامة البلهاء التي ندت عني في حين أن ملامحي كانت مصلوبة على مذبح الألم؟! وكيف يذهب الحزن خلف السحاب، والسحاب قد انسحب من وطأة الوجوم؟!

«هوِّن عليك يا فتى فما هي إلا أيام وسنعود إلى بيوتنا».. قالها نوح وهو يبث الطمأنينة في نفسه ونفسي ثم اتكأ على عصاه وهو يناولني معطفه قائلًا: من فضلك خذ هذا المعطف الآن إلى بيتي.. ثم ضحك مسترسلًا: فهو ماركة عالمية من «بيير كاردان»... ولا تنس أن تُحضر لي من البيت ملابس بيضاء لزوم السجن ولكن قل لهم ملابس السجن ماركة «إيف سان لوران»... وارتفعت ضحكته لتحلق في سماء الردهة الكبيرة بنيابة أمن الدولة بالدور الثاني التي تتفرع عنها حجرات السادة أعضاء النيابة.

كانت الردهة مليئة عن آخرها بالمحامين الذين تقاطروا من كل صوب

وحدب، وكان الكل تقريبًا يلتف حول مختار الذي ظهر الإعياء عليه خاصة أن ظروفه الصحية بعد الحادث الذي وقع له من شهرين قد تأثرت بشكل كبير، إلا أن معنوياته المرتفعة كانت تخفي هذا الإعياء عن عيون الجميع.. وحين تركت مختار ليتحدث إلى الجمع الذي التف حوله يسألهم عن رجائي عطية وأين هو ولماذا لم يأت؟ سمعت بعضهم يقول إنه الآن في قرية «مارينا» بالساحل الشمالي، وأن البعض أخبره بما حدث وأنه سيأتي غدًا ولذلك يطلب من كل الإخوة المقبوض عليهم أن يمتنعوا عن الإجابة عن أسئلة النيابة ويحصروا أقوالهم في طلب التأجيل لحين حضور محاميهم الأستاذ رجائي... اقتربت من خالد بدوي وهو يمسح جبينه من قطرات الماء التي تخلفت من وضوئه وابتسمت وأنا أربت على كتفه، حينها انفرجت أساريره عن ابتسامة عريضة وقال مداعبًا إياي والبشاشة يخفق بها وجهه وتنبض بها شرايينه: أتذكر يوم أن كنت أضحك معك وأقول «ربنا ها يودِّيك الـ محكمة»؟ ههههه... اليوم ربنا ودَّاني المحكمة.

بادلته الضحك وأنا أقول: ليست المحكمة.. ولكن النيابة.. نيابة أمن الدولة، أما المحكمة فندعو الله ألا تذهب إليها.

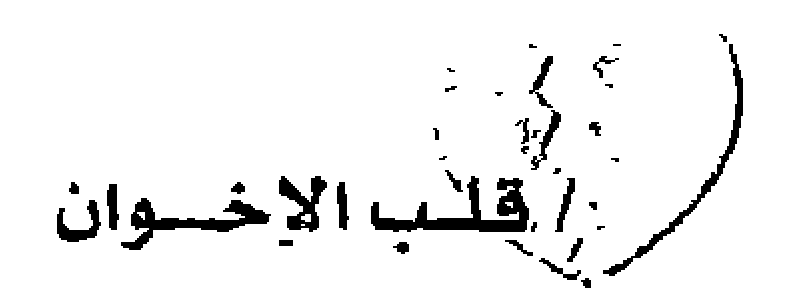
قال بسكينة: يا سيدي.. لا تقلق ولا تحزن.. مشيناها خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها، كل شيء بقدر الله.. لا يقع في ملك الله إلا ما يريد.. هه.. هل تنازع في هذا؟ لا يقع في ملكه إلا ما يريد.. وما تشاءون إلا أن يشاء الله.

سـمعت صوت أحد المحامين وهو يقول: الأسـتاذ خالد بدوي مطلوب في الداخل لبدء التحقيق.

رافقتـه وأنـا أقول له: سـنطلب التأجيل لحين حضور رجائـي غدًا.. هل لديك خطة دفاع معينة؟

سـار إلى جانبـي وهو يهمـس: ليس لدينا إلا «لا إله إلا الله.. سبحان الله وبحمده، اللهم لا سـهل إلا ما جعلته سـهلًا» ومن بعد سـتكون التذكرة.. فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر.

وبـدأت التحقيقـات في اليوم التـالي مباشرة وفي حضور الأسـتاذ رجائي وجمهرة من المحامين حيث تم تقسيم المتهمين بيننا فحضرت كل مجموعة مع أخ من الإخوة وكان من نصيبي أن حضرت مع خالد بدوي ومختار نوح، ثم تنقلت بين حجرات التحقيق فتارة أجلس في التحقيق الذي يدور مع الدكتور محمـد بديـع وتارة أخـرى أحضر في التحقيق مـع إبراهيم الرشـيدي وهكذا دواليـك.. كانـت التهمة التـي واجهت بهـا النيابة الإخوة المقبـوض عليهم هـي الانتـماء لتنظيم سري غير شرعـي وتحريك هذا التنظيم وسـط الجماهير بقصـد التغلغـل في منظـمات المجتمع المـدني، والتخطيط لخـوض انتخابات النقابـات المهنيـة ومنها نقابـة المحامين، وقد تم القبض عـلى المتهمين في أثناء اجتماعهـم التنظيمي الذي كان يجهز العدة لما سـلف، وبذلك وفقًا لنيابة أمن الدولة تكون الأدلة قد تجمعت على ارتكاب المتهمين إحدى الجرائم المعاقب عليها في قانون العقوبات.. وقد شارك في القبض على المتهمين بعض رؤساء



نيابة أمن الدولة، إذ وردت تحريات مسبقة للمباحث تفيد تفصيلات هذا الاجتماع وظلت القوة التي رافقت النيابة كامنة بالقرب من مقر الاجتماع حتى حضر مختار نوح وخالد بدوي فتم مداهمة المكان والقبض على الجميع!! ولكأنما كانت الأجهزة الأمنية تنتظر الصيد الثمين لتنقض عليه وكان لها ما أرادت!!

قررت النيابة حبس المتهمين خمسة عشر يومًا ويراعى لهم التجديد في الميعاد.. كان هذا هو القرار الذي أصدرته النيابة وفور صدوره نقلته ومعي أحمد ربيع وإبراهيم بكري للأستاذ رجائي عطية الذي لم يكن قد غادر مبنى النيابة بعد فأغمض عينيه وشهق شهيقًا عميقًا كأنما يلملم قواه وقال: لا ضير سأقابل النائب العام وسأنهي هذا الأمر برمته في جلسة التجديد القادمة.. اطمئنوا، سيتم الإفراج عنهم، لا ريب عندي في ذلك، هذا وعد.

غادرنا الأستاذ رجائي عطية وذهب إلى شأنه فانصرفنا من بعده بعد أن ودعنا مختار وخالد، إلا أننا انصرفنا إلى مكتب أحد المحامين من الإخوان حيث كنا -قسم المحامين في جماعة الإخوان - قد حددنا موعدًا فيما بيننا للاجتماع من أجل تحديد الواجبات والمسئوليات في الفترة القادمة.

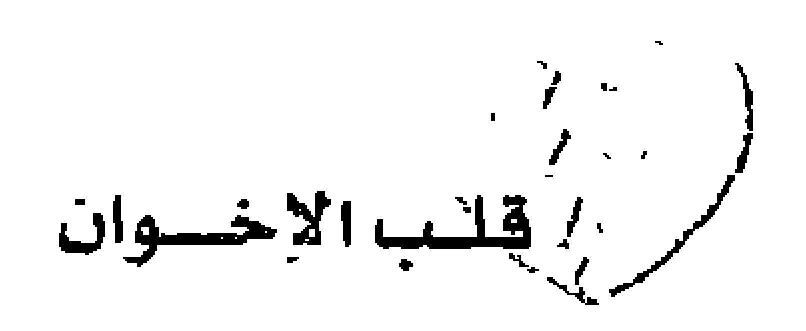
كان العدد الذي حضر الاجتماع كافيًا لاتخاذ القرارات وإسناد المسئوليات، وكان أول المتحدثين هو محمد طوسون الذي طلب اختيار أحد أعضاء لجنة السبعة ليكون مسئولًا عن قسم المحامين، ونظرًا لأن أحمد ربيع كان هو الأمين العام لتلك اللجنة فقد تم اختياره وفقًا للائحة ليكون هو المسئول

المؤقت لحين خروج مختار، وأن عليه وفقًا لهذا التكليف أن يدير القسم ومعه لجنة السبعة التي تشرف على القسم.

لم تكن الرئاسة حلم أحد منا ولم يفكر أحدنا فيها فقد كان حلمنا الأكبر هو خروج مختار وخالد إلى الحرية، وكانت وعود رجائي عطية بالإفراج عن الثلاثي مختار وخالد وإبراهيم الرشيدي أمرًا يقينيًّا عندنا، فلهجة الرجل وهو يتحدث في هذا الشأن كانت حاسمة وقاطعة لا ريب فيها.. ورغم ذلك اعترض محمد غريب على إسناد الرئاسة لأحمد ربيع وقال إنه يجب أن تتم انتخابات في القسم لتحديد الشخص الذي سيتولى الرئاسة بشكل مؤقت، إلا أن طوسون قال له بحسم: يا أخ محمد يبدو أنك اعتقدت أن الرئاسة هنا ستكون بشكل دائم.. يا أخي اعلم أن أحمد سيكون في موضع المسئولية بشكل مؤقت ولن يستمر في موقعه هذا، وأدعو الله أن يخرج مختار سريعًا ليسترد مسئولياته، أما مسألة الانتخابات هذه فتكون حين يكون الاختيار بشكل نهائي.

قال أحدهم موجهًا حديثه لأحمد ربيع: يا أستاذ أحمد ليست المسئولية تشريفًا لكن تكليفًا.. ومن أجل ذلك يا أخي الكريم يجب أن نتحرك على كل الأصعدة.. يجب أن نمارس ضغوطًا سياسية ونقابية تساعد الأستاذ رجائي على إنهاء هذا الأمر برمته والإفراج عن إخواننا.

بادر أحمد ربيع وكأنه فكر في هذا الأمر من قبل: أوافق على هذا ولذلك يجب أن نتصل بكل الأطياف السياسية والنقابية.. نتصل بخصومنا قبل



أصدقائنا، نتواصل مع الجميع وندعوهم لحضور جلسة التجديد القادمة.. لا شك أن هذا الحضور سيشكل ضغطًا على الجهات المسئولة.

أمسكت طرف الخيط من أحمد: وفوق هذا ينبغي أن نعقد مؤتمرات يومية في محاكم القاهرة من أجل تثوير عموم المحامين وإثارة الحمية فيهم.. فمختار وخالد هذان اللذان وقفا وقفة تاريخية في موضوع عبد الحارث مدني وأشعلا ثورة داخل النقابة من أجل مقتل أحد المحامين يجب ألا ينساهما المحامون.. لا نريد الحشد الذي سيحضر جلسة التجديد حشدًا نخبويًّا فحسب، ولكن نريده حشدًا شعبيًّا جماهيريًّا لعل الجهات المسئولة تعدل عن التصعيد وتفرج عنهم خوفًا من ثورة المحامين.. يجب أن نشعلها ثورة.

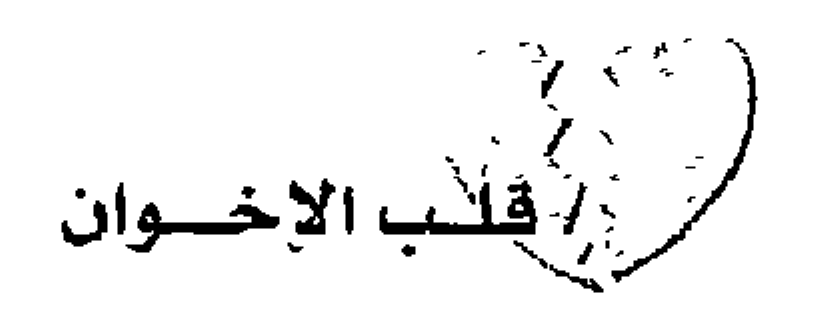
وأخذت الاقتراحات تتوالى وازدادت الحمية ونفر الحماس من عروقنا وأخذنا نضع تصورات لكيفية وضع الاقتراحات موضع التنفيذ، إلا أن هذا الحماس لم يخف شماتة ظهرت في عيون البعض.. فقد كان بعضهم يخفي في خبيئة نفسه فرحة غامرة بحبس مختار وخالد!! ولم تستطع كلماتهم المغلفة بجدية مصطنعة إخفاء تلك الشماتة التي قفزت من عيونهم وتفلتت من خلال ألسنتهم رغمًا عنهم.. فإذا كان الشاعر أحمد رامي أخبرنا أن « الصب تفضحه عيونه» فإن الغل هو الآخر يخرج من عين صاحبه وينم عن أسراره الدفينة.

توالت المؤتمرات اليومية في محاكم القاهرة وفي غرفات واستراحات المحامين وفي مقر النقابة العامة.. ولا أظنني مغاليًا إذا قلت إن هذه المؤتمرات

أحدثت استنفارًا للمحامين من كل الجهات والتوجهات، وفي ذات الوقت قمنا بتشكيل فريق عمل كنت أحد أفراده ويضم محمد طوسون وأحمد ربيع وإبراهيم بكري وبهاء عبد الرحمن، وكانت مهمة هذا الفريق الاتصال بكل الناشطين من القوى السياسية ومن النخب الوطنية من المحامين ومن غير المحامين والترتيب معهم من أجل دعمنا في قضيتنا.. قضية إخواننا المحبوسين.. واحرَّ قلباه عليهم.

وجاء يوم تجديد الحبس وتجمهر خلق كثير أمام مقر النيابة وازدحمت ردهات النيابة بعشرات من المحامين.. وعشرات من الصحفيين.. وعشرات من نشطاء حقوق الإنسان.. كان أحمد نبيل الهلالي يقف مع حمدين صباحي وبجوارهما منتصر الزيات ومعهم عبد العظيم المغربي من اتحاد المحامين العرب والدكتور إبراهيم صالح وأحمد عبد الحفيظ وكامل مندور وسيد شعبان وسامح عاشور.. الكل على قلب رجل واحد... الكل يتأهب لتلك اللحظة التي سيدلي بدفاعه فيها عن مختار ومن معه... كانت كلمات الأستاذ رجائي الواثقة التي همس بها في آذاننا قبل بدء الجلسة تبعث قدرًا من الاطمئنان في أفئدتنا وكأنها نبوءة: اطمئنوا فكل شيء على ما يرام واليوم سنحقق مبتغانا إن شاء الله.

توالت الأفكار على خاطري تمور بالمشاعر بعدما سمعت نبوءة رجائي... هل كانت نبوءة أم رجاءً؟ هل كان حلمًا فخاطرًا فاحتمالًا؟ وهل تتحقق النبوءة في زمن انقطعت فيه المعجزات؟ ليس من المستطاع أن يتحول الحلم إلى حقيقة بمجرد التمني.. وهل تؤخذ المطالب بالتمني أم أنها تؤخذ



غِلابًا؟.. هل يصدقنا رجائي ويكون قد بذل جهدًا سياسيًّا أم أنه يراهن على جهده القانوني؟! الكل يعلم أن مسألة القبض على تلك المجموعة لها جوانبها السياسية التي تقف على تخوم الجوانب القانونية فإلى أين سيذهب بنا رجائي؟

انقطع حبل أفكاري حين بدأت جلسة التجديد، وحين النداء على القضية ازدحمت غرفة التحقيق التي مثل فيها مختار حتى إننا جميعًا وقفنا متراصين كالموج المتلاطم، إذ لا مكان يتسع لجلوس أحد وترافع يومها عن نوح أكثر من عشرين محاميًا يتقدمهم رجائي عطية وكذلك كان الأمر بالنسبة لخالد بدوي... وبعد انتهاء المرافعات وقفنا في طرقات النيابة وقلوبنا تخفق بالرجاء وتنبض بالتمني ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه.. خرج القرار باستمرار الحبس لمدة خمسة عشر يومًا أخرى، وحين بحثت عن رجائي لم أجده.

حين رأيت الدنيا من حولي يزداد ظلامها تحدثت مع أحمد ربيع وبهاء عبد الرحمن واتفقت معهما على أن نذهب إلى رجائي عطية في مكتبه لنقف على خبر يقيني بشأن الإفراج عن إخواننا، ونظرًا لأن بهاء يرتبط مع رجائي بروابط عمل فقد طلبنا منه أن يحدد لنا موعدًا، وعلى الفور أنجز بهاء مهمته وحدد الموعد، وفي الموعد المتفق عليه ذهبنا جميعًا، وتصادف أن كان مع بهاء أخونا جمال برعي فذهب معنا.. وفي مكتبه الكائن بعمارة الإيموبيليا بشارع شريف جلسنا نتحاور معه.. كان جمال برعي حادًّا ومندفعًا مع رجائي وقال له بالحرف: أنت وعدتنا كثيرًا يا أستاذ رجائي ويجب أن تبذل جهدًا كبيرًا من أجلنا هذه المرة، ليس من أجلنا ولكن من أجلك أنت.. من أجل

مشروعنا المشترك، حاولت أن أخفف من حدة كلمات جمال برعي فقلت لرجائي: أذكر أنني سمعت يومًا الدكتور القرضاوي وهو يتحدث عن العقلية الجمعية فقال إنه وهو بعد صغير اشترك في مظاهرة، وعندما أمسك أحد المتظاهرين حجرًا وقذف به واجهات المحلات فعل كل المتظاهرين مثل ذلك وكان من عجبه أن انحنى هو الآخر وأمسك مثل الجميع حجرًا وفعل مثلما فعلوا.. وأنا أخاف أن يغضب أحد إخواننا من المحامين من استمرار حبس مختار وخالد فيمسك حجرًا ويقذفه على مشروعنا الذي بنيناه معًا، وحينئذ أخاف أن يفعل مثله باقي الإخوان فيقفوا ضدك في الانتخابات.. يجب يا أستاذنا الفاضل أن تبذل كل ما تستطيع.. نحن نحبك ونتمنى أن يقف كل صفنا معك.

فأجاب رجائي بأنه يبذل كل الجهد وأنه تحدث مع شخصيات سياسية كما تحدث مع النائب العام، وأن أمر الإفراج تأخر ولم يحدث في الجلسة الماضية نظرًا لأن تقرير خبير الأصوات عن التسجيلات الصوتية للحوارات التي كانت تدور بين المقبوض عليهم في الاجتماع التنظيمي لم يكن قد تم الانتهاء منه بعد، وأنه حتمًا سيتم الإفراج عنهم في الجلسة القادمة خاصة أن تقرير الخبير على وشك الانتهاء.. ثم وجه رجائي حديثه لجمال برعي وقال له: يا أخ جمال أنت في بني سويف ولا تعلم ما أفعله أنا من أجل مختار وخالد وإبراهيم الرشيدي، وبدلًا من أن تلومني أنا، وَجِّه اللوم لمختار وخالد.. أيعقل هذا يا جمال يا برعي؟! ما الداعي لكي يحضر مختار اجتماعًا تنظيميًّا في هذه الأيام؟!!

وهنا تدخل أحمد وقال: يا أسـتاذ رجائي هذا اجتماع لقسـم المهنيين وكان يناقـش أمـر خطتنا الانتخابيـة.. كنا نريد أن نحصل منهم عـلى موافقة نهائية بعدد المرشحين الذين سيمثلون الإخوان.

أكمـل بهاء عبد الرحمن كلام أحمد وقـال وهو يضحك ضحكته المعروفة عنـه: عمومًا ربنا سـتر كنت أنـا وأحمد ربيع في طريقنا لحضـور هذا الاجتماع لكـن تـم القبـض عليهم قبـل أن نذهـب، أنا عن نفـسي اختبـأت عند مترو الأنفاق، كانت مسئوليتك ستتضاعف لو تم القبض عليّ.

نظرنـا إلى بهـاء ونحن نزجـره بعيوننـا واضطـررت إلى مقاطعتـه وقلت لرجائي: لو سمحت يا أستاذ رجائي لو يساعدك في مفاوضاتك أن ننسحب من هذه الانتخابات كلها بحيث لا يكون لنا فيها لا ناقة ولا جمل فسنفعل.

فوجـئ رجائـي بكلامـي ويبـدو أنـه فهم منـه أننا سننسـحب وسـنترك الانتخابات كلها بما يعني أننا لن نقف معه فكاد أن يقفز من مقعده وقال: «لا لن تصل الأمور إلى مثل هذا، أنا لا أقبل انسحابكم وسيخرج مختار حتمًا.. في الجلسة القادمة سيخرج».

■■■

تحتاج هذه الفترة إلى كتاب مستقل يحكي ويغوص ويحلل، فلا يمكن أن تحيط بها هذه السـطور أو تفصِّـل أحداثها أو تحلل لها، ولكنها قد تسـتخرج أهـم وقائعهـا لتبعث فيها الحياة مـن جديد فتبوح لنا بـأسرار مخبوءة تكاتف الكثـيرون على طمسـها.. وإذ كنـت أقلب باقي صفحات الكراسـة وجدت

هـذه الفقرة الهامة لعلها تكون خير شـاهد على ما حدث آنذاك، أو بالأحرى لعلها تلقي الضوء على أيام أراد لها البعض أن تذهب طي النسيان:

«نحن الآن في شهر نوفمبر من عام 1999 والأيام تمر بطيئة وكأنها لا تمر.. في هذه الأيام نسـيت مكتبي ونسـيت أعمالي، وغبت عن زوجتي وعن ابني قرة عينـي مـرام ويحيى، فأنا أعتبر نفسي في مهمة إسـلامية.. وهـل هناك أعلى قيمة من رجل يبتغي وجه الله في إخوانه فيكون لهم وجاءً من غوائل الأيام؟!.. كان الله في عـون العبـد ما دام العبد في عـون أخيه.. انصر أخاك ظالمًـا أو مظلومًا.. وأنـا أنـصر أخي المظلـوم.. أنا في عبادة مسـتمرة في هذه الأيـام وأرجو من الله سبحانه وتعالى أن يأجرني عليها وتكون بابي إلى الجنة.. لا توجد بوادر تنبئ عن قرب الإفراج عن مختار وخالد وإبراهيم بل العكس هو الصحيح.. هل رجائي يصدقنا؟ أخاف من طريقته معنا.. أشعر أنه يصب الماء البارد على نارنا المشتعلة حتـى نهدأ.. أنا أحب رجائي جدًّا وأحترمه كرجل قانون وكمفكر بارز وأتمنى أن يكـون نقيبًـا للمحامين وأن يكـون زوال الغمة على يديه.. يـا رب كن معنا وساعد رجائي في سعيه وبارك له في هذا السعي واجعله في ميزان حسناته.

اليوم هو الخميس وقد حدث شيء غريـب.. كنا في مؤتمر بمحكمة شـمال القاهرة..ألقيت كلمة وسـط عشرات من المحامـين لدفعهم إلى اتخاذ موقف حاسـم يعيد للمحاماة أيـام مجدها.. ذكَّرتهم بموقف مختـار في حادثة مصرع المحامي عبد الحارث مدني وقلت لهم: إما أن نكون أو نظل عشرات السنين تحـت رحمة السـلطة التنفيذيـة.. كان بعـض المخبرين من جهاز أمـن الدولة يجلسـون وسـط المحامين ويسـجلون كل كبيرة وصغيرة، وحين خرجت إلى

موقف سيارات المحكمة لأركب سيارتي وجدت السايس عم «أبو زهرة» يسرع إلى السيارة ويفتح لي بابها وهو يهمس في أذني: يا أستاذ ثروت سلم لي على الأستاذ مختار فكلنا نحبه ولن ننساه وربنا يخفف عنه.. أستاذ ثروت أريد أن أنقل لك خبرًا هامًّا.

قلت له: خير يا عم أبو زهرة؟

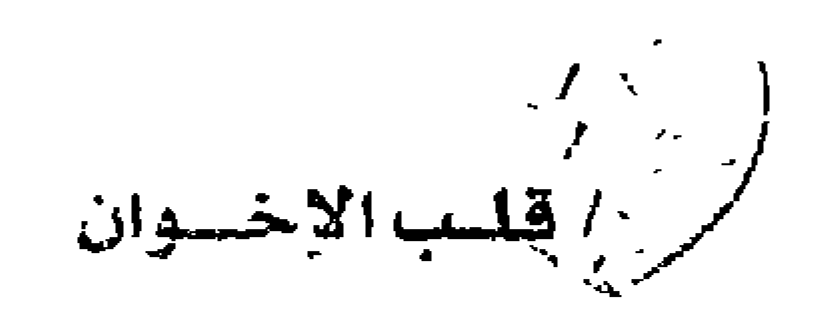
قال والتأثر بادٍ عليه: أخبرني محمود الفقي مخبر أمن الدولة الذي كان يرصد مؤتمركم في المحكمة اليوم أن قرارًا سيصدر اليوم بإحالة مختار وإخوانه إلى المحكمة العسكرية.

نظرت إلى «أبو زهرة» بفزع وقلت له: غير معقول.. هذا تخريف، محمود الفقي كان يعبث بعقلك.. لا تصدقه.

وعندما ركبت سيارتي اتصلت هاتفيًّا بإبراهيم بكري وأخبرته بما أخبرني به أبو زهرة واتفقت معه على أن نذهب إلى رجائي في أي مكان يكون فيه، وعندما اتصلنا برجائي وجدناه في محكمة دار القضاء العالي فذهبت إليه وأنا أقود السيارة بسرعة جنونية.. وحين التقيناه أنا وإبراهيم أخبرته بما وصل لي من معلومات فنظر لي وكأنه ينظر إلى رجل في عقله خبل وقال بابتسامة: مخبر وسايس يا ثروت.. سايس سيارات يهذي فتصدقه!!.. كنا نجلس في استراحة المحامين وكان يجلس بجوارنا أحد الأصدقاء من المحامين من غير الإخوان اسمه أحمد حلمي فقال هذا الصديق لرجائي: لن نخسر شيئًا لو أجريت اتصالاتك لتسأل عن هذا الأمر.. افعل هذا حتى تطمئن قلوبنا.

فأمسك رجائي هاتفه المحمول وأجرى اتصالاً أمامنا ثم خرج من الاستراحة لينفرد بمكالمته، وبعد هنيهة عاد إلينا وهو يبتسم ابتسامة عريضة وقال بصوت جهوري ليسمعه كل المحامين الذين كانوا يجلسون بجوارنا: لم يحدث شيء ولم ولن تكون هناك إحالة للمحكمة العسكرية وسيتم الإفراج عن مختار وخالد وإبراهيم في الأسبوع القادم.. هذا خبر وليس أمنية.

وفي أول الليل عقدنا أنا وأحمد ربيع وإبراهيم بكري اجتماعًا مع محمد طوسون في أحد المقاهي بشارع الألفي بمنطقة وسط البلد حيث تناقشنا في كل الأحداث التي مرت بنا في هذا اليوم، وأخبرناه بذلك الخبر المزعج الذي تسرب إلينا عن إحالة مختار ومن معه للمحكمة العسكرية وقلت له رد فعل رجائي فلم يعقب إلا بهمهمات وابتسامة ليس لها معنى، ثم انتهى الاجتماع قبل منتصف الليل بقليل، وفي الطريق إلى بيتي قمت بشراء كل الصحف اليومية والمستقلة التي ستصدر صباح الجمعة والتي تخرج طبعاتها الأولى في الليل، وفي غرفة المعيشة جلست أقرأ الصحف وأنا أتحدث مع زوجتي تارة وأدعو الله بصوت مسموع تارة أخرى «يا رب يكون خبر إحالة إخواننا للمحكمة العسكرية خبرًا غير صحيح»، وعندما وقعت عيناي على إحدى الصفحات الداخلية بجريدة الأهرام وقعت عيني على خبر صادم: «إحالة قضية مختار نوح إلى المحكمة العسكرية».. أسكتتني الصدمة وحين سألتني زوجتي لماذا سكت قلت لها: أنا الآن مثل ذلك التلميذ الذي أخذ يدعو الله قائلًا: «يا رب تكون باريس عاصمة لبنان، وعندما سألته أمه لماذا تدعو الله هذا الدعاء قال لها لأنني أجبتها هكذا في الامتحان.. ونحن ما زلنا نصدق



وعود الأستاذ رجائي رغم أنه صدر قرار بإحالة مختار ومن معه للمحكمة العسكرية، عرف هذا القرار السايس ومخبر أمن الدولة ولم يعرف به رجائي.. أظن أنهم يخدعونه... ويحك يا يوم الخميس ففيك تم القبض عليهم وفيك تمت إحالتهم للمحكمة العسكرية».

■■■

حين أستعيد ذكرى هذه الأيام يقفز الدم في شراييني قفزًا حتى يكاد وجهي يصطبغ باللون الأحمر، ولم لا وقد كانت كل لحظة من لحظات تلكم الأيام تحمل خبرًا أو حدثًا.. أملًا أو إحباطًا.. خوفًا أو تهورًا؟! وحين أمسك كراستي لأنقل منها أشعر كأن قلبي هو الذي يقلب صفحاتها فقد كانت هذه الكراسات بعضًا من نبضي ومكنون ذاتي، وحين أدلف إلى تلك الكراسة التي استودعتها أحداث المحاكمة العسكرية فإنني أستعيد معها سراجًا خافت الضوء من أحداث لا تزال بعض شفرات أسرارها في رحم الغيب... وإذ كنت على وشك أن أطوي بعض صفحات الكراسة لأذهب إلى صفحات أخرى وقع نظري على سطور بهت مدادها ولكن أحداثها لم تبهت إذ ما زالت ماثلة في وجداني.. ولا أجدني في حاجة إلى كتابة مقدمة لهذه السطور ولكنني أنقلها هنا كما هي:

«نحن الآن في منتصف شهر نوفمبر، جلست لأكتب هذه الكلمات قبل منتصف الليل، أما في الصباح فقد كانت المحكمة العسكرية تنظر أمر تجديد حبس إخواننا من المحبوسين وكان الأستاذ رجائي عطية قد أخبرني وأخبر

كل الإخـوة أنـه أجـرى اتصالات وأنهـم حتمًا سـيفرجون عـن المحامين مختار وخالد وإبراهيم، وللأسـف لم يتحقق وعده، هـذا الرجل صادق، ليس عندي ذرة شـك في أخلاقه فهو شـخصية جديرة بالاحترام ولكنني أشـعر أنه تنقصه الحنكـة السياسـية، ويبدو أن هناك بعض أفـراد من المقربين من دوائر السـلطة يكـررون وعودهم له وهو لطيبته يصدقهم ولكن هل يجب أن نصدقهم أيضًا؟ بعد جلسـة تجديد الحبس التـي انتهت قبل صلاة الظهر وقف الأسـتاذ رجائي على باب المحكمة العسكرية بالحي العاشر وهو يبدي ألمه من قرار تجديد الحبس وكان يقف معه أحد المحامين من فريق عمله الانتخابي وهو الأستاذ «مصطفى محمود» المحامي الناصري وكان يقف معهما أيضًا أحد المحامين من أصدقائي، وبعد انصراف الأسـتاذ رجائي جاء لي صديقي الذي كان يقف معهما وأخبرني أن مصطفى محمود كان يخفف عن الأستاذ رجائي حزنه فقال له: «ولا يهمك يا أستاذ رجائي وحتى لو تم حبس مختار حبسًا نهائيًا فسوف يقف معك الإخوان والحذاء فوق رأسـهم لأن منافسك هو سامح عاشور خصمهم التاريخي»، ولما كنـت لا أحب أن يكون الحـذاء فوق رأسي فقد اصطحبت أحمد ربيع وإبراهيم بكري وذهبنا في أول الليل إلى مكتب رجائي وقلت له ما وصلني فأقر بحدوثه وقال إنه غير مسئول عن كلام مصطفى وأنه لا يقبل هذا الكلام ثم قال: حقك عليَّ يا عم ثروت!! عدت إلى بيتي وأحاسـيسي ثائرة ونفسـيتي مهتاجة وحين هدأت أخذت أقرأ قصيدة هاشـم الرفاعي «رسـالة في ليلة التنفيذ» وقد هزتني أبياتها هزًّا وقد امتزجت معها من أول بيت:

الليل من حـولي هــدوء قاتــل   والذكريـات تمـور في وجداني

إلى البيتين اللذين قال فيهما:

أنا لستُ أدري هل ستُذْكرُ قصتي	أم سوف يعروها دُجَى النسيان؟
أم أننـي سأكـــون في تاريخنـــا	متآمـرًا أم هــادم الأوثـــان

وبعـد أن قـرأت القصيـدة فكـرت في إخـواني المحبوسـين، كنـت كأنني أنـا المحبـوس لا هم، شـعرت بالاختنـاق وكأن الهواء نفد مـن حولي ورغم محاولاتي إخفاء حالة الضيق والكدر التي انتابتني عن زوجتي إلا أنها شعرت بي فطلبت مني أن أعود لمصحفي وأقرأ بضع آيات من القرآن لعل الله يخفف عني ففعلت وقرأت واسترحت.

عندمـا أتذكـر تلك الأيام وأسـترجع أحداثها أشـعر وكأنهـا كانت حلمًا مـن الأحـلام، وكأنني كنـت بين اليقظة والمنـام.. أحقًّا كان مـا كان وحدث ما حدث؟ أفي تلك الحياة عشـت ما سـلف أم أنني كنـت آنذاك في زمن آخر وفي دنيـا أخـرى؟ ولكني أفيء إلى يقظـة فتحدثني نفـسي أن أغلق صفحات كراسـتي، فاسـتعادة الأحـداث وإن كانـت لهـا قيمتهـا إلا أنها تنـكأ جراحًا وتسـتعيد مواجـع أرقتني وأسـالت مدامعي..تلـك المواجع التـي أردتها أن تذهـب أدراج النسـيان.. ولكـن وكأن تلـك الصفحات التـي أردت وأدها والتي تحتوي على تاريخ كاد أن ينزوي، ترفض أن تنزوي، وهأنذا أعود إليها مـرة أخرى فأجدني أمـام ذلك الحدث الذي أفردت له جزءًا في الربع الأخير من تلك الكراسة:

«في اليـوم التالي انعقد اجتماع للجمعية العمومية لمحامي الإخوان.. يحضر في هذه اللجنة رؤساء المكاتب الإدارية لمحامي الإخوان بالمحافظات وأعضاء

لجنة السبعة المنوط بها إدارة المهنة.. جلسنا جميعًا في مكتب بهاء عبد الرحمن بمنطقة عابدين وكانت بنود الاجتماع تدور حول وجوب انتخاب لجنة من بيننا تدير أزمة حبس مختار نوح وإخوانه من المهنيين ولها أيضًا كامل الصلاحيات في إدارة انتخابات المحامين بحسب أن الانتخابات تعتبر جزءًا من الأزمة وسببًا في حبس مختار ومن معه، كنت في هذا اليوم أبدو شارد الذهن وفي الحقيقة أنني كنت أكاد لا أسمع كلمة واحدة مما قيلت، حتى إنني لم أشترك في الحوار الذي كان يدور بين الإخوة والتزمت الصمت طوال الجلسة وقد أثار صمتي دهشة أحمد ربيع وظن أنني مريض ولكنني كنت في أشد الحاجة إلى الانكفاء على نفسي وتدوير الأفكار في عقلي.. كنت أمارس مع نفسي عصفًا فكريًّا.. وحين انتبهت وعدت من خلوتي النفسية وجدت الانتخابات قد بدأت ورغم أنني أعطيت صوتي لأحمد ربيع إلا أن أحمد أعطاني صوته وكانت النتيجة هي انتخابي بالإجماع عدا صوتي رئيسًا للجنة وانتخاب عدد من الأعضاء معي هم أحمد ربيع وإبراهيم بكري وبهاء عبد الرحمن وجمال حنفي ممثلين للقاهرة وعدد آخر من الإخوة ممثلين لبعض المحافظات.

وبعد أيام من هذا اللقاء كان من المقدَّر أن نذهب للقاء المستشار مأمون الهضيبي لمناقشة خطة الانتخابات الجديدة وكنت قد تخلفت عن هذا اللقاء إلا أن الإخوة الذين حضروا وعلى رأسهم أحمد ربيع أخبروني أنه حدثت مشادة بين أحمد والمستشار الهضيبي وكان سبب هذه المشادة هو رغبة المستشار في ترشيح الأستاذ أحمد سيف الإسلام حسن البنا لعضوية مجلس النقابة وتغيير الخطة من المشاركة إلى المغالبة وقد اعترض أحمد لأن أحمد سيف لم يحصل في

الانتخابـات الداخلية بيننا إلا على صوت واحد، وبعد هذا اللقاء صدر قرار من المستشار الهضيبي بعزل أحمد من رئاسة القسم وتعيين محمد طوسون بدلًا منـه والاكتفـاء بعضوية أحمد في لجنة الانتخابات.. وأصبح طوسـون رئيسًـا للقسم.. وصرت أنا مسئولًا عن إدارة لجنة الأزمة ولجنة الانتخابات.

بدأنـا عملنا في لجنة إدارة الأزمة.. كنا مجموعـة من الرفاق.. اجتمعنا على عمل لله.. من أجل نصرة مظلوم.. تعاهدنا من أول لحظة أن يكون الإخلاص سبيلنا والمحبة زادنا والأخوة في الله هي صلتنا.. وكان أول تحرك لنا هو السعي لإقامـة علاقات طيبة مع الإعلاميين والصحفيـين وبالفعل تعرفت على عدد كبير من الصحفيين من الذين كانوا على خلاف مع الإخوان ولكني وجدتهم من أفضل الناس خلقًا بعد أن كنت أظن أنهم أكبر خصوم للحل الإسلامي، ومـن عجبي أنني لاحظت أن هؤلاء قد يكونون أكثـر تدينًا وإيمانًا من بعض الإخـوان المسـلمين، وكان أن أقمت صـلات طيبة بالمسئولين في إذاعة لندن وغيرهـم من الإعلاميين من جميـع التوجهات، كان مظهرنا نحن أعضاء لجنة إدارة الأزمة شـبيهًا بالمقاتلين في معركة حربية.. واصلنا الليل بالنهار وتحركنا عـلى جميـع الأصعدة وقمنـا بتحريك الـرأي العام بقـوة ناحيـة التعاطف مع قضية النقابيين المحبوسـين والمحالين للقضاء العسـكري، وفي سبيل تحركاتي الإعلامية قمت بتجهيز ملف كامل لكل أخ من المحبوسين يحتوي على السيرة الذاتية له وبهـذه الملفات وببعض بيانات نارية عقدنا مؤتمرات صحفية لدعم القضيـة إعلاميًـا... ولكن رغم كل ما بذلناه مازال مختار محبوسًـا يرسـف في أغلالـه الكئيبـة، وما زال خالد بعيـدًا عن بيته وأهله، وضاعـت على إبراهيم الرشيدي فرصته في العودة لعمله في الخليج الذي كان في إجازة منه».

أقفز على الصفحات وأطوي بعضها وأتجاهل عشرات الأحداث والتفصيلات إذ لو تركت نفسي لها لأفردت لها كتابًا كاملًا وقد أفعل ذات يوم فهي أحداث جديرة بالتسجيل والرصد والتحليل، إلا أن آخر صفحات تلك الكراسة يستوقفني منها ويشد نظري تلك الفقرات:

«ليس هناك أشد وطأة على النفس من ظلم لا تستطيع دفعه، وليس هناك أشد على الإنسان من تنكرٍ له وقت محنته، وفي المحنة ظهرت معادن الناس وانكشفت معادن الإخوة، في أحد اللقاءات همس بعض الإخوان في أذني أن أحدهم سجد لله شكرًا حين تم القبض على مختار وخالد، كان أحدهم هذا من أكثر الأشخاص حربًا على إخوانه المحامين وفرحًا حين تم فرض الحراسة على نقابتنا، أما الشماتة فقد كانت بادية في عيون البعض تكاد تخرج لنا لسانها، وقد تقابلت مع الكثير من الإخوة الذين أعلم حسن طويتهم ولكن أحزنني منهم عدم المبالاة بما حدث وكأن من تم القبض عليهم لم يكونوا إخوة لهم.

اليوم كان قد انعقد اجتماع إخواني لمناقشة بعض ترتيبات المحكمة العسكرية وكيفية مواجهتها وقد شق عليَّ كلمة خرجت من فم الأخ أسامة محمود حين قال لي: أنت مهتم بشكل مبالغ فيه بموضوع حبس مختار وخالد.. يا ثروت يجب أن تعلم أن الحبس في السجون هو معسكر من معسكرات الإخوان ولا ينبغي أبدًا أن يشغلك بهذا الشكل.. نظرت إلى أسامة بخيبة أمل ولكنني لم أرد عليه.

عندما أتيحت الفرصة لزيارة الإخوة في محبسهم في سجن طرة لم أتركها فقد صرت الزائر الوحيد الذي يقوم بالزيارة كل يوم بحيث لم أفوت إلا أيام الجُمع والإجازات، وكانت هذه الزيارات فرصة سانحة نتناقش فيها في كل شيء يتعلق بالقضية سواء من حيث القانون أو من حيث السياسة، وعندما تم تحديد الجلسة الأولى التي ستبدأ فيها المحاكمة قمنا بتوزيع أنفسنا كمحامين على الإخوة المتهمين وكان من نصيبي بطبيعة الحال عبء المرافعة عن مختار وخالد وإبراهيم الرشيدي، أما رجائي عطية فقد اتفقنا معه على أن يترافع في الشق العام للقضية.

في أول جلسة من جلسات المحكمة العسكرية التي انعقدت هناك في صحراء الهايكستب كانت الإجراءات الخاصة بدخول المحامين والأهالي تسير على قدم وساق، وكانت هناك حالة ارتباك وتدافع فقد كان من المقرر أن نقدم بطاقات تحقيق الشخصية على البوابة وننتظر إلى أن تأتي لنا حافلة تابعة للقوات المسلحة فتقلنا إلى الداخل، ونظرًا لحالة الزحام الشديد فقد توقفت الحافلات ورفضت نقل هذه الأعداد الغفيرة إلا إذا سمح رئيس المحكمة بذلك، وحين كنا ننتظر وصول موافقة رئيس المحكمة لمحت عن بعد الأستاذ محمد علوان وكان معه الدكتور توفيق الشاوي(*) فذهبت إليهما مرحبًا. ومن أسف أن معظم الحاضرين لم يعرف الدكتور توفيق ولكنني عرفته فقد سبق وأن ذهبنا إليه مع مختار في الأيام الخوالي ثم بعد حبس مختار ذهبت إليه أستشيره وأستنبت منه

(*) الدكتور توفيق الشاوي رحمه الله هو واحد من القيادات التاريخية لجماعة الإخوان، هو رجل قانون كبير، وكان له الدور الأكبر في إنشاء منظمة المؤتمر الإسلامي، له العديد من المؤلفات في مجالات الشورى ونظم الحكم في الإسلام، وكان متزوجًا من ابنة علامة القانون عبدالرزاق السنهوري.

الرأي السديد في كيفية مواجهة هذه القضية.. ونظرًا لأن الرجل كان قد اقترب من الثمانين فقد طلبت منه أن يجلس في السيارة التي حضر فيها برفقة الأستاذ علوان، وعندما طالت الإجراءات انصرف علوان والشاوي وقبل أن يودعاني طلب مني الدكتور الشاوي أن أذهب إليه في بيته لأخبره بتفصيلات ما حدث في الجلسات، ووعدته بأنني سأتصل به لأحدد معه موعدًا أذهب إليه فيه».

وفي صفحة أخيرة من تلك الكراسة كانت هذه الفقرة.

«يسكن الدكتور توفيق الشاوي في فيلته الأنيقة الرابضة على كورنيش النيل بالمعادي وإذا جلست في حجرة الصالون فستجد الحائط يزدان بعدة صور لأشخاص لهم تاريخهم، وكانت الصورة التي لفتت نظري هي صورة علامة القانون المرحوم عبد الرزاق السنهوري.. كنت قد ذهبت للدكتور الشاوي وفقًا لموعد اتفقنا عليه في اتصال هاتفي وكنت قد استأذنته في أن أصطحب معي في هذا اللقاء الأخ أحمد ربيع وقد رحب الرجل أيما ترحيب».

وحين دخل الدكتور الشاوي علينا وجدني أتطلع لصورة السنهوري فقال لي بعد أن رحب بنا: هل تعلم أن السنهوري رحمه الله حصل على دكتوراه في فقه الخلافة، وكان قبلها قد حصل على دكتوراه في القيود التعاقدية على حرية العمل؟.. فقلت له: أنا أعلم عن رسالته في فقه الخلافة وأظن أنه كتبها بعد إلغاء دولة الخلافة الإسلامية وكانت رسالة رائدة.

وتدخل أحمد ربيع في الحوار وذكر أنه بهذه المثابة تكون هناك علاقة فكرية بين الشهيد حسن البنا والمرحوم السنهوري؛ فهذا أنشأ تنظيمًا ليستعيد الخلافة، وذاك حصل على دكتوراه في فقه الخلافة.

وبعد أن شرحت للدكتور الشاوي تفصيلات قضية مختار التي أطلق عليها الإعلام « قضية النقابيين» حكيت له عن مرافعة الأستاذ رجائي عطية والحادث الذي وقع له بعد مرافعته والشكوك التي دارت حول هذا الحادث وزيارتي له في المستشفى حيث التقيت هناك بشخصيات سياسية كبيرة، وحكيت له أيضًا عن تفصيلات مرافعتي عن مختار وخالد وإبراهيم الرشيدي التي استمرت أكثر من ثلاث ساعات، وتحاورت معه في الدفوع القانونية التي أبديتها في أثناء المرافعة وطلبت البراءة بناء عليها.. كما حكى أحمد ربيع عن مرافعته التي أبداها عن بعض الإخوة ودفوعه القانونية، وفي أثناء حديث أحمد تطرق إلى الخلاف الذي كان قد نشب بينه وبين المستشار الهضيبي وأسهب في أن المستشار الهضيبي أراد أن يتراجع عن الشورى التي أجريناها بخصوص عدم ترشيح أحمد سيف الإسلام حسن البنا وكانت حجته وقياسه في ذلك هو موقف الرسول ﷺ عندما رفض قتل المنافقين وقال: «حتى لا يقال إن محمدًا يقتل أصحابه» فقال له أحمد: إن هذا قياس فاسد لأن القياس الصحيح هو قول الرسول ﷺ: «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها» واسترسل أحمد شارحًا غضبة المستشار الهضيبي تجاهه والآثار التي ترتبت عليها، وهنا قال الدكتور توفيق الشاوي: رُشْدُ أي تنظيم أو جماعة أو مجتمع إنما يُستمد من عدة قيم هي الحرية والشورى والعدالة والمساواة واقرأ إن أردت ما كتبه أخي الدكتور سليم العوا عن هذه القيم في كتابه القيم في النظام السياسي للدولة الإسلامية، وليس عندي شك أن قياس المستشار هنا قياس فاسد وقياسك هو الأصح، وأنا أرى أن جماعة الإخوان تفقد بعض رشدها حين تضرب صفحًا

عن الشـورى والمساواة وقد عرفت تفصيلات الخلاف الذي شجر بينهم وبين مجموعة حزب الوسـط وقـد أفزعني رد فعل الجماعة غـير المبرر.. جلس معي هنـا أبو العلا ماضي ومعه مجموعة من إخوانه وقد وجدت فيهم نجابة وعمقًا ومـن الخطأ أن تتسرب هذه الكفاءات من الجماعة.. للأسـف جماعة الإخوان التي أحببناها تفقد رشدها شيئًا فشيئًا.

كانت هـذه الكلمات غريبة على أذني فلأول مرة أسـمع نقدًا للجماعة من رجـل لـه قيمته الفكريـة والتاريخية في الجماعة وفي العمل الإسـلامي، وحين قلت له: إن الإخوان حركة ربانية وإن الله سـيحميها.. قال بهدوء: الإسـلام ديـن رباني ولكـن الأفراد بشر يصيبـون ويخطئون.. الجماعة قـد تزول ويخبو أثرها إن هي خالفت السنن الكونية.. ليس معنى أنها ترفع شعارات إسلامية أنها تكون قد حصلت على قداسة.. جماعة الإخوان ليست مقدسة.

وإذ شعرت أن الدكتور ظهر عليه الإرهاق قمنا بتوديعه وانصرفنا وعندما كنا في السيارة قلت لأحمد: هذا كلام لم نسمعه من أحد من الإخوان من قبل وهو يسـتأهل المناقشـة.. فقال أحمـد: والله لقد صدق الرجـل يبدو أن جماعة الإخوان تفقد رشـدها شـيئًا فشـيئًا ويبدو أننا سـنرى أيامًا حالكة.. المهم أن تنتهي المحاكمات العسكرية على خير.. هل ترى أنها ستنتهي على خير؟ قلت له: يبدو أننا ننتظر مفاجأة».

وحـين أمسـكت الكراسـة لأضعهـا في الخزانة تذكـرت المفاجـآت التي توالت علينا حينها.

الفصل الخامس

وراء الأكمة

«هناك من لا يستطيع أن يكون إلا نفسه. يمارس قناعاته حتى ولو خاصم من أجلها الدنيا. وهناك من يستطيع أن يكون غير نفسه. يمارس طموحاته حتى ولو صادق من أجلها الشيطان. وكلاهما ممقوت ومرضي عنه في آن واحد: فالأول ممقوت من الناس ومرضي عنه من الحق، والثاني ممقوت من الحق ومرضي عنه من الناس».

انتهت المرافعات في القضية العسكرية للنقابيين، وقدم كل واحد من المحامين ما في جعبته من الأسانيد والدفوع القانونية، إلا أن وجوه المتهمين التي رسم القلق تجاعيده عليها كانت تشي بأن الأحكام ستصدر في غير صالحهم، ورغم الوعود الكثيرة التي قطعها المحامي الكبير رجائي عطية على نفسه، مؤكدًا أن مختار نوح ومعه خالد بدوي وثلة أخرى من المتهمين

سيحصلون بالتأكيد على البراءة، وأن باقي الأحكام ستكون مخففة لا ضير منها فإن أحدًا لم يصدقه! فقد أيقنوا جميعًا أن الأستاذ رجائي فشل في الوصول إلى قرار سياسي بهذا الشأن، وأنه إنما يمد حبل الرجاء طمعًا في استمرار مؤازرة الإخوان له في المعركة الانتخابية. كانت التوقعات التي خرجت من داخل السجن من قيادات الإخوان المحبوسين تؤكد أن الأحكام ستتراوح بين ثلاث وخمس سنوات، وأن هناك من سيحصل على البراءة، وقد أجمعوا على أن أصحاب البراءة هم إبراهيم الرشيدي ومحمد سعد عليوة، ومن الممكن أن يضاف إليهما أحمد محمود حسن وأحمد أبو الأنوار، كانت تلك التوقعات سببها أن هؤلاء ليست لهم أهمية تنظيمية ولم يكن لهم تأثير حركي؛ ولذلك لن يكون هناك أي أثر إذا حصلوا على البراءة، فضلًا على أن هذه القضايا لا بد أن يحصل بعض المتهمين فيها على البراءة، ولم يكن هناك غير هؤلاء ليتم إطلاق سراحهم.

وفي محاولة مني لاستقصاء ما يمكن أن يتساقط من أخبار، ذهبت ومعي أحمد ربيع وإبراهيم بكري إلى مكتب الأستاذ رجائي عطية نستمطر منه الأخبار ونستشرف وجهه؛ لعلنا نعرف من خلال قراءة الوجوه ما تخفي الصدور، إلا أن الإحباط كان باديًا على قسمات وجه المحامي الكبير.. وببراعته المعهودة أخفى إحباطه ببضع كلمات مبتسمات مبتسرات ووضع على وجهه ستارة الاطمئنان التي أظهرت أكثر مما أخفت، وعندما خرجنا من اللقاء استقبلتنا عاصفة ترابية من عواصف خريف القاهرة الذي كان لا يزال يافعًا يبسط سيطرته ونفوذه على السماء والأرض فيحيلهما إلى كتلة

رمادية جرداء، ويبدو أن العاصفة لم تهب من الشمال أو الشرق أو الجنوب، إنما هبت من أفئدتنا وخرجت من مشاعرنا الثائرة الملتهبة بعد أن وقع في روعنا أن الريح ستأتي بما لا يسر السفن وأن وراء الأكمة ما وراءها.

وتحددت جلسة النطق بالحكم، وهناك في منطقة الهايكستب - حيث الصحراء القاحلة وحيث مقر المحاكمة - تقابلت منذ الصباح الباكر مع بعض الأهالي الذين تكبدوا مشقة الطريق خلال أشهر عديدة، وحان الوقت الذي تصوروا فيه أنهم سيقطفون ثمار مشقتهم،لا ريب أن الألم فتت كبدي وشق قلبي؛ إذ وجدت بعض زوجات المتهمين يتحدثن عن أن بناتهن الصغيرات قمن بتعليق الزينة في بيوتهن ونثر الورود؛ انتظارًا لخروج بعض من تسربت الأخبار بحتمية حصولهم على البراءة، وأيقنت أن الإنسان يظل دائمًا متعلقًا بحبل الأمل مشدودًا إلى واحة الرجاء لا يحيد عنها قيد أنملة حتى إنه ليصنع من أمله قصرًا مشيدًا شامخًا، فإذا طلعت الحقيقة إذا بالأمل سراب وإذا بالرجاء حسرة وإذا بالقصر تذروه رياح الواقع، ولكن الواحد منا لا يني يمسك حبل الأمل من جديد ويتعلق بأهداب الرجاء ويسكن في قصر التمني؛ إذ لولا الأمل لسكن الإنسان حتمًا في باطن الأرض وهجر سطحها.

خرج عم عيد كاتب الجلسة مصطنعًا كسوف البال ليخبرني أن المحكمة أرجأت النطق بالحكم لجلسة أخرى هي يوم التاسع عشر من نوفمبر وعندما أخبرت الأهالي والمحامين الموجودين بالتاريخ انصرف الجميع وهم يمسكون بيد خيط الترقب والقلق إلا أنهم في الوقت ذاته يقبضون باليد الأخرى على

حبل الرجاء، وسمعت الزوجات وهن يتحدثن عن إصرارهن على ترك الزينة والورود في أماكنها في بيوتهن إلى أن يحين الموعد الجديد للحكم.

كان عام 2000 الميلادي قد استعد لمغادرة مداره، حيث سيذهب إلى غير رجعة، ولم يكن قد تبقى منه إلا عشرة أيام من نوفمبر، وديسمبر بأكمله، أما العام الهجري 1421 فقد كان يسعى حثيثًا للوصول إلى رمضان ولم يكن قد أدركه بعد، حينذاك أصدرت المحكمة العسكرية أحكامها التي كانت صدمة لكثيرين، رغم أنها كانت متوقعة.

امتنعت في هذا اليوم عن الذهاب للمحكمة العسكرية فقد كنت موقنًا بصدور أحكام عقابية، وذهبت إلى محكمة مصر الجديدة، وقبيل الظهر هاتفني عبدالمنعم عبد المقصود ليخبرني أن الأحكام صدرت في معظمها بالإدانة، وأن ثلاث سنوات من الحبس شدادًا غلاظًا كانت من نصيب مختار نوح وخالد بدوي ورافقهما في السنوات الثلاث كل من الدكتور محمد بشر ومدحت الحداد وعبد الله زين العابدين وهشام الصولي وسيد هيكل وأحمد شوقي عماشة وأحمد عبد الرحيم وعاطف السمري وإبراهيم السيد حسين وعبده البردويل، أما إبراهيم الرشيدي ومعه أربعة، هم أحمد محمود حسن وأحمد أبو الأنوار ومحمد سعد عليوة وعلي عبد الرحيم فقد نالوا البراءة.. وأن هناك من طالته خمس سنوات، هم الدكتور محمد بديع وسعد زغلول العشماوي وأحمد الحلواني، وسرعان ما توالت على هاتفي المحادثات التليفونية من إخوان مدينة نصر أو غيرها من المناطق، ومن أهالي المتهمين الذين حالت ظروفهم بينهم وبين الذهاب للمحكمة لمعرفة تفصيلات الأحكام، وكان ما

يثير العجب أن الكل كان يستقبل الحكم وهو غير مصدق.. كأنما صدَّقت الأفئدة أن الكل سيخرج من هذه المحاكمة بلا إدانة، وكان ظنهم أنه إذا حدث وكانت هناك أحكام بالإدانة فإنها لن تتجاوز العام؛ بما يعني خروج المتهمين من محبسهم، لأنهم قضوا بالفعل في السجن عامًا وازدادوا شهرًا.

استقبلت الحكم بفتور ظاهري، إلا أنني عقدت العزم على تغيير الخريطة الانتخابية لنقابة المحامين.

■■■

استقبلنا بدايات عام 2001 وكانت زياراتي للمحبوسين من الإخوان قد تباعدت وأصبحت تقريبًا مرة أو مرتين في الشهر، فما يتاح للمحبوس احتياطيًّا قد لا يتاح للصادر ضده الحكم العقابي، وإذا كان من حق المحامي أن يزور موكله أثناء المحاكمة بشكل دوري مستمر لإطلاعه على خطة الدفاع ومناقشته في تفصيلاتها؛ فإن هذا الحق يتبخر فور صدور الحكم وتصبح زيارة المحامي لموكله خاضعة للوائح تكبح جماح هذه الزيارات، فبدت الأحوال داخل السجن - مع قلة الزيارات التي كانت تبعث قدرًا من الحركة والحيوية - وكأن قاطنيه هم فريق من العابدين داخل صومعة هادئة ساكنة انقطعت علاقاتهم الدنيوية بمن هم خارج الصومعة.

أما خارج السجن فقد بدت الصورة مختلفة تمام الاختلاف؛ حيث كان الكل يجري على قدم وساق في سباق انتخابات نقابة المحامين وكأننا في ماراثون لا ينتهي، أو في مضمار خيل يقطع أنفاس المتسابقين، لم يكن

المحامون وحدهم منشغلين بالانتخابات، ولكن مصر كلها كانت تترقب وتنتظر المولود الجديد؛ حيث كان في ظن البعض أن المخاض سيسفر عن مجلس قومي يبتعد فيه الإخوان عن سدة المجلس، إلا أن البعض الآخر كان على يقين من أن قطار الإخوان ما زال يسير بقوة الدفع السابقة وأنه سينجح في الانتخابات، لا محالة، لكنَّ التكهنات كلها تقريبًا -بخصوص منصب النقيب- كانت تصب في مصلحة رجائي عطية، فهاهو ذا المحامي الكبير يحظى بتأييد الإخوان المطلق، رغم صدور أحكام بالإدانة في قضية النقابيين، كما أنه في الوقت ذاته يحظى بتأييد الحكومة التي دفعته إلى هذه الانتخابات، أو بالأحرى وافقته على فكرة خوضها، وفوق هذا وذاك حصد تأييدًا واسعًا من العديد من المحامين من شتى الفصائل والتوجهات خلال جولاته الانتخابية، وكاد قمره يكتمل يوم الانتخابات، وفي الناحية الأخرى كان سامح عاشور يحاول لاهثًا أن يلحق برجائي عطية ويقترب من موكبه، إلَّا أن المعادلة بدت شديدة الصعوبة، رغم أن هناك دائرة من دوائر الحكم راهنت على الفتى عاشور ورأت أنه من الممكن أن يقوم بلجم حصان الإخوان في النقابة بسبب العداء التاريخي بينهما، في حين أن رجائي لا يحمل هذا التاريخ من العداء فضلًا عن أنه كان محاميهم الأثير في قضية النقابيين، وهناك تخوف إن نجح أن يضطر إلى سداد فاتورة نجاحه للإخوان؛ مما يمكنهم من أروقة النقابة ويساعدهم على السيطرة على قرارها.

■■■

في خضم تلك الصورة المشحونة بالمنافسة الضارية والمفعمة بالمشاعر المتناقضة حدثني تليفونيًّا عصام سلطان المحامي الذي كان في يوم من الأيام أحد قيادات الإخوان ثم شارك في ثورة فكرية وحركية على قيادات الإخوان ومنهجهم الحركي وأسهم إسهامًا مؤثرًا في توطيد دعائم حزب الوسط في المجتمع السياسي؛ ولذلك نال نقمة الإخوان؛ إذ يكفي أنه يمثل عنصرًا انشقاقيًّا ومشروعًا فكريًّا منافسًا لحركة الإخوان ومزاحمًا لها في وسطيتها.

استفهم مني عصام في المحادثة التليفونية عن إمكانية دعم سامح عاشور في انتخابات نقابة المحامين ضد رجائي عطية، بحسب أن رجائي تنكب عن وعده الذي قطعه على نفسه من قبل، وبلا تردد وافقت على هذا الطلب، وبعد دقائق معدودات عاود سلطان الاتصال حيث كان قد ضرب موعدًا مع سامح عاشور في اليوم نفسه في جروبي عدلي، على أن يكون اللقاء في تمام الساعة العاشرة ليلًا، كانت الميزة التي تميز جروبي عدلي أنه بدءًا من الساعة العاشرة ليلًا يكون قليل الرواد، خاصة أننا في فصل الشتاء، وهو ما يعطي لهذا اللقاء قدرًا من السرية والخصوصية.

■■■

وفي الموعد المضروب سبقنا عصام سلطان إلى المكان، أما أنا فقد ذهبت بعده بهنيهة وكان في رفقتي عاطف عواد الذي كان لا يزال ملتحمًا بالإخوان لم تنفصم عراه عنهم بعد رغم وسطيته، وخالد شقير الذي كان لايزال في قلب الإخوان عضوًا عاملًا ومسئولًا عن شُعبة من شُعب مصر الجديدة، أما



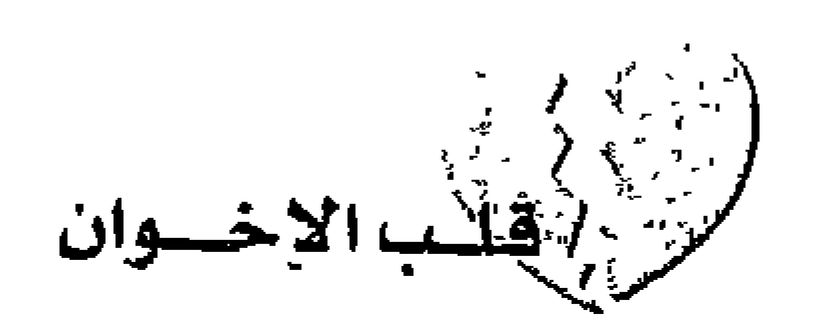
سامح عاشور فقد حضر بعدنا مباشرة ومعه المحامي الناصري البورسعيدي ياسر حسن الذي كان مرشحًا للعضوية في هذه الانتخابات، والحق أن ياسر حسن كان هو كما علمت فيما بعد فاتحة الاتفاق، إذ كان زميلًا لعصام سلطان في الجامعة وعضوًا معه في اتحاد الطلاب، وقد سمحت أواصر الصداقة فيما بينهما بأن يتحدثا معًا بشأن الانتخابات المرتقبة، وتطور النقاش فيما بينهما حتى قام ياسر حسن بالتنسيق بين عصام سلطان وسامح عاشور، وكان من ناتج هذا التنسيق هذا اللقاء الذي ترتب عليه الانقلاب الكبير؛ ذلك الانقلاب الذي دخل سامح بمقتضاه إلى التاريخ بعد أن كاد يخرج من صفحات الواقع النقابي والواقع السياسي.

استمرت الجلسة ساعة من الزمن، وقد كنت حريصًا غاية الحرص بعد اللقاء على تدوين أحداثه وتفصيلاته ودقائقه في مفكرتي الخاصة؛ حتى لا تقع أي شاردة من شوارده من ذاكرتي المثقلة بالأحداث أو من ذاكرة الحاضرين، وفي اللقاء عرض سامح عاشور علينا عروضًا كثيرة لكي نوافق على دعمه، وكان من عروضه أن يجعلني بعد نجاحه عضوًا بالأمانة العامة لاتحاد المحامين العرب، ويجعل عاطف عواد المسئول الفعلي عن لجنة الشباب بالنقابة.. وعندما انهالت عروض سامح عاشور - بدأب ذلك الغريق الذي وجد أمامه فجأة طوق نجاة بعد أن أيقن بالهلاك - قلت له بوضوح: دعك يا عزيزي من تلك الهدايا. فما أنت بابا نويل وما نحن زمرة من الأطفال. كل ما في الأمر أننا قد نوافق على دعمك دون مساومة أو مقايضة ولكننا نحتاج إلى بعض الإيضاحات سنطرحها عليك وستجيب عنها؛ فإن راقتنا إيضاحاتك

فسندعمك، وإلَّا فلكل منا طريقه؛ وكان من البديهي أن يسألني عاشور عن كنه تلك الإيضاحات، ولكنني أرجأته إلى جلسة أخرى حددت له موعدها ومكانها.

■■■

وكان اللقاء الثاني بعد ثلاث ليالٍ في مكتب خالد شقير بمصر الجديدة، وقد غاب عن هذا اللقاء صديق مقرب مني ومقرب من الإخوان، وهو عبدالسلام دياب، دون سبب - رغم أنه كان أحد الذين قاموا بالتنسيق بيني وبين سامح عاشور - إلا أنه ضم بعض شخصيات من الإخوان الذين كانوا مع مختار نوح في البدايات وكانوا من أكثر الشخصيات تأثيرًا في استمرار مسيرة الإخوان بنقابة المحامين، وهم أحمد ربيع غزالي، ومصطفى زهران - صاحب الصيت الذائع في العمل النقابي وأحد أشهر الشخصيات النقابية الإخوانية - فضلًا عن خالد شقير صاحب المكتب وعاطف عواد وعصام سلطان الإخواني السابق وأحد مؤسسي حزب الوسط، ومن الجيل الذي جاء عقب هؤلاء محمد عبد الفتاح المحامي الذي ينتمي إلى إخوان منطقة الشرابية، وكان من القلائل في الإخوان ممن يحفظون القرآن الكريم، وكانت له جلسات يقوم فيها بتدريس أحكام تلاوة القرآن للإخوان وكان فوق هذا خطيبًا لمساجد عديدة يسيطر عليها الإخوان، الأمر الذي أعطى له نفوذًا نفسيًّا ودينيًّا على قطاعات عديدة من المحامين الإخوان، وكان في اللقاء أيضًا أحمد حسن جمعة المحامي الإخواني الذي ينتمي إلى منطقة مصر



الجديدة، وهو شـخصية حركية وفاعلة ومن الشـخصيات صاحبة التأثير في أوسـاط شـباب الإخوان إلَّا أنه ترك الإخوان بعد هذا اللقاء بعامين إلى غير رجعـة، وجلـس مسـتمعًا في اللقاء أحـد المحامين العاملـين في مكتب خالد شـقير اسـمه عليش، وقـد كان ينتمي بشـكل هامشي للإخـوان؛ فقد كانت رتبتـه الإخوانية هـي «مؤيد»، وضم اللقـاء أيضًا ثلاثة من شـباب الإخوان مـن المحامين الذين كانوا يحملون في نفوسـهم وقلوبهـم اعتراضات جمة على المنهج السياسي لجماعة الإخوان وموقفهم السلبي من القضية العسكرية التي ذهب نوح وآخرون ضحيتها، وكانت كلماتهم التي صدعوا بها في وجه بعض قيـادات الإخوان وقتها هي: هل ذهـب مختار نوح ومن معه ضحية المحكمة العسكرية؛ أم أنهم ذهبوا جميعهم ضحية الإخوان؟! ولأنه لا شيء يبقى على حاله فقد عاد هؤلاء الشـباب بعد ذلك إلى حضن الجماعة بعد أن تم تشـديد النكير عليهم وتضييق الخناق على حركتهم.. وكل نفس لها وسعها.

ظل اللقاء مع سامح عاشور منعقدًا لثلاث ساعات، وكانت بدايته بضع كلمات قلتها عن سـبب اللقاء وأهدافه واعتراضات البعض منا على شخص سـامح عاشـور وتاريخه وريبتنا في وعـوده التي يوزعها علينـا وعلى آخرين، وشـكوكنا حول قدراته النقابية، ثم تركت الحديـث للحاضرين فانهال عليه مصطفى زهران وأحمد ربيع بوابل من الاتهامات، منها أنه كان في تاريخه كله معاديًا للإخوان وحجر عثرة في طريقهم، وأبدى ربيع وزهران خشـيتهما من أن يدير عاشور النقابة بعقلية دكتاتور ويد مستبد - كما قال أحمد ربيع - ودافع عاشور عن نفسه ورفض اتهامه بمعاداة الإخوان بصورة مطلقة، وإن لم ينكر

اختلافه مع فريق منهم، إلَّا أنه أبدى استعداده للتعاون المثمر مع أي فصيل مستنير يتبنى خطابًا عاقلًا ويقبل التعاون مع الآخر، وأنه من أجل هذا يمد يده لفريق نوح الذي ذكر أنه أعقل الإسلاميين قاطبة، أما عن قدراته النقابية فقال وهو يتحسس الكلمات: يجب عليكم أن تمنحوني الفرصة لتحكموا على أدائي أولًا. ثم دخل عاشور سريعًا إلى منطقة الوعود وكاد يقسم أنه إن نجح نقيبًا فسيعطي المساحة الكبرى في لجنة الشريعة الإسلامية لمصطفى زهران وأحمد ربيع وسيوافقهما على كل المشروعات النقابية التي سيقدمانها سواء كانت معسكرات أو رحلات أو ندوات، وحاول في عباراته أن يكون لينًا «ناعمًا» كألين ما تكون الليونة، إلا أن زهران وأحمد ربيع ظلَّا على هجومهما الضاري رغم كثرة وعود عاشور وتنوعها، والحق أنها كانت مواجهة حادة أخرج فيها كل واحد من فريق الإخوان ما في قلبه، لكنَّ «سامح» راوغ وناور ابتغاء كسب تأييد هذا الفريق، وكان عصام سلطان وعاطف عواد يتدخلان في كثير من الأحايين لترطيب الأجواء المشتعلة، وانتهى الجزء الأول من اللقاء على خير حيث بدأ فريقنا - وفقًا لاتفاق مسبق بيننا - يطرح عبارات مطمئنة لسامح، وهنا استطاع الرجل أن يلتقط أنفاسه بهدوء، وكان الجزء الثاني من اللقاء يدور حول كيفية دعم عاشور، وليس من شك أن الصعوبات الجمة التي كانت تواجه المساجين من الإخوان في محبسهم دفعتني إلى استثمار رغبة عاشور في النجاح كنقيب في تذليل تلك الصعوبات عن طريق علاقات عاشور المتعددة، فكان أن تحدثت عن ضرورة أن يقوم عاشور بدعم مختار نوح في سجنه بجميع الوسائل، وطلبت منه أن يستخدم

صلته بالأمن كي يتم توفير الراحة لنوح والذين معه في السجن، ثم أهمية أن يتم إظهار هذا الدعم بعد ذلك في جميع الأجهزة الإعلامية ونشرها على نطاق واسع في أوساط المحامين، وكان مما قلته وقتها: إن هذا التصرف من عاشور سيساعدنا جميعًا على اجتلاب الكثير من الأصوات الإخوانية وتوجيهها ناحيتك يا أستاذ سامح، فضلًا عن أنه سيساعدنا على جر قاطرة المتعاطفين مع الإخوان والمتحمسين لنوح وتاريخه النقابي إلى اتجاهك، وبغير هذا لن نستطيع أن نحرك كتلة أصوات الإخوان الجليدية ولو بمقدار خردلة، كما أننا لن نستطيع اجتذاب أصوات المتعاطفين التي من شأنها وحدها أن تغير نتيجة الانتخابات حتمًا إلَّا بهذه الوسيلة.

لمعت عينا عاشور من الفرحة ووعد بأن يقدم لنوح والآخرين في محبسهم ما يتحدث به الركبان، وانتهى اللقاء بعد أن اتفقنا على التواصل عبر الهاتف وأن ما لا يجوز الإفصاح عنه عن طريق الهاتف سيكون توصيله عن طريق عبد السلام دياب الغائب عن اللقاء بغير عذر ودون سبب ظاهري، رغم أنني علمت وقت اللقاء أن «دياب» كان مع عاشور في لقاء ما قبل حضوره إلينا ثم اعتذر له عن عدم الحضور معه.

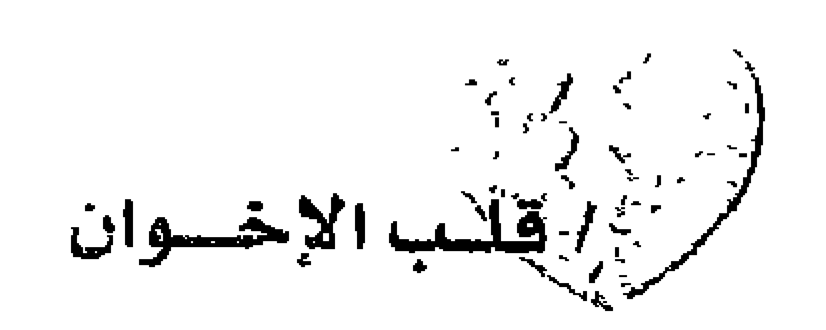
ورغم أن اللقاء انتهى وفقًا لما نصبو إليه فإن قلبي لم يكن مستريحًا؛ فقد أحسست أن هناك شيئًا ما يدور في الخفاء لا أعلمه ولا أدري ما هو، لا شك أن غياب عبد السلام دياب عن اللقاء أصابني بالدهشة؛ ذلك أنه كان أكبر المتحمسين للاتفاق مع عاشور، وقد كان غيابه مثيرًا للحنق والغيظ حتى لعاشور نفسه، كما أنه لم يكن في الترتيب أن يحضر معنا الأخ عليش المحامي

الإخواني الذي يعمل بمكتب شقير، وكان أثناء جلوسه يتحسس بين الفينة والفينة جيوب الچاكيت الذي يرتديه، وكأنه يضع فيه شيئًا ثمينًا.. ورغم أنني طردت الهواجس التي انتابتني فإن هواجسي لم تتوقع قطُّ أن يكون اللقاء بكامله مسجلًا بالصوت، لم يدر بخلدي أن «عليش» كان جاسوسًا إخوانيًا رصد اللقاء وسجله ثم ذهب بالتسجيل إلى محمد طوسون، وكأن هناك في الإخوان من صنع جهازًا أمنيًا يضارع مباحث أمن الدولة، هو مباحث أمن الدعوة.

■■■

وقر في قلبي أن أخفي خبر تأييد مجموعتنا لعاشور عن مختار نوح ومجموعة الإخوة المحبوسين معه، فمن ناحية خشيت أن يقوم نوح بالتأثير على من هم معي ليلزمهم أدبيًا بعكس اتجاهي، ومن ناحية أخرى خشيت مغبة هذا التأييد على مختار نوح؛ فيسحب منه رصيده المتبقي داخل الإخوان، ونقلت لأحمد ربيع ما وقر في قلبي فصدَّقني على رأيي واتفقنا معًا على كتم خبر هذا المشروع عن جميع الإخوة المسجونين، ولكن ما تم كتمانه عمن هم في داخل السجون سرعان ما تسرب إلى من هم في قيادات التنظيم.

فوجئت عصر اليوم التالي للقاء سامح بأحد الإخوة المحامين من منطقة شرق القاهرة يحضر إليَّ في مكتبي يطلبني حثيثًا وكأن أنفاسه تكاد تتقطع وأخذ يلومني ويعاتبني على ذلك الذي وصل إليهم فوقع عليهم - كما قال - وقع الصاعقة، واستطرد حزينًا إلى أن هناك من قص أثر لقائي بسامح وتنصت



عليه وسجل - عن طريق جهاز التسجيل - تفصيلات كل شاردة وواردة فيه، وحملها حملاً إلى أذن محمد طوسون الذي يزمع توصيلها إلى قيادات الإخوان، إلَّا إذا ذهبت إليه مقدمًا فروض الولاء والطاعة، وكان مما قاله أن ما حدث مني يدخل في باب خيانة القرار الإخواني، وأن من قام بالتجسس قام بعمل مجيد للدفاع عن الدعوة ضد أعداء الدعوة؛ إذ إن عملنا يصنف دعويًّا بأنه إعلان بالعداء لا يقبل إلا الإقرار به والتطهر من خطاياه بالتوبة عند القيادات الإخوانية، وأضاف منهيًا الحوار من جانبه أن ذلك الجاسوس قصاص الأثر -الذي رفض ذكر اسمه لي - فتح هاتفه المحمول في خط ساخن مع طوسون ليسمع ذلك الأخير في بث مباشر كل جوانب الحوار، وأن طوسون هاله ما سمعه، وأنه من هول هذا الاتفاق عقد العزم على أمور يصعب توقع نتائجها؛ لأن فريقنا - كما قال الأخ - بما فعله قد شق عصا الطاعة، ورغم أن ما قاله لي ذلك الأخ بعث في نفسي مساحة رمادية من الحزن المغلف بالغضب من أولئك الذين يستحلون الحرام ويتجسسون ويرتكبون المعاصي وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، بل في ظنهم أنهم يتقربون لله بمعصيتهم هذه التي يرونها كأنها أم الطاعات؛ لأنها تحافظ على كيان التنظيم الذي أصبح عندهم مساويًا للإسلام وأكاد أسمعهم وهم يدندنون ليل نهار «إن المحافظة على التنظيم محافظة على الإسلام؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به هو واجب».

لم أرد على الأخ الذي كان حريصًا في ظاهره على أن يعود بي إلى حظيرة الطاعة، ولم أعقب إلا بقولي (جزاك الله خيرًا)؛ ثم ختمتُ بإيماءة خفيفة وابتسامة حانقة انطلقت من حشاشات مشاعري التي أنبأتني بأن ما يحدث من الإخوان هو علامة فارقة في تاريخهم، فقد انقلبوا من جماعة دعوية إلى

مؤسسة أمنية تضارع «الجستابو»، وأن هذا الانقلاب انطلق من قلب الجماعة فقلبها، وما سُمي القلب قلبًا إلا لأنه يتقلب.

وعلى مدى الأيام السابقة على الانتخابات في مرحلتها الأولى وجدت أمرًا عجبًا، فقد أخذ عدد من الإخوان المحامين ممن لم تكن لهم سابقة علاقة قوية بـ «محمد طوسون» والذين معه يترددون على مكتبي بشكل مستمر يطلبون مني النصح ويسألونني عن أشياء متعلقة بالانتخابات ويجادلونني في حق الإخوان في خوض الانتخابات، مثلهم مثل أي فصيل سياسي، وكانت المناقشات تدور بيننا لساعات.. وأذكر أن هذه التجربة أهدت إليَّ بعض الأفكار التي لم تكن قد تبلورت في صورتها النهائية بعد، ومن هذه الأفكار قلت لأحد الإخوة في زيارة من تلكم الزيارات حيث جاء يسألني النصيحة: لا يجوز لجماعة دعوية مثل جماعة الإخوان أن تقدِّم العمل السياسي التنافسي على العمل الدعوي والعمل الإصلاحي؛ كونه يتناقض مع تركيبتها الدعوية ويتضاد معها، وقد ظهر في العقود الأخيرة أن الجماعة تقدم العمل السياسي التنافسي على العمل الدعوي وتهتم به أيما اهتمام.

فقال وهو يتصنع عدم الفهم: كيف ذلك؟ أنا أرى أننا نقدم الدعوة على أي شيء آخر؛ قاطعته قائلًا: صبرًا يا أخي.. دلائل ما أقول كثيرة، أما الاهتمام بالعمل السياسي التنافسي على حساب العمل الدعوي فقد أصبح الهم الأكبر الذي يؤرق الفاهمين داخل الجماعة.

قال الأخ: ولكن حسن البنا مارس السياسة.

قلت بأناة: إذا كان حسن البنا قد مارس العمل السياسي وخاض الانتخابات البرلمانية مرتين في الأربعينيات من القرن العشرين؛ فإنه أدرك مغبة تعريض الإخوان للعمل السياسي، وحاول قدر جهده أن يعيد الجماعة إلى حظيرة «الدعوة» الخالصة ولكن الجماعة لم تترك من وقتها فكرة مزاولة العمل السياسي، فاصطدمت عن طريق مرشدها الثاني حسن الهضيبي برجال الثورة واعترف الكثير من كتابات الإخوان بخطأ الهضيبي الأب في إدارة الأزمة مع رجال الثورة، ثم - لم تلبث حركة الإخوان في عهدها الجديد - خاصة من بداية عهد حامد أبو النصر - أن تتحول إلى حزب سياسي تنافسي يحمل راية المواجهة الانتخابية ويعادي كل الفصائل والأحزاب السياسية القائمة.

قال الأخ - وكأنه يناقش -: ولكن كيف نترك الانتخابات؟ المواجهة الانتخابية في حد ذاتها دعوة.

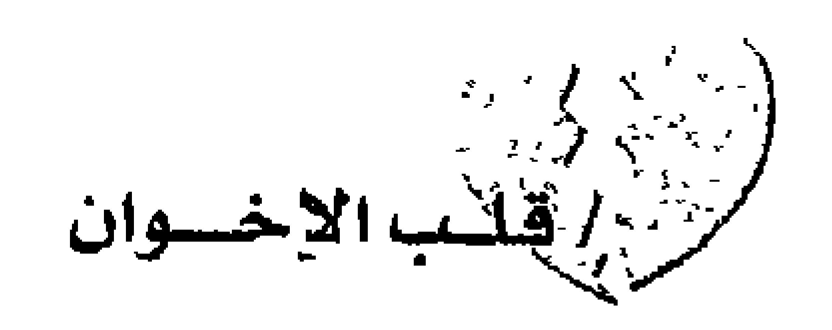
قلت محاولًا إنهاء الحوار: فكرة المواجهة الانتخابية - وإن كانت تصلح للأحزاب السياسية - رفضها الإخوان كحركة «دعوة إصلاحية»؛ فرفضت أن تتحول إلى «حزب» في الوقت الذي صممت فيه على «ممارسات الحزب» للسياسة؛ فوقعت في تناقض واضح وهو التصميم على الثبات على شكل الجماعة ورفض شكل الحزب، إلّا أنها سعت إلى الممارسة الحزبية، بما يستتبعه هذا الأمر من خوض الانتخابات في جميع المجالات ومزاحمة الحكومات القائمة والأحزاب المختلفة؛ وهو ما يؤدي إلى تأليب هذه الحكومات والأحزاب على الإخوان، والإشكالية الكبرى التي تتفرع من هذا الخلط هي أننا - بحسباننا أصحاب دعوة وأصحاب حركة إصلاحية - نسعى دائمًا إلى

دعوة الناس للمنهج الوسطي للإسلام وإلى كسب ود الجماهير، وإلى مخاطبة النخب السياسية والفكرية بما يقربها من فكرة شمولية الإسلام، ثم إذا بنا في الوقت نفسه نسعى إلى المنافسة الانتخابية معها - بما تخلقه من عداوات - وهو ما يترتب عليه استنفار هذه القوى ضد الدعوة والحركة الإصلاحية، أنا لا أرفض خوض الإخوان الانتخابات بصفة مطلقة، ولكن لماذا خوضها بأغلبية؟ وما الذي سنستفيده من تلك الأغلبية؟ ألا يكفي أن نخوض انتخابات نقابة المحامين - مثلاً - أو غيرها من الهيئات بعدد محدود لا يزيد على أربعة أفراد؛ فنحقق بذلك معادلة الوجود بالمجلس وكسب ود الفئات السياسية أو النقابية المتنافسة ونبتعد نحن بذلك عن منافسة من ندعوهم؟

وهنا أبدى الأخ الزائر سخطه ورفضه التام لفكرة خوض الإخوان للانتخابات، فقلت له معلقًا على سخطه وحنقه: من يريد خوض الانتخابات من الإخوان بأغلبية كأغلبية الإخوان حاليًا في نقابة المحامين إما أنه جاهل لا يعلم؛ وإما أنه أحمق لا يفهم، وفي كلتا الحالتين هو لا يدرك مغبة عمله على الدعوة.

أما أنا فقد كنت سليم الطوية خالي البال عندما كنت أبدي هذه الأقوال، وكيف لا أكون كذلك وأنا أتعامل مع من يرفعون شعار (الرسول قدوتنا)؟ كنت لا أدرك وقتها مغبة أفكاري التي أطرحها للإخوان الذين كانوا يسألونني النصيحة، فقد كانت هذه اللقاءات يتم تسجيلها وحملها لمحمد طوسون، وكان طوسون بدوره يقدمها للمرشد؛ ليوهمه بأنني أقود حركة تحريضية ضد قائمة الإخوان في الانتخابات.

■■■



بدأت البشائر عندما اتصل بي الأستاذ فلاح سرور، أحد القيادات الكبيرة للإخوان في منطقة مدينة نصر، وطلب - على غير عادته - مقابلتي لأمر عاجل وبشكل فوري لأمر شديد الأهمية، وبعد أن أغلقت الهاتف حدثتني نفسي بأن ريح الجنوب لها أن تهب وتنذر بعواصفها العاتية. وحدث ما توقعته فقد أخبرني الأستاذ فلاح أن هناك شكوى مقدمة ضدي للمرشد الحاج مصطفى مشهور من محمد طوسون، وأن الشكوى مؤيدة بالأدلة والمستندات والتسجيلات الصوتية.. واستطرد قائلاً: إن موضوع الشكوى هو تحريضي ضد قائمة الإخوان التي ارتضتها القيادات بالإضافة إلى اتفاقي مع سامح عاشور، رغم أن تاريخ عاشور مُعادٍ للإخوان، وأن هذا الاتفاق ينقض اتفاق الإخوان مع رجائي عطية، وأن السمع والطاعة مقدمان على ما سواهما؛ لأن قيمة الفرد تكمن - وفقًا لما قال - في قدرته على السمع والطاعة للقيادات.

قلت للأستاذ فلاح بعبارات مقتضبة مبرراتي التي دفعتني للاتفاق مع سامح عاشور، وأكدت أن مسألة الاختيار يجب أن تخضع للقواعد الشرعية، وأنني إذا رأيت أن اختيارات المحامين لا بد من نقضها فليس هناك من قوة تحول بيني وبين هذا، وأكدت له أنني لم أحرض أحدًا ضد قائمة الإخوان ولكنني فقط كنت أتحدث عن مبدأ خوض الانتخابات نفسه وجدواه، وهذا من حقي، فلا سلطان لأحد على ما في قلبي، ورغم كلماتي الواضحة فإن الأستاذ فلاح أخذ يلح عليَّ - بطيبة الأخ الذي يريد أن يبعدني عن المتاعب - في ترك الأمر كله، بل ترك العمل مع المحامين والتفرغ للمنطقة؛ لأن العمل مع المحامين في تقديره يجعل في القلب قسوة.. وقال إن الإخوان في

حقيقة الأمر لا يعتبرون المحامين من الإخوة مهما تكن درجة الأخ منهم؛ لأن المحاماة تورث صاحبها جدلًا غير محبب ورغبة في الانتصار للرأي، وإنه لذلك يحتاج إلى جهودي الدعوية في منطقة مدينة نصر لنرتقي بالعمل التنظيمي فيها، وإنه سيسعى بكل قوته هو وإخوانه لوأد الشكوى في مهدها شريطة أن أتفرغ له في المنطقة.

لم تترك كلمات الأستاذ فلاح أثرًا في نفسي ولو بمقدار حصاة، وتركته لأذهب إلى لقاء بعض المحامين من المتعاطفين مع الإخوان، وبعض المنتسبين الجدد للجماعة من إحدى المحافظات، وكانت هذه اللقاءات تتم بشكل يومي مع قطاعات متنوعة من المحامين لخلق مساحة رفض في نفوسهم تجاه تأييد الأستاذ رجائي عطية ولتهيئة المناخ لسامح عاشور، وكان أنصار موقفي يتزايدون يومًا بعد يوم خاصة أن صحيفة «صوت الأمة» نشرت قبل الانتخابات بأيام خبر قيام عاشور بحل المشاكل التي كانت تواجه مختار نوح والإخوان المسجونين معه في سجن مزرعة طرة، والتي لم يستطع الأستاذ رجائي عطية التصدي لها أو حلها هو أو غيره.

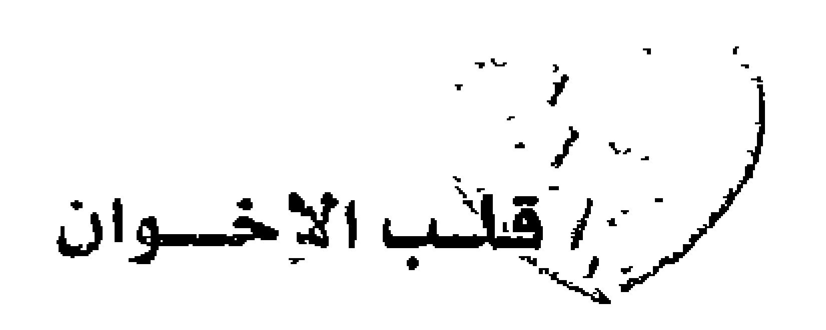
وللمرة الثانية أتت ريح الجنوب - بعد تزايد الأنصار - بما لم يرد على بالٍ وبما لم يحدث في تاريخ جماعة الإخوان من قبل.

الفصل السادس

إعلان الأحكام العرفية الإخوانية

«شتان بين من يطلب الحق فيخطئه؛ وبين من يطلب الباطل فيصيبه.. الأول أخطأ والثاني أصاب، ولكن خطأ الأول صواب؛ لأنه اجتهد للحق؛ وصواب الثاني خطأ؛ لأنه انتصر للباطل».

تمت انتخابات المحامين في مرحلتها الأولى وتأجلت أسبوعًا لعدم اكتمال الجمعية العمومية؛ حيث قرر المستشار المشرف على الانتخابات تأجيلها ليوم 24/ 2/ 2001، وفي صباح اليوم التالي وجدت من يطرق باب بيتي.. كان الطارق هو المهندس أحمد شوشة الذي كان في وقت سابق عضوًا معي في أسرتي الإخوانية حينما كان مسئول منطقة مدينة نصر ثم أصبح فيما بعد مسئول قسم التربية داخل التنظيم عن محافظة القاهرة.. أثارت زيارة أحمد شوشة لي - دون سابق موعد - دهشتي؛ إذ كانت صلتي به قد تباعدت منذ فترة ليست بالقريبة خاصة بعد أن شغلته مسئولياته التنظيمية التي تدرج



إليها وصعد سلالمها درجة درجة، ولم يعد هناك بالتالي متسع من الوقت للتواصل المباشر بيننا.

كان أحمد شوشة قيادة إخوانية بارعة في العمل التنظيمي ومتطلباته وبيروقراطيته، وقد ارتبط بالمهندس خيرت الشاطر ارتباطًا وثيقًا مذ كان طالبًا في كلية الهندسة جامعة المنصورة، وقتها كان خيرت الشاطر معيدًا بهذه الكلية وكان قد بدأ يخطو إلى الوجهة الإسلامية، وبسبب براعة الشاطر وذكائه وثقافته استطاع اجتذاب قطاع عريض من الطلبة إلى ناحيته، وكان شوشة من هؤلاء الطلبة الذين تعلقوا بأهدابه، وتوثقت عُرى أحمد شوشة بالإخوان، خاصة أن صلات ما قامت بينه وبين عدد من كبار الإخوان بمحافظة دمياط التي ينتمي إليها حيث ارتبط تنظيميًّا بالحاج أسعد زهران مسئول الإخوان بهذه المحافظة التليدة إخوانيًّا، كما أنه - الحاج أسعد زهران - أحد القيادات التاريخية للجماعة وأحد أكثر المرتبطين تنظيميًّا بالحاج مصطفى مشهور، وبعد أن التحق شوشة بالإخوان وسبر غورها أصبح من المرتبطين بالشاطر تنظيميًّا خاصة بعد أن جمعتهما منطقة واحدة هي منطقة مدينة نصر، وبعد أن أصبح الشاطر ملء السمع والبصر وصاحب قرار داخل الإخوان - أصبح أحمد شوشة بدوره صاحب مواقع قيادية فيها؛ فأصبح مثلًا مسئول منطقة مدينة نصر ثم مسئول قسم التربية عن محافظة القاهرة.

أدركت من أول وهلة أن هذه الزيارة - التي باغتتني بها شوشة - وراءها ما وراءها، فقلت في نفسي: «وعند جهينة الخبر اليقين».

أخـذ المهندس شوشـة في حديثه معي يطيل في مقدمـات أدركت منها أن هناك مستجدات من شأنها أن تعكر الماء حتمًا، ولكنني تركته يتحدث بلكنته الدمياطية المحببة دون أن أقاطعه حتى صك أذني بخبره الذي جاء من أجله: صـدر قرار من المرشـد يـا أخي الحبيـب بمنعك من الخروج مـن بيتك حتى تنتهي الانتخابات.. وساد الصمت بيننا؛ إذ سلب الذهول عقلي للحظة.. ثم ما لبثت الدهشة أن غلبتني حتى سيطرت على فؤادي ثم انقلبت الدهشة إلى ابتسـامة، وكادت الابتسـامة تتحول إلى قهقهة كبيرة ترج حوائط البيت لولا أن غالبت نفسي وتحكمت في انفعالي واعتصمت بالصمت حتى لا تفضحني تلـك القهقهات المكتومة، وفي الوقت الذي كنـت فيه أغالب ضحكاتي كان المهندس شوشـة ينظر إلى وجهي متفرسًـا عله يرى أثر الخبر الذي ألقاه على سـمعي، وبعـد فترة مـن الصمت اسـتطرد المهندس شوشـة قائـلًا: أعلم يا أخي الحبيب أن هذا القرار ظالم وليس له سـابقة في تاريخ الإخوان، أنا وكل إخوانـك في مدينة نـصر نرفضه؛ لكننا جميعًـا لا نملك شـيئًا إزاء هذا القرار ولا نسـتطيع إلا السـمع والطاعة؛ ثم أردف وكأنه يبرر القرار: ماذا نفعل في إخوانك من المحامين؟ لقد أوصلوا للحاج مصطفى أنك كنت تحارب قائمة الإخـوان، وقالوا لـه إن هذه الحرب من شـأنها أن تؤثـر في نجاحهم؛ وأنت تعلـم أن الحاج مصطفى مريض وليس في إمكانه أن يتحمل الإلحاح، وتحت ضغـط بعض الإخوة أصدر هـذا القرار.. وأكمل قائـلًا: كلنا نعلم أن هناك في الإخـوان من ارتكب موبقات تنجس البحر المتوسـط ومع ذلك لم يصدر ضده مثل هذا القرار، ولكننا نريد هنا في منطقتنا أن نضرب المثل على الالتزام

ونثبت لإخواننا وقادتنا أننا نسـمع ونطيع حتى ولو كان القرار ظالمًا.. وأنت ستضرب لنا جميعًا المثل وستكون قدوتنا في السمع والطاعة وتنفذ هذا القرار؛ خاصة أن مدته سـتة أيام فقط.. وكلنا يا أخي الحبيب يثق في أنك ستسـاعدنا بحسن طاعتك على أن نرد كيد إخوانك من المحامين.

واسـتطرد يشـجعني عـلى الطاعـة: أذكر يا أخـي أنني سـمعت قولاً من أشـياخي في الإخـوان ظل سـاكنًا في فـؤادي، بل اتخذته دسـتور حياتي، هو: الأخ بـين يدي مرشـده كالميت بـين يدي مغسـله يقلبه كيف يشـاء.. وليدع الواحد منا رأيه؛ فإن خطأ مرشده أنفع له من صوابه في نفسه.

اختلطت في قلبي مشـاعر متنوعة، إذ فكـرت أن أقول له ما لي وما لكم؟ كيف طاوعني عقلي أن أنضم لجماعة؛ هذا هو تفكير قائدها الأعلى؟! راودتني نفـسي أن أقول له: قل لمرشـدك إنه حوَّل الجماعـة إلى تنظيم خاص وإنه آن لي أن أمد قدمي لأترككم تنهلون من عسـكريتكم التي قلبتم بها وجه الجماعة.. أفٍّ لكم وما تتبعون.. إلا أنني طردت كل ما اعتمل في فؤادي حيث حدثتني نفسي قائلة: فلأسـايره للنهاية حتى أرى ما في جعبتهم.. ثم قلت له بصوت خفيـض وأنا أصطنع الهدوء: ولكننـي أعمل يا أخي الكريم في المحاماة، ولي مكتبـي الـذي يجب أن أذهـب إليه يوميًّا، وعنـدي العديد مـن القضايا التي يلـزم أن أتابعها وأحضر جلسـاتها بنفسي، وهـذه القضايا هي محض مصالح عامـة لأنـاس ارتبطت معهـم بعقود.. والقـرآن يحضنا على الوفـاء بالعقود؛ فالله سـبحانه وتعالى قال لنا في كتابه الكريم: (أوفوا بالعقود)؛ فكيف أنقطع عـن هـذا؟ وكيف لا أذهب إلى عمـلي الذي هو مصدر دخـلي وقوتي وقوت

أولادي؛ فذهـابي فقـط للمكتـب يضمـن لي دخـلًا ماليًّا من الاستشـارات، أعتبره هو الأساس عندي؟ أيعقل هذا؟!

احتار المهندس شوشـة بطيبته المعهودة في الجواب، ولكنه أمسك بالهاتف واتصل بالمهندس ممدوح الحسيني الذي كان وقتها مسئول منطقة مدينة نصر وطلـب منه أن يسـتأذن الحاج مصطفى مشـهور في أن أذهـب فقط للمكتب ولجلسـاتي في المحكمـة، إلا أن الحاج مصطفى مشـهور لم يـأذن رغم وجاهة الطلـب؛ إذ كان يتصرف وكأنه الحاكم والقائد الأعلى تجاه أحد الجنود الذين خالفوا قواعد العسكرية الصارمة.. وهنا عادت ذاكرتي القهقرَى عندما كنت أخطو قدمًا في سلك الإخوان أثناء وجودي بمنطقة الزيتون في النصف الثاني مـن الثمانينيات عندمـا تم التحقيق مع الأخ عمرو التلاوي - وقد كان وقتها مسـئولًا عن إحدى الشُّـعب الإخوانية - لأنه تجرأ وخرج عن أوامر قيادات منطقـة شرق القاهـرة التي كانت تلـزم الجميع بالتصويـت للحاج مصطفى مشـهور في انتخابات شورى الإخوان!! مع أن فلسفة الانتخابات تقوم على الاختيار الحر لا على التكليف والأمر وإلا فقد التصويت قيمته.. ونظرًا لأن الأخ صدَّق أن التصويت يتم بشـكل حرٍّ فقام بإعطاء صوته لآخر كان يرى أنه يسـتحق أكثر من مصطفى مشـهور فكانت الطامة الكبرى وتم وقفه لمدة عام وتجريده من درجته الإخوانية.

وتذكـرت الأخ فـوزي الجزار المحامـي - رحمه الله - الذي كان شـخصية إخوانية لها حضورها الطاغي والمؤثر في منطقة إمبابة وكان عضوًا بمجلس نقابة المحامـين الفرعيـة بالجيزة.. وحدث أن قامت زوجته في جلسـة مع الأخوات

بانتقاد تصريح سياسي للحاج مصطفى مشهور فوصل الانتقاد عن طريق الجاسوسات لقيادات الإخوان التي طلبت في أمر صارم تجرد من المشاعر من الأخ فوزي تطليق زوجته التي خرجت عن جادة الصواب وانتقدت الحاج مصطفى في جمع من الأخوات!! وعندما رفض الأخ ما طلبوه قامت الجماعة بفصله وحاربته في رزقه وأمرت كل الإخوان بسحب قضاياهم من مكتبه.. (وبعد خمس سنوات مات فوزي الجزار كمدًا يتجرع جحود الإخوة... وقد كان هذا الجحود عنده - كما قال لي قبيل وفاته - أشد قسوة عليه من مرض السرطان الذي نخر في جسده.. ما زلت أذكره وهو يتجرع الحسرة في نزعه الأخير.. حينها قال لي وهو يغتصب ابتسامة مجهدة:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضةً على النفس من وقع الحسام المهند

وبعدها بأيام فاضت نفسه.

توالت هذه الذكريات على خاطري أثناء مفاوضات الإخوة مع الحاج مصطفى مشهور.. وأخيرًا قبل الرجل أن أذهب للمحكمة فقط دون المكتب فقد أقنعوه بأن عندي قضايا هامة يستحيل تركها فوافق بشرط أن يرافقني أحد الإخوة في الذهاب للمحكمة والإياب منها، وأذن الحاج أيضًا - رحمه الله - تكرمة منه أن أخرج من بيتي لصلاة الجماعة على أن يكون ذلك بالمسجد القريب من بيتي! ومن عجب أنني علمت فيما بعد أن قرار حظر الخروج ومنع التجول كان خلفه اثنان من العقليات الأكاديمية العلمية في الجماعة من المتخصصين في علم الجيولوجيا هما الدكتور محمد حبيب والدكتور رشاد بيومي عضوا مكتب الإرشاد!! فهل للجيولوجيا وفروعها علاقة بهذا القرار العسكري؟! هذا أمر ينبغي أن يخضع لتحليل وتنقيب.

لا شك أن هذا القرار العرفي وفقًا للناظر في تاريخ الجماعة هو أعجب وأغرب القرارات التي صدرت في تاريخ الإخوان، ومن قدر الله أن كان هذا القرار من نصيبي، تلقفته كما أتلقف كرة ملتهبة من النار، إلا أن هذه الكرة النارية أكدت لي بما لا يدع مجالًا للشك أن الجماعة انقلبت إلى وجهها الذي كان مستترًا عني وعن كثيرين غيري، كنت قد انضممت إلى الإخوان من أجل نهج دعوي دون أن أحفل ببعض مظاهر تنظيمية تحض على الطاعة؛ إذ ظننت - كما ظن غيري- أن الفهم مقدم على الطاعة وأن الطاعة هي طاعة محبة لا طاعة عسكرة، وأن العمل الدعوي يشفع لطاعة منزوية في قاع الجماعة، ويكفي أن الدعوة تغلغلت في شرايين الجماعة إذ كان ظني أنها جماعة مدنية.. وأظن أنها كانت كذلك إلى أن سيطر عليها ذلك الفريق الذي قال عنه الدكتور السيد عبد الستار المليجي - القيادي الإخواني البارز - فيما بعد (إنهم مجموعة خطفت الجماعة)، وقال عنهم المهندس أبو العلا ماضي (الإخوان طائرة تم خطفها من أفراد التنظيم الخاص).

كان إعلان الحكم العرفي الصادر بمنعي من التجول لمدة ستة أيام داعيًا إلى تعقيب وتنويه المفكر الإسلامي الدكتور محمد سليم العوا في جريدة الأهرام؛ إذ كتب يوم الإثنين الموافق 5/ 3/ 2001 وهو يحلل نتيجة انتخابات نقابة المحامين «وقد وقف تيار إسلامي كله بثقله، وتنظيمه المحكم، في أوساط المحامين يؤيد الأستاذ رجائي عطية، وحين تصرف بعض المحامين المنتسبين إليها في الجولة الأولى على غير مقتضى موقفها المعلن.. طُلِب منهم وامتثلوا!! أن يعتزلوا الناس كافة فيما بين جولتي الانتخابات، ويلزموا بيوتهم حتى لا يؤثر سلوكهم في موقف المحامين الآخرين من الجماعة نفسها».

أسرعت إلى الدكتور توفيق الشاوي أستشيره وأبثه لواعج نفسي وأحكي له ما حدث من جماعته أو بالأحرى ما حدث من جماعتنا، وكنت قد ذهبت إليه قبل وبعد انتهاء المحاكمات العسكرية عدة مرات ووجدت منه استنارة فريدة وحكمة بالغة وسعة أفق، إلا أنني انقطعت عنه منذ آخر زيارة لفترة طويلة لم أره فيها ولم أتحدث معه، وعندما تصاعد دخان الأحداث وصدر المنع من التجول تحرقت شوقًا لإخباره بالمستجدات، حتى أن سيارتي كانت تستبق الزمن وأنا في الطريق إلى بيته وكأنها مثلي تتحرق شوقًا له، أنصت الدكتور بعمقه المعهود، ثم قال: كاد الهلع يصيبني من هول ما سمعت.. يحدث الآن ما تخوفت منه يا بُني.. لقد تم عسكرة الجماعة رغمًا عن أنفها، ثم تمتم قائلًا بصوت مبحوح: وكأنما لم يكن لدي شك أن الجماعة على يد الحاج مصطفى ومن هم على شاكلته الفكرية في طريقها إلى العسكرة.. فهكذا نشأ الرجل وعلى هذا جُبل هو وهم.

قلت له وأنا أضغط على الحروف بصوت خفيض يكاد يرتعش من التوتر: ولكن، ألا يوجد في الجماعة من يقف ضد هذه العسكرة؟ أليس فيهم رجل رشيد؟

قال الأستاذ وقد استصحب في قوله سني خبرته وتجربته: لن يتمكن الإصلاحيون من الوصول إلى ما نصبو إليه إلا إذا حل جيل محل جيل، وهذا أمر يصعب تحقيقه مع تلك المعادلة الفكرية التي اجتاحت قلب الجماعة.. ليس في طوق أحد الآن أن يجري تعديلًا بالشكل التنظيمي المتعارف عليه.. نحتاج يا بُني إلى ثورة تنظيمية وفكرية؛ ثورة تعيد الجماعة إلى قلبها الأصلي..

قلت بشغف: أتقصد ثورة يقودها جيل الشباب من أجل أن يصل إلى المقاعد العليا..؟

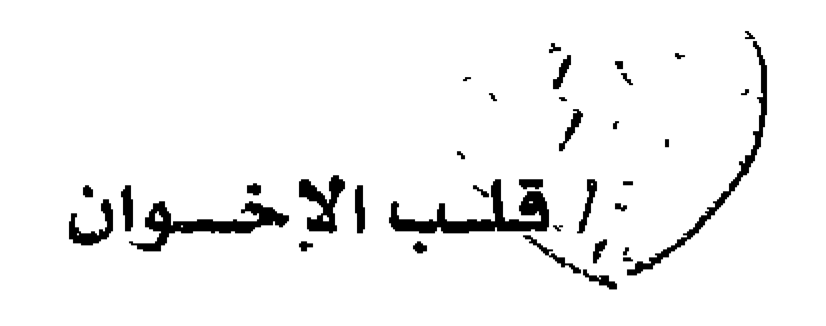
قاطعني: ليس الشباب هنا مرحلة سنية ولكنه نمط في التفكير ومنهج وعقيدة.. فأولئك الذين نقصدهم غرسوا مفاهيمهم الدخيلة في عقول الأجيال الجديدة فأصبح الجديد كالقديم وكأنك تقلب الجورب على وجهه الآخر ولكنه ما زال هو هو الجورب نفسه.

نظرت إلى برواز معلق على الحائط الأمامي يحتوي على صورة نادرة للشيخ حسن البنا وأطلت النظر فيها، ثم قلت له: ألم يُنشئ حسن البنا ذلك النظام الخاص الذي أفرز تلك النوعية التي تقصدها والتي عسكرت الجماعة؟

قال الأستاذ: من الظلم لحسن البنا أن نجعله قديسًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ فقد أخطأ البنا في أشياء كثيرة إلا أن من كتب تاريخ الإخوان من جماعتنا كتبوه بعقلية المريد لا بعقلية الباحث؛ لذلك تتكرر الأخطاء.. البنا أخطأ لا شك في مسألة التنظيم الخاص وقد اعترف لي ولآخرين قبل موته بهذا الخطأ، وقال: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أنشأت النظام الخاص..».

قاطعته بأدب: وأين يكمن الداء الآن يا أستاذي؟ لا أظن أن الجماعة فيها تدريبات عسكرية الآن.

عادت إليه الابتسامة وهو يقول: ليست العسكرة هي التدريب على السلاح، ولكن العسكرة نمط في التفكير وآلية في الإدارة وآيات العسكرة كثيرة.



قلت له وأنا أرشف الشاي: مثل ماذا؟

قـال: دعك من قرار منعك من الخروج من بيتك؛ فهذا كشـف عن الداء العسـكري الـذي أحـاط بالجماعة، ولكن قـرار حظرك هذا لم ينشـئه.. آيات العسـكرة يا عزيـزي تظهر قبل هـذا وذاك في انعدام قنوات الشـورى داخل الجماعة، واختفاء الحوار الجاد، و إفراغ السـاحة الداخلية لمن يقدمون الولاء العاطفـي؛ فهـؤلاء وحدهم هم أصحـاب الحق في الترقي، ممـا منح الفرصة لنـماذج انتهازية خالية من أي قدر مـن الكفاءة لكي يكون لها موقع الصدارة في الجماعـة في كافـة التشـكيلات، وها هـم أولاء يمنعونك مـن الخروج من بيتك؛ لأنك اختلفت معهم في الرأي.

قلـت مؤكـدًا: أرى أيضًا يا أسـتاذنا الحبيـب أن الشـكل التنظيمي يقترب من الأشـكال العسـكرية، فعندنا قيادة وجنود، كتائب ومخيمات ومعسكرات، ومفاهيم ترفع من شأن الطاعة والثقة وكأننا جحافل من الأمن المركزي.. فهل الأمر بحاجة لهذه العسكرة؟ هل نحن في مواجهة مع استعمار؟ لسنا يا سيدي الأسـتاذ كتائب شـبه عسـكرية، المفترض أننـا جماعة مدنية دعويـة فكرية ولن نحصد من العسكرة إلا القمع والمواجهات الأمنية والاستغراق في خصومات لا طائل من ورائها، و لم نعد قادرين على تحمل كلفتها الباهظة.

قال الأسـتاذ معقبًا: لقد قال لهم المرحوم محمود عبد الحليم(*) مثلما تقول

(*) الأسـتاذ محمـود عبد الحليم هـو أحد أفراد الرعيـل الأول من الإخوان وهو صاحب أشـهر كتاب في تاريخ الإخوان وهو (الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ).

الآن، وكان جزاؤه الإبعاد عن أي موقع، وكان التلمساني - رحمه الله - يؤمن بهذا ولكنهم أحكموا الخناق على الجماعة واستلبوها لأنفسهم، وأنا نفسي أين تراني؟ رغم تاريخي وسبقي في الجماعة فإنني أجلس في ضفة وهم يجلسون في ضفة أخرى، وما ذلك إلا لأنني أؤمن بغير ما يؤمنون به.. أنا صاحب عقلية مدنية وهم أصحاب عقلية عسكرية.. وهنا اختنق صوته أو كاد وقال وهو يحاول أن يرفع صوته: ها هي الأيام تؤكد أن الجماعة قد تم خطفها وعسكرتها.

بعد انصرافي من عند الدكتور عقدت العزم على رفض قرار حظر التجول؛ إذ ليس هناك مبرر يدعوني إلى قبول مثل هذا الاستبداد.. إلا أن اتجاه تفكيري تغير عندما أخبرني أحد أصدقائي من المحامين الإخوان عن أمر نوى أن يفعله محمد طوسون، فقلت في نفسي آن للرمح أن يرتد إليهم.. وفي المساء، ذهبت للمهندس ممدوح الحسيني في مكتبه الهندسي بمدينة نصر وكان عنده وقتها المهندس أحمد شوشة وقلت لهما بعد أن أضمرت ما في نفسي: سأطيع القرار وسأنفذ ما طلبتما مني. فاستبشرا خيرًا وقبّلاني.

■■■

كان صبح اليوم التالي قد أوشك على الرحيل حيث بدأ في سحب بساطه الذي تغلفه برودة محببة، ولم تكن الشمس قد توسطت السماء بعد حينما أمسكت بالهاتف وحدثت المهندس ممدوح الحسيني :

أخي الكريم، أريدك أن تمر عليَّ بالبيت لأمر غاية في الخطورة.

ــ على الرحب والسعة أخي الحبيب، سأمر عليك إن شاء الله قبل صلاة العصر ولك أن تتحدث معي بما شئت ثم سنذهب بعد حديثنا لصلاة العصر في مسجد موسى بن نصير القريب من بيتك إن شاء المولى عز وجل.

ــ جزاك الله خيرًا.

وسرعان ما حضر المهندس الحسيني قبيل موعده المضروب يُبْدي بحميمية واضحة ومحبة زائدة رغبته في الاستماع لما عندي.

نزح المهندس ممدوح الحسيني إلى مدينة نصر من منطقة حدائق القبة حيث كان مسئولًا عنها وما إن حلَّ برحله إلى مدينة نصر حتى أصبح المسئول الأول عنها، وكان أكثر ما يميز المهندس الحسيني أنه يحمل قدرًا من العلم الشرعي فقد تخرج في هندسة عين شمس في أوائل السبعينيات، ثم سافر إلى المملكة العربية السعودية للعمل، وهناك التحق بالإخوان وعاد إلى مصر ليلتحق بعد ذلك بالأزهر الشريف ويتخصص في أحد العلوم الشرعية وبذلك جمع بين تخصصين... الهندسة والعلوم الشرعية، ولم تمر أشهر على عودة الحاج مصطفى مشهور من خارج البلاد عام 1986 بعد خمس سنوات من الغربة حتى استطاع استقطاب العديد من الشباب إليه والذين كانوا معه بمثابة فرسان المعبد، كان المهندس ممدوح الحسيني هو أحد هؤلاء الفرسان من الشباب الذين تقاطروا خلف مشهور يرفعون سيوفهم التنظيمية في مواجهة كل من يريد أن يقوِّض أركانهم.

بعد عبارات الترحيب المعتادة قلت للمهندس الحسيني وأنا أقدم له كوب

الشـاي وقطعة الكيك: لقد عرفت من بعض إخـواني من المحامين الإخوان أن محمد طوسـون ومعه بعض الإخوة المحامين من فريقه سـيقدمون عقيب الانتخابات شـكوى جديدة ضدي للمرشـد وسـيدَّعون فيهـا أنني خالفت قـرار الحاج مصطفـى المتضمن منعي من الخروج من بيتي وسـيزعمون أنني خرجت وذهبت للنقابة يوم الانتخابات ووقفت أدعو ضد قائمة الإخوان!! فماذا ترى يا أخي؟

أمسـك المهندس الحسـيني كوب الشـاي بيد مرتعشـة وكأن رعشته تعبر عـن ضجره من هذه القصة التـي أقحمته فيها القيـادات دون حول ولا قوة منـه... لكنه قال وهو يتصنع الحكمة: إنك تتحدث عن أمر مسـتقبلي في عالم الغيـب؛ حيـث لا يسـتطيع أحد أن يجزم بـه ولا أن يؤكد وقوعـه ولا أظنهم سـيفعلون ذلك إلا إذا خالفت القرار بالفعل، هم في الأول والآخر إخوانك ولا يبتغون إلا صالح الدعوة، فلماذا سيتعقبونك بالشكاوى؟ أراك مغاليًا في توقعاتك يا أخي الحبيب.

قاطعته قائلًا: هذه ليسـت توقعات ولكنها معلومات.. ثـم أردفت: ومع ذلك سأقترح عليك اقتراحًا.

ـــ تفضل.

ـــ أظن أن الشكوى التي أعرف يقينا أنهم يعدون لها من الآن سيتم تقديمها للمرشد وستكون عـن مخالفتي للقـرار في يـوم الانتخابـات، والمسألـة بسيطـة يـا أخي، أقترح أن أقضي معك يوم الانتخابات في مكتبك الهندسي من الصباح

باكرًا حتى آخر الليل حتى تكون شاهدًا بعد الله سبحانه وتعالى على موضع وجودي في يوم الانتخابات، فإن تقدموا بشكوى فسيتضح للجميع أنهم يكذبون كما يتنفسون، وقتها سأطلب حقي منكم جميعًا، وإن لم يتقدموا بشكوى كما تظن فلن نخسر شيئًا. يكفيني شرف الوجود في معيتك في هذا اليوم.

لم يكن أمام المهندس الحسيني إلا أن يوافق على الفكرة فورًا، لكنه أضاف اقتراحًا بأن أنوي الصيام في هذا اليوم وأكمل قائلًا: إن الصالحين من عباد الله سبحانه وتعالى يحاربون المعاصي بالطاعات، وما يحدث في نقابة المحامين بينكم الآن هو من أعلى المعاصي ولذلك يجب أن نتزود بالطاعة. ثم استطرد: سنفطر معًا في هذا اليوم ثم نستمر في المكتب لصلاة العشاء على أن نصلي مع مجموعة من الإخوة سيحضرون لمكتبي آنذاك ثم سيمكثون معي بعد انصرافك لبعض شأنهم التنظيمي.

وأضاف أنه سيقوم بإبلاغ المرشد بخبر هذه الفكرة حتى يستأذن منه في خروجي من البيت يوم الانتخابات للمكوث معه؛ إذ تقتضي القواعد أن يتم الحصول على موافقة المرشد لإضافة هذا الاستثناء.

كان لابد مما ليس منه بد، رغم أنني كنت قد عقدت العزم على أن أخفي الأخبار عن مختار نوح وعن باقي الإخوة في محبسهم فقد دفعني تطور الأحداث إلى كتابة خطاب يحتوي على كل التفصيلات كبيرها وصغيرها واستطعت بطريقتي الخاصة أن أرسل له هذا الخطاب بعيدًا عن أعين الرقيب الأمني داخل السجن، وقد احتوى خطابي على شرح تفصيلات

قرار المرشد بمنعي من الخروج من البيت لأسبوع، ثم شرحت مبررات قبولي للقرار وأضفت في نهاية الخطاب ذلك الذي انتويته بقضاء يوم الانتخابات في مكتب المهندس ممدوح الحسيني، وشرحت الأسباب التي دفعتني لاتخاذ هذا القرار.

وجاء يوم الانتخابات...

كان شهر فبراير في هذا العام يُعبِّر عن فصل الشتاء خير تعبير وكأنه ممثله الشخصي ومندوبه السامي، إلا أن يوم الرابع والعشرين منه كان كريماً كأجود الكرماء؛ إذ لم يرِد أن يخوض المحامون غمار انتخاباتهم في جوٍّ بارد، فأرسل فبراير سراح أشعة الشمس في هذا اليوم ليصبح الجوُّ دافئًا جوادًا ولعل بعض دفئه انبثق من سخونة تلك الانتخابات التي اشتعل أوارها في نقابة المحامين.

وما إن ظهرت تباشير الصباح ترفل في السماء حتى أخذت مصحفي وذهبت إلى مكتب المهندس ممدوح الحسيني الذي لم يكن قد حضر بعد، وانشغلت بقراءة القرآن إلى أن حضر الرجل، فأخذنا نتجاذب أطراف الحديث ثم تركني وانخرط في أعماله، أما أنا فقد شغلت وقتي طوال اليوم بقراءة القرآن، وعند أذان المغرب صلينا جماعة مع بعض الإخوة حيث شاركنا بعضهم في طعام الإفطار وكان منهم الأخ صادق الشرقاوي الذي تم حبسه في وقت لاحق في القضية العسكرية التي حُبس فيها خيرت الشاطر والمعروفة بالقضية رقم 2 لسنة 2007، وبعد صلاة العشاء جاء الخبر اليقيني

بأن الاقتراع في النقابة قد انتهى وآن لي أن أسترد حريتي وأن أغادر المكان فقد انتهت بانتهاء الاقتراع مدة الحظر وانقضى سبب منع التجول وأصبح من حقي أن أخرج كما أشاء وأمارس حياتي كما يحلو لي.

نجح سامح عاشور نقيبًا للمحامين ونجحت قائمة الإخوان بأكملها!! فأصبح عاشور نقيبًا بلا مجلس وأصبح المجلس مجلسًا بلا نقيب فقد بدأ الشقاق بين الفريقين وكأنهما فريقان يختصمون.

وبعد يومين طلبني المهندس الحسيني حثيثًا واستسمحني في زيارته بمكتبه فذهبت إليه بعد أن كنت قد وليتُ وجهي صوب مكتبي.

وما إن شاهدني أدخل عليه حتى بادرني قائلًا: حدث ما تخوفت منه.

ـ كيف ذلك؟

ـ تقدم طوسون ومعه آخرون من إخوانك بشكوى ضدك، قدموها للحاج مصطفى مشهور.

ـ يا ألله وماذا قالوا في شكواهم؟

ـ الذي توقعته أنت... قالوا إنك خالفت القرار وخرجت من بيتك يوم الانتخابات وذهبت للنقابة ووقفت تدعو ضد قائمة الإخوان وإن بعض الإخوان حاولوا مناقشتك للعدول عن مسلكك إلا أنك رفضت الاستماع إليهم.

ـ الحمد لله، بهذا يا أخي الحبيب ظهر الحق عيانًا بيانًا وأظن أن الحاج مصطفى عرف يقينًا أن شكواهم كاذبة؛ فقد كان يعلم أني في معيتك يومها.

قاطعني الرجل قائلًا: مهلًا يا أخي فهناك أكثر من ذلك.

ـ ما هو؟

ـ لقد أحضروا شهودًا من الإخوان المحامين، أحدهم صار عضوًا بمجلس النقابة يشهدون أنهم رأوك في النقابة وناقشوك في أمر دعايتك ضدهم وقد شهد هؤلاء بهذا في حضرة الأستاذ مأمون الهضيبي نائب المرشد وأقسموا على صدق شهادتهم.

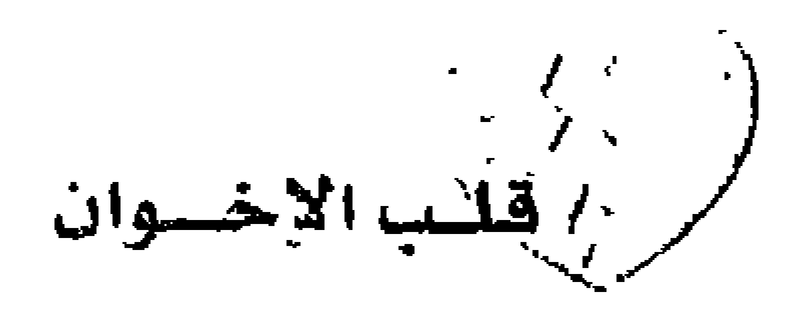
قلت ضاحكًا: لا أظن أنني من أهل الخطوة أو أن لي قدرة على الوجود في مكانين في آن واحد فالقدرة لا تتعلق بالمستحيل.

فبادلني الضحكات وقال في كلمات حاسمة: والله لن أتركهم وسيلقون غيًّا (وغيًّا هو واد في قعر جهنم).

كان ظاهر الأمر يوحي بأن أمواج اليم العاتي قد سكنت إلا أنني لم أكن أعلم وقتها أن بحر الإخوان يخفي العجائب التي لا تنفد والتي لا يمكن أن ترد على قلب بشر.

■■■

كان يوم الجمعة الذي جاء يتهادى بعد يوم الانتخابات يومًا غير عادي، فقد تم فتح أبواب سجن طرة لتدلف إلى داخله سيارة مرسيدس فضية اللون تحمل في داخلها شخصين يرتدي كل منهما نظارة سوداء، أما الشخص الأول الذي بدا طويل القامة مشرئب العنق ذا شعر رمادي فقد كان سامح عاشور



الذي أصبح نقيبًا للمحامين، وكان الشخص الثاني الذي بدا مكتنزًا بعض الشيء..أبيض الوجه بحُمرة تداعبها خصلات شعر أشقر عاطف عواد.

وقفت السيارة أمام سجن ملحق مزرعة طرة الذي يقضي فيه الإخوان عقوبة الحبس في قضية النقابيين، وأمام السجن كان في انتظارهما ضابط أمن الدولة الذي هشَّ لاستقبالهما واحتفى حفاوة خاصة بنقيب المحامين الجديد، ثم قادهما إلى داخل السجن من أجل زيارة خاصة شديدة الأهمية ليس من أجل موضوعها ولكن من أجل أصحابها، فالزائر هو سامح عاشور نقيب المحامين وبرفقته عاطف عواد الإخواني السابق والوسطي الحالي، أما المزور فهما مختار نوح وخالد بدوي وهما من هما. كان عاشور يحمل في يده علبة كبيرة تحتوي على تورتة قام بتقديمها لنوح وخالد بدوي احتفالًا منه بنجاحه العسير، ودار حوار طويل بينهم حكى فيه عاشور تفصيلات المعركة ودقائقها وكان خالد بدوي حريصًا في كلماته على أن يؤكد لسامح عاشور أنه لولا ثروت الخرباوي ومن معه لما نال عاشور نجاحًا أو فلاحًا، وعاشور بطبعه كان يقلل من أهمية دور هذا الفريق قائلًا: لقد منعوه يا مولانا من الخروج من بيته.

ولكأنما كان لسان حال عاشور يصرخ (إنما أوتيته على علم عندي) وكأن هذه العبارة هي سبب حضوره ليؤكد أنه غير مدين لأحد.

فبادره خالد بدوي بكلمات عربية فصيحة وهو يطرق إلى الأرض :

والله الذي نفسي بيده إن جهد ثروت الخرباوي وعاطف عواد ومن كان

في ركابيهما كان هو الأمر الفارق في الانتخابات، ولا يستطيع أحد أن ينكر ما تعرض له الخرباوي من مضايقات من أجل دعمك، وقد كنت أنا وإخواني هنا في السجن ندعو له ونبارك عمله، نحسبه من المخلصين والله حسيبه ولا نزكي على الله أحدًا.

وظل خالد بدوي لا يني يكرر مثل هذه الكلمات، يرد بها على عبارة عاشور التي كانت هي السبب الباطني للزيارة رغم أن الواقع يثبت أن من في السجن لم يكن لهم أي شأن بالتفصيلات التي استجدت في المعركة، فلم يكن لهم علاقة من قريب أو بعيد بوقوفي مع عاشور ضد رجائي عطية، بيد أن خالد بدوي كان يستهدف من باب التكتيك إفهام عاشور أنه لم ينجح إلا برعاية ودعم وأمر المساجين من الإخوان، وأن ما صدر من ثروت الخرباوي كان بالاتفاق مع من هم في داخل السجن، لعل هذا التكتيك يؤتي أُكله ذات يوم في تنسيق نقابي أو توفيق بين الأطراف المتصارعة في النقابة؛ إذ لا بد أن يكون أحدهم رمانة للميزان أو من فريق الحمائم إذا كان هناك فريق الصقور، وكثيرًا ما كنا نستخدم هذا التكتيك مع سامح عاشور في مرات لاحقة كما كنا نستخدمه مع غيره من الطامحين لكرسي العضوية... هكذا هي السياسة وهكذا هي دروبها وطرقها.

لم يكد خبر الزيارة يتسرب حتى اشتعلت الشعل.. فها هي النار تتأجج من جديد في قلب محمد طوسون الذي اعتبرها مؤامرة تضامَّت مع المؤامرة التي اختلقها خياله عن محاربتي لقائمة الإخوان، وظن الرجل أن مختار نوح يتفق وهو في سجنه مع سامح عاشور من أجل تشكيل هيئة المكتب لمجلس

النقابة وهيأ له خياله أن هناك تدبيرات محكمة من أجل إبعاده عن أي موقع قيادي بالمجلس، واستمر أ ظنه واعتقد أنني عرَّاب هذا الاتفاق وأني كنت المرافق الثاني لعاشور في زيارته تلك!.

وكأنهم أصبحوا كساعي البريد لا ينفك عن تكرار ما يفعله بشكل يومي بلا ملل ولا كلل. زارني الأخ فلاح سرور وأنبأني أن طوسون قدم شكوى أخرى ضدي وزاد في شكواه أنني اصطحبت سامح عاشور لزيارة مختار نوح في السجن!! وأنني كتبت مقالة في إحدى الصحف اتهمت فيها بعض قيادات الإخوان بعقد محاكمات عسكرية لأفراد الجماعة.

ولم يكد ينتهي من قوله حتى بادرته قائلًا: هذا تخليط لا يليق، ولا ينبغي للإخوان أبدًا أن يستمعوا لمثل هذا الكلام، وأنا أعجب من آذان الإخوان التي تصغي لهذا، بل وتتوخاه.. أليس هناك في أمة الإسلام والمسلمين ما يستحق اهتمام الإخوان أكثر من القيل والقال اللذين نهى عنهما الرسول ﷺ، وأعاد الأخ فلاح على مسمعي رجاءه الذي استحثني عليه من قبل أن أتفرغ له في المنطقة وفي هذه المرة قبلت... وكأن لسان حالي يقول «مرغم أخاك لا بطل».

***

مع الامتداد العمراني هجرت منطقة التجمع الخامس الصحراء الجدباء واقتربت شغفًا من تخوم مدينة نصر، وقد ساعد الطريق الممهد الذي تم شقه يسار (مقابر مدينة نصر) على سهولة التنقل بين الحيين وكأنهما جسدان

متداخلان في جسد واحد، ومع طفرة العمران انتقل الكثيرون من إخوان مدينة نصر بل شرق القاهرة كلها إلى منطقة التجمع وكان من المتنقلين ممدوح الحسيني مسئول مدينة نصر ونائبه رفعت الحواط، بله بعض أعضاء مكتب الإرشاد وقتها مثل مهدي عاكف، وكان هؤلاء هم أول من حمل متاعه ورياشه وحط رحاله هناك، مما دعا قيادات شرق القاهرة في التنظيم إلى تحويل هذه المنطقة من الناحية الجغرافية التنظيمية إلى شعبة جديدة من شعب الإخوان المسلمين تتبع منطقة مدينة نصر إلى أن تقوى ويشتد عودها فتتحول إلى منطقة قائمة بذاتها في مستقبل الأيام.. وبدأت مدينة نصر تولي هذه الشعبة اهتمامًا خاصًّا، ولا غرو فهي شعبة ستشهد سكن مهدي عاكف عضو مكتب الإرشاد الشهير وقتها عندما ينتهي من إتمام البناء الذي يشيده هناك... وستشهد أيضًا أموالاً سيبذرها التنظيم على الأراضي والعقارات وسينتظرون غلتها ذات يوم... وبعد أن تكوَّن الشكل التنظيمي للشعبة رأى بعضهم أن تقوم شعبتنا بدعم هذه الشعبة الوليدة، واقترح فلاح سرور أن أقوم بصفتي رجل قانون بإلقاء سلسلة محاضرات قانونية في الكتائب الإخوانية التي كثر انعقادها في التجمع لتثقيف الإخوة بما لهم وما عليهم من الناحية القانونية إذا حم القضاء وقُبض عليهم اعتقالًا أو على ذمة قضية من قضايا الإخوان العديدة.. وأعددت بالفعل هذه المحاضرات وجعلتها تدور حول التصرف الذي يجب أن يقوم به الأخ عند القبض عليه أو عند تفتيش منزله وحقوقه القانونية وما ينبغي عليه قوله أثناء تحقيقات النيابة معه أو أثناء استجوابه بمعرفة مباحث أمن الدولة، وكان يصاحبني في هذه

المحاضرات الأخ ممدوح الحسيني بحسب أنه مسئول منطقة مدينة نصر كلها والأخ فلاح سرور، ثم قمت أثناء ذلك بإدارة وترتيب عدة كتائب انعقد بعضها في بيت المهندس ممدوح الحسيني، وكان المحاضر في إحداها الدكتور عبدالمنعم تعيلب أحد قيادات الإخوان التاريخية وكان وقتها مسئول منطقة شرق القاهرة كلها، أما موضوع المحاضرة فكان عن «تعظيم المحرمات»، لم يكن الأمر قاصرًا على التجمع الخامس وأهله فقط، فقد عقدت في بيتي عدة كتائب للإخوان حضر إحداها الدكتور سيد عسكر الذي كان وكيلًا للأزهر الشريف وأصبح فيما بعد عضوًا بمجلس الشعب، وحضر أخرى الأستاذ محمد عبدالمنعم مسئول الإخوان وقتها بمحافظة الإسكندرية... وفي الوقت ذاته طلب مني بعض الإخوة في منطقة شبرا الخيمة إلقاء محاضرات عن تاريخ مصر الحديث وقد قمت بتوسيع نطاق هذه المحاضرات وتنقلت بها ومن أجلها إلى العديد من المناطق الإخوانية بالقاهرة والقليوبية، وانشغلت بمحاضراتي هذه عن المحامين ونسيت أيامهم، ولكن يبدو أن هناك من ظل يتذكرني!!

وعلى حين غرة من الدعة والهدوء عادت السفاسف من جديد.

الفصل السابع

مسجون في قلعة الإخوان

« وكأن عمر الإنسان سفينة استوت على الماء لا يملكها إلا من خلقها وبث فيها الحياة ولا يديرها ويوجه دفتها إلا صاحبها، وكأن قلب الإنسان كنز من المشاعر فإذا تألم تأوه وإذا تأوه عرف الناس ألمه لكنهم لن يشعروا بقدر الألم الذي يُعانيه ».

سجن ملحق مزرعة طرة هو أحد السجون التابعة لسجن طرة العمومي، إلا أن له خصوصية تميزه عن باقي السجون وتجعله وكأنه آخر عنقود مصلحة السجون، فقد ظل قاصرًا على استقبال المساجين السياسيين وعلى الأخص مساجين الإخوان المسلمين، فضلًا عن المساجين من رجال الأعمال والشخصيّات ذات الحيثية، أما من الناحية الإنشائية فهو عبارة عن مبنى فقير فقرًا مدقعًا من الخارج بحيث إنه يخلو من أية ناحية جمالية معمارية

إلا أنه أقرب شبهًا لفيلا سكنية أهملها أصحابها وفرَّطوا في رونقها حتى أصبحت بالية المظهر... يتكون هذا المبنى العتيد من طابقين كل طابق به عشر حجرات زنازين، ملحق بكل حجرة حمام خاص لها، وتتسع الحجرة الواحدة لفردين بالكاد وقليل من حجراته تتسع لخمسة أفراد على أعلى تقدير...عندما تدخل إلى هذا السجن المنعزل للزيارة تقابلك حديقة كبيرة غنَّاء ازدانت بعدد من الأشجار والمزروعات النادرة التي أضفت على المكان قدرًا من الهدوء والثراء الجمالي.. ولك أن تعلم أن مساجين الإخوان، خاصة هواة الزراعة منهم، قد ساهموا في زراعة العديد من النباتات في هذه الحديقة وكتب بعضهم اسمه على بعض الأشجار من باب «الذكرى الخالدة»، كما قاموا بتحديث الحجرات وتبليطها ودهانها ومد حماماتها بالسخانات وتزويد حجراتها بأجهزة التلفزيون، كذلك أقاموا مكتبة كبيرة اقتنوا فيها العديد من ذخائر الكتب ونفائس المؤلفات، وقد اعتادت إدارة السجن على جعل هذا الملحق هو السجن المخصص للمساجين الذين صدرت ضدهم عقوبات، أما سجن المزرعة نفسه فهو الذي يستقبل المحبوسين احتياطيًّا.

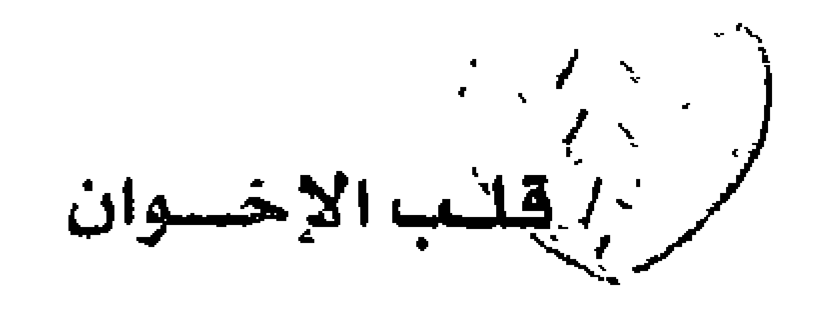
كان نوح ومجموعته من الإخوان قد سيقوا من سجن الاستقبال بطرة؛ ذلك السجن الذي قضوا فيه فترة الحبس الاحتياطي، إلى سجن الملحق الذي استقر بهم المقام فيه منذ أشهر عقب صدور عقوبة الحبس ضدهم، ولم يكن من حظي بعد انتقالهم للملحق زيارة أي واحد منهم إلا مرة واحدة يتيمة؛ حيث زرت فيها مختار نوح وخالد بدوي، وقد أفصحتُ في تلك الزيارة لهما عن لواعج نفسي وشكوت جحودًا وقسوة كانت وكأنها دين الإخوة وديدنهم،

وحكيت لهما باستفاضة عن تلك المواقف التي واجهتني من الإخوان خارج السجن وجعلتني أبدو في داخلي وكأنني سجين الإخوان المسجون في قلعة من قلاع التنظيم، وعكَّرت الماء الذي كان يجري رائقًا رقراقًا بيني وبينهم، وأظهرت لي الوجه الخفي لبعض قيادات الجماعة ذلك الوجه الذي ما فتئ هذا الفريق يخفيه عن الجميع ويرتدي من أجل إخفائه ألف قناع ثم انقطعت الزيارات بعد ذلك لفترة إلى أن حدثت فجأة انفراجة في زياراتي للإخوة، فقد استطعت زيارتهم بضع مرات في شهر يونيو من عام 2001 على غير العادة، وكأن هذه الزيارات كانت تعويضًا سخيًا عن فترة الغياب... وكل شيء عنده بمقدار.

أصدقكم القول إن هذه الزيارات لم تكن مجردة من الأهداف والغايات، ولم يكن هدفها بث الشجون والمشاعر ومؤازرة الإخوة في محبسهم ودعم مشاعرهم ونفسياتهم فقط، ولكن كان مرامها في المقام الأول مناقشتهم في بعض دعاوى قضائية رأينا أنا وهم أن أقيمها لهم من أجل الإفراج عنهم.

كان أول الغيث الذي تصورنا أنه سيساعدنا هو صدور حكم من المحكمة الدستورية قضى بعدم دستورية نوعية من الجرائم التي كانت مؤثمة في قانون العقوبات وهي جرائم (الاتفاق الجنائي).. وكان يحدونا الأمل أن ينسحب أثر هذا الحكم الدستوري على القضية التي حُبس بموجبها الإخوة فيتم الإفراج عنهم.

وجاء بعد الحكم الدستوري ما يسمى « انقضاء نصف مدة العقوبة»،



وهذا الانقضاء يعطي الحق لرئيس الجمهورية في الإفراج عن المسجون إذا كان حسن السير والسلوك، وكنا نترقب مع هذين الأمرين مرور ثلاثة أرباع مدة العقوبة التي تعطي الحق للنائب العام في الإفراج عن المسجون وإنهاء العقوبة وفقًا لشروط تتوافر في حق الإخوة جميعهم، وكنت قد أعددت بحثًا قانونيًّا مطولًا عن هذا الحق واقترحت عليهم أن أقيم دعوى بخصوصه عندما يحين الحين ويأتي الأجل المحدد.

ولأن الزيارات كانت في مجملها قانونية ثقيلة الظل؛ إذ كانت المناقشات القانونية فيها تستغرقنا حتى يضجر منا ضابط السجن ويأخذ في التثاؤب فقد اقتصرتُ فيها على مقابلة مختار نوح وخالد بدوي بحسب أنهما محاميان وأننا جميعا سنخوض في القانون، وبعد مناقشاتنا المستفيضة طلبَا مني الإسراع في إقامة تلك الدعوى القضائية التي تمخضت عنها أفكارنا بطلب بالإفراج عنهما لعدم دستورية المادة التي تم حبسهما بمقتضاها، وطلبا أيضًا أن أقيم دعوى أخرى بطلب الإفراج عنهما لمرور نصف مدة الحبس، وكان خاتمة ما طلباه أن أضع اسم محمد طوسون على صحف تلك الدعاوى!! وكان هذا الطلب قد أثار امتعاضي إلا أنني وافقت عليه دون مناقشة، فهذه هي رغبة أصحاب القضية ولا بد أن لهما ضروراتهما... وأنهى مختار نوح جملة الطلبات قائلًا: لابد يا أخي العزيز أن تحصل على تصريح زيارة جديد لمقابلة كل مساجين الإخوان المحبوسين معنا حتى يكون هناك إقرار نهائي من الجميع يدفعك إلى أن تمضي قدمًا في إقامة الدعوى الثالثة التي تتعلق بالإفراج وإطلاق السراح عندما يحين موعد انقضاء ثلاثة أرباع مدة العقوبة.

وبعد أن انتهت الزيارة وذهبت إلى حال سبيلي حدث ما لم يكن في الحسبان وما لم يجر على خاطري أبدًا.

■■■

في الهزيع الأخير من الليل حين سَجى انتظارًا لرسل الشمس، وقبل أن يضع الظلام أوزاره ويهمد خلف قافلة النور، وقبيل أذان الفجر بهمسة انتفضت من نومي على طرق رتيب على باب بيتي، لم يكن الطرق ثقيلًا متواصلًا فينبئ عن طبيعة الزائر؛ ولكنه كان خفيفًا رقيقًا يدل على أن صاحبه جاء على استحياء كأنه يكاد ينصرف إلى حيث جاء، وعندما فتحت الباب وأنا أفرك عيني وجدت أن الزائر هو الدكتور حسن عبد الحليم وهو أحد قيادات الإخوان المسلمين في المنطقة، كما أنه في ذات الوقت نقيب أسرتي الإخوانية، وقد أثارت هذه الزيارة المفاجئة دهشتي واسترابتي التي وصلت إلى حد الجزع.

والدكتور حسن عبد الحليم صيدلاني من جيل الوسط يحمل قلبًا رقيقًا ومشاعر مرهفة وعاطفة دينية مشبوبة وقد اشتُهِر بين أقرانه بالالتزام والجدية والدقة المفرطة في تنفيذ التعليمات التنظيمية، حيث يعتبر الكثيرون من الإخوان، وفقًا للآلية والمناهج التي تربوا عليها، أن طاعة القيادات والثقة فيهم عبادة لله سبحانه وتعالى، وكان قد تعود لفترات على التواعد معي كي نلتقي في صلاة الفجر في أي من مساجد الحي، إلا أنه لم يحدث أبدًا أن باغتني بزيارة في مثل هذا الوقت دون اتفاق مسبق.

ودون أن يدخل إلى الشقة طلب مني الزائر الإخواني أن أرتدي ثيابي فورًا حتى نلحق بصلاة الفجر جماعة في أحد المساجد بالحي، وفي سيارتي ونحن في الطريق إلى المسجد التزم الدكتور حسن الصمت ولم ينبس ببنت شفة وانشغل بتلاوة أذكار الصباح حتى وصلنا إلى المسجد المنشود، كانت نفسي قد حدثتني ونحن في الطريق إلى المسجد أن هذه الزيارة تبطن أشياء أسرَّها الأخ حسن في نفسه ولم يبدها لي وقتها، وبالفعل صدق حدسي... فما إن انتهت الفريضة وفرغنا من ختام الصلاة حتى التفت الأخ إلى ناحيتي وقال لي وهو يكاد يهمس: يا أخ ثروت باعتباري نقيبك في الأسرة طلب مني الأخ ممدوح الحسيني أن أبلغك بأن هناك جلسة تحقيق ستنعقد معك صباح اليوم في مكتبه الساعة الثامنة صباحًا، ويجب أن تكون حاضرًا في الموعد المحدد للأهمية.

فقلت له وقد اعتراني العجب واعتورتني الدهشة : «هكذا فجأة!! أليس من المفترض يا دكتور حسن أن يكون هناك تمهيد؟ أليس من العدل أن يتم إخطاري قبل التحقيق بوقت كاف؟ ثم يا أخي الحبيب ما موضع التحقيق؟».

ثم استطردت وكأنما أحدث نفسي :

«من هذا الذي يملك أن يفتش في قلبي ويخترق ضميري ويحاسبني على ما أعتقد».

«أيملك أحدكم سفينة حياتي حتى يشاركني في إدارة قراري وتوجيه دفة أفكاري؟».

«ما هذه القسوة التي جُبل البعض عليها وكأن قلوبهم قدت من الحديد وغُلِّفت من الصخر؟».

«أليس فيهم رجل رشيد، أم أننا شجعناهم عندما وضعنا بين أيديهم تلك السلطة المطلقة التي كبّلوا بها شرايين قلوبنا؟».

وضع نقيبي يده على كتفي وكأنما يحنو عليَّ وقال بلطف زائد وقلة حيلة بادية: «أنا أتمنى يا أخي أن ينتهي الموضوع على خير؛ ولكن اعذرني فمهمتي قاصرة على إبلاغك بالموعد والمكان وقد تلقيت التكليف قبل أن آتي إليك بلحظات معدودات فليس لي في الأمر حيلة».

«ثق أن الجماعة كالأم الرءوم لن تخذلك، وإن خذلتك فسنكون كلنا معك».

«لن يقبل أحدنا أن تتعرض لظلم، وإن ظلموك فستكون الجماعة حينئذ قد هجرت خيريتها، وقتها سنهجرها ونغادرها إلى غير رجعة».

شكرته باقتضاب وانصرف هو إلى بعض إخوة من شعبتنا كانوا ينتظرونه عن قرب، وانصرفت بدوري وأنا أحفر في ذاكرتي عن سبب دفعهم إلى إحالتي للتحقيق إلا أن يكون نبشًا منهم في الماضي القريب الذي لم يغادر قلوبهم وقبع منتظرًا لحظة سانحة.

■■■

بحجرة مكتب المهندس ممدوح الحسيني حيث تتناثر الخرائط الهندسية وتختلط بكتيبات بها أذكار الصباح والمساء وكتب عن تاريخ الإخوان، في مقر

شركته للمقاولات الكائنة في عقار شاهق بأحد الشوارع الرئيسية بالحي الثامن بمدينة نصر، كانت المحاكمة وكانت المحكمة.... جلس الحاج جودة شعبان رئيس المحكمة بين العضوين ممدوح الحسيني عضو اليمين ومجدي عبد الله عضو اليسار... أما الحاج جودة فهو نائب رئيس منطقة شرق القاهرة، وهي من أكثر المناطق الإخوانية اتساعًا وعددًا وأهمية، كما أنه أحد أفراد الرعيل الأول من الإخوان، وكان قد حُبس في قضية «محاولة اغتيال عبد الناصر» عام 1954 المعروفة بحادث المنشية؛ حيث خضع وقتها لمحاكمة عسكرية قذفت به في السجن سنين عديدة.. فقد كان وقتها من رجال التنظيم الخاص.. وقد لبث في سجنه إلى بدايات السبعينيات حين أفرج عنه الرئيس السادات مع من تم الإفراج عنهم من الإخوان.. وهو رجل في أواخر العقد الثامن من عمره، ضامر الوجه نحيل الجسد، نظارته الطبية ذات العدسات السميكة تغطي نصف وجهه تقريبًا، له لحية خفيفة ويرتدي حلة صيفية شاحبة اللون، يبدو من سيماه أنه لم ينل حظًّا من التعليم، توقف عن التعليم قبل الابتدائية وكان في مطلع شبابه وسابق أيامه قد انخرط في مهنة الصباغة كعامل بسيط إلى أن تم سجنه في منتصف الخمسينيات ثم التحق بشركة الشريف للبلاستيك في منتصف السبعينيات بعد أن خرج من محبسه إلى أن خرج على المعاش... يظهر من حديثه ضحالة خلفيته الثقافية ومحدودية أفقه، أما عضو اليسار الأخ مجدي عبد الله فهو متوسط العمر متوسط الطول يميل جسده للامتلاء، يرتدي حلة صيفية زرقاء تشبه الحلة التي يرتديها أفراد الأمن في الشركات الخاصة والبنوك، لم يستطع استكمال تعليمه العالي فاكتفى بالحصول على شهادة فنية

متوسطة، عمل لفترات في شركة الشريف للبلاستيك إلى أن تقوَّض بنيانها فهجرها إلى مشروع خاص شاركه فيه بعض الإخوان، أما وقت المحاكمة فقد كان يشغل موقعًا قياديًّا متميزًا في الجماعة تنوء به وبمسئوليته العصبة من الرجال أولو الفهم والإدراك وهو مسئول منطقة مصر الجديدة التي تضم صفوة الصفوة من الإخوان وزبدة مثقفيها، أما عضو اليمين فهو المهندس ممدوح الحسيني مسئول مدينة نصر.

عندما ألقيت عليهم السلام بابتسامة موجوعة عاتبت نفسي في داخلي أو بالأحرى عاتبتني نفسي وأوجعتني... «كيف بالله عليك تقبل هذا العبث المقيت السخيف؟!!».

«أأنت مسلوب الإرادة إلى هذا الحد أم أنك تعودت على قيود سجانك حتى أصبح السجن هو الحياة؟!!».

«أليس من الأكرم لك أن تنسحب من هذه اللعبة المهينة؟».

«قل لهم: لن ألعب وانصرف.. أو اتركهم في غيهم يعمهون».

«فك سلاسلهم التي قيدتك، فسلاسلهم التنظيمية لا قيمة لها فهي كقبض الريح أو كسراب خادع ساذج».

وعلى عكس ما دلَّت عليه نفسي الثائرة جلست أمامهم هادئًا طيِّعًا لا حول لي ولا قوة ،وكأن خضوع الإنسان للقيود والأغلال التي ألفها واستكان لها زمنًا، يطمس فيه نزعة الحرية ويجعله سلس القياد، وهكذا يستطيع الطغاة قيادة شعوبهم.

هشَّ الحاج جودة في وجهي وقام باهتمام زائد يستقبلني وتبعه أعضاء المحكمة الذين قبّلوا كتفي بمبالغة غير مفهومة، ثم دار حديث قصير بيننا عن أحوال الجو والزحام والمواصلات، وأبدى الحاج جودة تبرُّمه من زيادة الأسعار، وما لبث الحديث أن انعطف حول نقابة المحامين وأحوالها وانتخاباتها الفائتة ونجاح الإخوان فيها، وعند هذا الموضع قال الحاج جودة وهو يتعمد عدم النظر ناحيتي: ما هو موضوع خلافاتك يا أخي مع إخوانك في النقابة؟.

قلت له وأنا أنظر إلى موضع قدمي: هل هذا السؤال مجرد دردشة؟ أم أنه تحقيق أو محاكمة؟

قال وقد بدا عليه الانزعاج: محكمة ماذا والعياذ بالله، أنا في مقام أبيك وهؤلاء إخوانك ونحن نتحدث معك لأن هناك شكوى مقدمة ضدك، وأبوك الحاج مصطفى أمر بتشكيل لجنة لمتابعة هذا الأمر والوصول لوجه الحق فيه ونحن أعضاء هذه اللجنة.

قاطعته بابتسامة: يعني يا حاج جودة أنتم لكم سلطة توقيع جزاء على المخطئ.... هه؟

قال بثقة: نعم.

تابعت الحديث قائلًا: إذن أنتم محكمة.

تدخل الأخ مجدي عبد الله قائلًا: ولتكن محكمة يا أخي فما الضير في ذلك؟

قلت دون أن أنظر إليه: الحقيقة هناك قواعد للعدالة حضَّ عليها الإسلام يجب أن تتبعها المحكمة.

فبادرني الحاج جودة: لا إله إلا الله... وهل نحن خالفنا الإسلام يا أخي الحبيب؟

استطردت: ينبغي أن يتم إخطاري بالمحاكمة وموضوعها قبل الجلسة بوقت كافٍ لأعد دفاعي، فلا ينبغي أبدًا مباغتة الشخص بمحاكمة لا يعرف أسبابها... وأكملت: ثم إننا تحدثنا باستفاضة من باب الدردشة والمودة قبل البدء في المحاكمة عن الانتخابات في النقابة، فإذا كانت المحاكمة ستتضمن تلك الانتخابات فإن حديثنا عنها باطل وهو في الشرع استدراج لا يجوز.

وهنا تدخل ممدوح الحسيني قائلًا: ليس استدراجًا يا أخي الحبيب، يجب أن تحسن الظن في إخوانك.

قلت وكأنني أعاتبه: لا علاقة لحسن الظن بما أقول ولكنها قواعد عامة يجب أن تتبع.

فرد معقبًا: عمومًا يا أخي سنعطي لك الفرصة التي تريدها... خذ هذه الورقة فهي تحتوي على موضوع الشكوى المقدمة ضدك وسنعقد غدًا في ذات الموعد والمكان جلسة أخرى لاستكمال الموضوع، وستكون هي الجلسة الختامية إن شاء الله.

خطفت نظرة سريعة متعجلة إلى الورقة فوقع نظري على عدة اتهامات، منها اتصالي بالمفكر الإسلامي دكتور سليم العوا، وترددي على جمعية مصر

للثقافة والحوار التي يرأسها، وصلتي بأعضاء حزب الوسط، ومخالفتي لقرار منعي من الخروج من بيتي الصادر من الحاج مصطفى... فاعترتني من جملة هذه الاتهامات دهشة تاريخية لا أظن أن أحدًا اعترته مثلها من قبل، إلا أنني تجاهلت ما قرأت وقلت: وأريد أيضًا أن تطلعني على ما قدمه أصحاب الشكوى من أدلة ضدي حتى أرد عليها وأفندها... فالبينة على من ادعى واليمين على من أنكر.

قال الحاج جودة متدخلًا: أما هذه فلن نستطيع.. ليس من حقك الاطلاع على أدلتهم... ولكن قل ما عندك وقدم ما لديك من أدلة... يكفي أن تعرف أنهم أحضروا شهودًا من الإخوان شهدوا ضدك أمامنا... وشهودًا من غير الإخوان كتبوا شهادتهم ووقعوا عليها.

قلت وقد تملكتني الدهشة: هذا لا يجوز يا أخي أبدًا... سماعك للشهود في غيابي يخالف قواعد الإسلام في المحاكمة... مبدأ مواجهة الأخصام ومواجهة الشهود من لزوميات المحاكمة العادلة... ثم من المفترض أن أرد على شهادة هؤلاء الشهود.. فكيف أرد على ما جهلت أصله وطبيعته وفحواه؟ هل هذه عدالة؟ وهل ما يحدث هنا له علاقة بالإسلام؟

قال الحاج جودة دون أن يرمش له جفن وقد نفد صبره: والله هذا هو ما عندنا وهذه تعليمات من الحاج مصطفى بنفسه ونحن لا نستطيع مخالفتها... جهز دفاعك وسننتظرك في الغد... ثم قام نصف قومة وهو يمد يده بالسلام وتبعه عضوا المحكمة.

وتركتهم وأنا أحاول أن أتنسم عبير الحرية فقد نازعتني نفسي ألا أعود لهم مرة أخرى... ما أعظم الحرية!

■■■

الشقة التي يقطن فيها الدكتور حسن عبد الحليم الصيدلاني نقيب أسرتي في الإخوان تقع في الدور الأرضي في عقار قديم متهالك من العقارات التي شيدها أصحابها في بداية نشأة حي مدينة نصر، وقد شهدت هذه الشقة العديد والعديد من الكتائب واللقاءات الإخوانية وجلس معنا فيها أكبر قيادات الإخوان في مناسبات متنوعة، وفي حجرة المعيشة البسيطة التي تعوَّد الدكتور حسن على استقبالنا فيها جلست قبالته أبحث عن كلمات مناسبة، كنت قد اعتزمتُ ترك الجماعة بشكل نهائي ورأيت أن ألقي على مسامعه ذلك الأمر الذي انتويته، وإذ كنت أبحث عن مدخل لائق للحديث بادرني وهو يقلِّب السكر في كوب القرفة: على فكرة.. أنا معك في أنه يجب أن تعرف كل تفصيلات الشكوى وأدلة إخوانك التي قدموها ضدك... فإخفاء هذه الأدلة عنك ليس من العدل.. كما أنه تعجيز لك.

قلت متعجبًا: هل عرفت؟

قال مؤكدًا: نعم جلست مع ممدوح وعرفت تفصيلات ما حدث بينكم اليوم.

قلت وأنا أتناول منه كوب القرفة: وما رأيك؟

قال وهو يقلِّب صفحات كتاب التقطه من فوق المنضدة متشاغلًا به: «هذا تهريج يا أخي».

«ما هذا الذي يحدث بين الإخوة؟».

«لماذا نُقطِّع لحم بعض؟».

«يبدو أن الدنيا أخذتنا وغرَّتنا!!».

«ما يحدث يرفضه كل صاحب قلب سليم».

ثم ناولني الكتاب الذي كان بيده قائلًا: هذا كتاب مدارج السالكين لابن القيم اقرأه بإمعانٍ لعله ينير أمامك الطريق ويفتح في قلبك مجالات للعفو عمن ظلمك.

قلت وقد استقر في فهمي أنه أدرك غايتي من زيارتي فأراد بكلماته هذه أن يقطع الطريق أمامي حتى لا أتخذ أي قرار يجمح بي خارج الجماعة: أشكرك... وقد أسامحهم وأعفو عنهم ليس في هذا من شك... ولكني أذكر تلك الكلمات التي قلتها لي عقب صلاة الفجر من أن الجماعة إذا سارت في طريق الظلم تكون قد «فقدت خيريتها».. أظن أنه ثبت أن الجماعة تسير في طريق الظلم يا دكتور؟

قال مهونًا من الأمر: يا ثروت يا «خويا» أنا وأنت وكلنا نرفض ما يحدث لكنها مجرد حالة فردية، لا تصلح للقياس عليها، أما الظلم الذي يُفقد الجماعة خيريتها فهو «الظلم إذا عمَّ».

قاطعته بابتسامة مندهشة: ليست حالة فردية وليست حالتي فقط، أستطيع أن أحكي لك الآن عشرات الحالات في منطقة شرق القاهرة فقط لم تراعِ فيها الجماعة قواعد العدالة.... ثم انطلقت في الحديث حتى لا أدع له فرصة لمقاطعتي وكأنني لن أتوقف أبدًا.

«عندك أخونا الدكتور حمدي عبد العاطي الذي كان حاضرًا في معسكر من معسكراتنا، وأثناء حصة المشي قال لرفيقه في السير: إن الحاج مصطفى مشهور يرتكب العديد من الأخطاء بسبب كبر السن، وإذا بأخ كان يسير خلفه يتنصت على هذا الكلام ثم يقوم بإبلاغ «إخوانا فوق» بخبر هذا الذي قاله حمدي الذي هو محض رأي من حقه أن يبديه، وتم عقب ذلك إحالة أخينا حمدي لتحقيق إخواني؛ حيث حقق معه أحد الإخوة من المحامين من أعضاء مجلس النقابة ثم صدر القرار الذي تعلمه بتجريد حمدي من موقعه كعضو في المكتب الإداري للشعبة عقابًا له على أنه قال رأيًا... هل هذه خيرية؟».

«وتعرف أنت طبعًا خبر أخوين من الإخوان من شرق القاهرة، ظلَّا شريكين لسنوات في شركة تجارية، وحدث أن قام أحدهما بسرقة نصيب الآخر في الشركة فاشتكاه المسروق للإخوة فقام الإخوة عقب الشكوى بإحالة الأمر لمحكمة إخوانية رأسها الدكتور عبدالمنعم البربري أمين صندوق نقابة الأطباء وكان معه في هيئة المحكمة المرحوم مأمون ميسر المحامي الإخواني المعروف ومعهما أحد المحامين من أعضاء مجلس النقابة، وأصدرت اللجنة قرارها بإدانة السارق إدانة صريحة قاطعة... إلا أن الأمر لم يرق لصهر السارق الذي يشغل موقعًا قياديًّا كبيرًا في منطقة شرق القاهرة، وهو رفيق عمر الحاج جودة وتابعه في المنطقة، فقام الإخوة بإلغاء هذا الحكم إرضاءً للرجل وتشكيل محكمة أخرى برئاسة الحاج جودة وانتهت المحاكمة في حكمها الجديد إلى تعديل الحكم إلى أن الحسابات فقط غير منضبطة وأن السارق لعدم ضبط الحسابات أخذ ما ليس له من حق دون أن يعلم أن ما

أخذه ليس من حقه، وأنه يجب على الأخ المسروق أن «يستعوض الله» فيما أخذه السارق... وأن نتيجة الحكم ستظل سرية لن يتم نشرها على الإخوة لعدم المساس بسمعة السارق، وعندما اعترض المسروق المجني عليه على هذا وقال: «سأستعوض الله بلا شك ولكن إذا صح أن تكون جلسات المحاكمة سرية إلا أن الحكم يجب أن يكون علنيًا وهذا من قواعد العدالة في الإسلام، فلم يقبل الإخوة ذلك.. فما كان من الأخ المسروق المجني عليه المظلوم إلا أن هجر الإخوان إلى غير رجعة... هل هذا عدل؟».

وعندما همَّ حسن أن يقاطعني استطردت دون أن ألتفت لمقاطعته «وأولئك الإخوة الذين احتكروا معارض السلع المعمرة بنقابة المهندسين بأمر مباشر من المرشد وليس بأمر مباشر من نقيب المهندسين فأصبحوا من أصحاب الملايين... هل هذه خيرية؟».

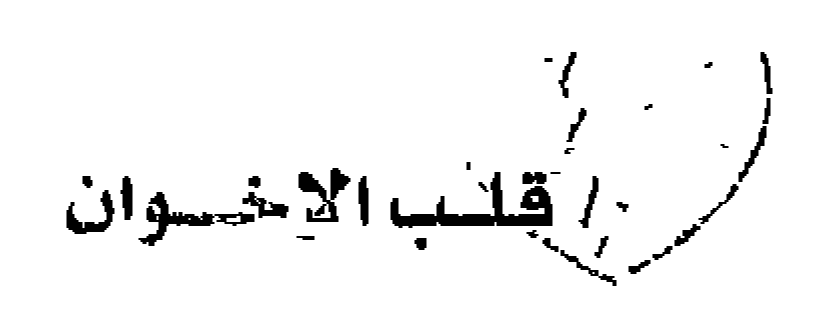
«وما حدث منا تجاه الإخوة مجموعة «حزب الوسط» وتلك الحرب غير العادلة التي وجهنا سهامها نحوهم حتى إن المستشار الهضيبي قال لنا في لقاء هنا بمدينة نصر: إنني أستطيع أن أجعلهم يسيرون في الشارع «بلابيص» هل هذا عدل؟».

«والقرار الصادر من الحاج مصطفى مشهور باعتبار الدكتور السيد عبدالستار المليجي ليس من الإخوان لمجرد أنه عقد ندوة فكرية في مكتبه وقام أحد الحاضرين في الندوة من غير الإخوان بانتقاد سياسات الجماعة وانتقاد تصريحات الحاج مصطفى التي أطلقها فيما يتعلق بالجزية والأقباط

فكان جزاء من أقام الندوة أن طردوه من الجماعة شر طردة بلا أخلاق وهو من هو في السبق والفضل؛ حيث قدم للجماعة عمره كله... هل هذا عدل وهل تلك خيرية؟».

وكأنما أفرغت جزءًا من شحنتي فتوقفت عن الكلام ألتقط أنفاسي، وهنا تحدث حسن بهدوء قائلًا: أنا معك في كل ما قلت ومع ذلك فهي حالات فردية؛ لأنني أستطيع أن أسرد عليك آلاف المواقف الطيبة للجماعة، وفي الفقه يا أخي ما دامت النجاسة لم تغير طعم أو لون الماء الطهور فهو طاهر، وأظن أن ما حدث لا يمكن أن ينجس هذه الجماعة أو يمس خيريتها رغم اعتراضنا عليه.

وضعتُ الكتاب جانبًا وقلت وقد ارتفعت نبرة صوتي دون قصد مني: هذا قياس مع الفارق يا دكتور، وحتى لو اتفقت مع قياسك جدلًا؛ فإن الحنفيين يذهبون إلى أن هناك من النجاسات ما تنجس الماء الطاهر حتى ولو لم يتغير لونه أو طعمه أو رائحته، ومع ذلك من قال إن الفساد لم يطغ وإن الظلم لم يعم؟.. يا عزيزي نحن في منطقة شرق القاهرة... هل تعرف ما معنى شرق القاهرة؟... ثم استطردت وأنا أضغط على الحروف بنبرة حادة: شرق القاهرة هي قلب الإخوان.... قلب الإخواااان... وما يحدث في القلب ينتقل إلى جسد الجماعة كله... ينتمي إلى شرق القاهرة القيادات التي تمسك خيوط الجماعة وتحركها كما تشاء.. يوجد معنا مصطفى مشهور ومأمون الهضيبي ومهدي عاكف ومحمود عزت وخيرت الشاطر وعبدالمنعم أبو الفتوح وحسن مالك وأحمد شوشة.



قال حسن بهدوئه المعتاد وهو يقاطعني: وأستطيع أنا أيضًا أن أكمل لك العد... فأنا أوافقك ولكن ما معنى هذا الاستدلال؟

ـــ قلت وقد انخفض صوتي: معناه أننا منطقة تحت الشمس، فلسنا في شعبة مختفية في دهاليز كفور ونجوع مصر لا يعلم أحد شيئًا عما يتم فيها... إذا أردت أن تعرف ما يحدث في الأطراف والأوصال فانظر إلى القلب.. ما يجري هنا من مظالم ومفاسد يتم تحت سمع وبصر قيادات الإخوان الكبيرة... ليس تحت سمعهم وبصرهم فقط، ولكن بموجب أوامرهم أيضًا... كأمر منعي من الخروج من بيتي مثلًا أو أمر مقاطعة مجموعة الوسط وعدم إلقاء السلام عليهم، وأمر طرد عبد الستار المليجي وغيرها من الأوامر التي تنضح بالظلم... هذا يدل يا سيدي على أن رأس السمكة فسد... والجماعة تفسد من رأسها كالسمكة..فإذا فسد الرأس فسد الكل.. هذا يدل على أن الإخوان الذين وضعنا فيهم الأمل في الإصلاح يحتاجون إلى إصلاح... ثم قلت منفعلًا وأنا أنهي الحديث: يا رجال الإصلاح يا ملح البلد.. من يصلح الملح إذا الملح فسد؟

نظر إليَّ الدكتور حسن وقد أصيب بخيبة أمل إلا أنه قال بإصرار دون أن ييئس: إذن فلنصلح معًا الملح ولنعد الماء إلى طهوريته... نحن نحتاجك ونحتاج عقلية مثل عقليتك لنصلح الجماعة... هل تقبل أن تترك جماعتك في يد من يفسدها؟

وكأنني أحدث نفسي قلت وقد اغرورقت عيناي بالدموع: أخشى إن ظللنا

على وهم الإصلاح أن نستيقظ ذات يوم فنجد قطار الجماعة قد مضى بعيدًا عنا وسار على قضبان الفساد، ونحن لا نملك إلا أن يدهسنا القطار إن اعترضنا طريق فساده، وقتها سيرجمنا الركاب الذين يغمضون عيونهم عن الحقيقة، وسيظنون أننا نحارب الإسلام؛ لأننا في نظرهم نقطع دابر جماعة تدعو للإسلام.

قال برفق وقد اغرورقت عيناه بالدموع كرجع لدموعي: لن يحدث هذا وسنكون معًا... إذا تركت الجماعة فسأتركها معك.. فكن معنا الآن ولا تتركنا واحضر جلسة المحاكمة غدًا ولن يستطيع أحدٌ أن يفعل معك شيئًا.

قلت وقد تحولت دفة اقتناعي إلى وجهة لم أظنها: سأبقى وسأحضر.

وسبحان مقلب القلوب، خرجت من بيت حسن مفعمًا بمشاعر متناقضة مضطربة تراوحت بين تلك الفرحة الطفولية التي تنتاب الفرد منا حين يمارس الجسارة والإقدام وهو يواجه الفساد وكأنه في مغامرة من المغامرات اللذيذة الشيقة.... وبين خوفي من المجهول الذي قد تتمخض عنه الأحداث.. إلا أن حب البقاء والمواجهة غلب على رغبة الخروج والخوف من المجهول، فتولد عندي إصرار بالبقاء في الجماعة ومواجهة طغمة الفاسدين، إلا أنني لم أكن أعلم ما أخفاه القدر من غرائب لا يتوقعها عقل أحد من الأسوياء.

■■■

أمسك الحاج جودة بقارورة المسك وأشار لي إشارة تعني أن أقرِّب إليه يدي، وعندما قدمت له اليمنى دعك على ظهر كفي بتلك الكرة المستديرة التي تعلو القارورة؛ فانساب عليه قدر من المسك.

ـــ جزاك الله خيرًا يا حاج وطيبك بطيب الجنة إن شاء الله.

ـــ نحن وإياكم إن شاء الله.

ابتسم المهندس ممدوح الحسيني وهو يقول: ابسط يا عم لقد نلت بركة الحاج وهي بركة لو تعلم لا ينالها إلا المقربون.

تضاحك الجميع وشاركتهم ببضع ضحكات مغتصبة، ثم ساد الصمت بيننا كأنهم يبحثون عن كلمات مناسبة يبدءون بها، إلى أن فتح الله على المهندس ممدوح فقال وهو يغطي تثاؤبه بظهر كفه: أنا أرسلت من يحضر لنا طعام الإفطار.. دقائق وسيحضر إن شاء الله.

فقال الحاج جودة: بالهناء والشفاء، أنا صائم.

وبعد برهة يسيرة دخل أحد الإخوة من شعبتنا ممن يعملون في مكتب المهندس ممدوح وهو يحمل صينية عليها لفائف الطعمية والفول، وعندما بدأنا في تناول الطعام ألح المهندس الحسيني على الحاج جودة كي يقطع صيامه ويشاركنا إفطارنا فأخذ الحاج جودة لقمة وقال مبتسمًا: سأقطع صيامي وأشارككم من أجل الأخ ثروت فقط.. ثم أردف: بسم الله.. اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وقنا عذاب النار.. وبعد أن مضغ اللقمة وابتلعها بأناة أخذ ثلاث رشفات من كوب الماء، ثم قال بابتسامة رضا: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين.. ثم أردف وابتسامته تزداد اتساعًا: ثم جعلنا من الإخوان المسلمين.

ضحك المهندس ممدوح ضحكة إعجاب وقال: الله.. الله عليك ياحاج..

ثم استدار موجهًا الحديث لي: تعلَّم يا أخ ثروت من عمنا الحاج.. نعمة هي أن نكون من الإخوان.. يجب أن نشكر الله عليها.. نعمة هي أن نكون مع إخواننا نسمع منهم ونطيعهم ونلين بين أيديهم.

ابتسمت دون أن أعقب.. وبعد أن انتهينا من طعامنا دخل أحد الإخوة يحمل صينية عليها بضعة أكواب متنوعة ما بين الشاي والقرفة والينسون وبجوارها قدح من اللبن لمن أراد أن يخلط شايه أو قرفته باللبن.. وبدأت جلسة المحاكمة.

قال الحاج جودة: الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله.. يا أستاذ ثروت..

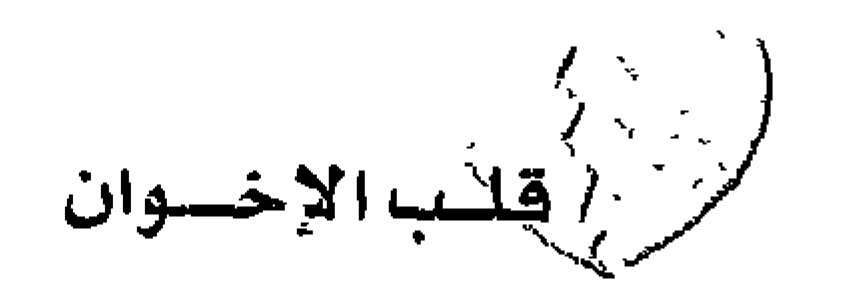
أتسمح لي أن أبدأ في أسئلتي؟

ــ تفضل، على الرحب والسعة.

ــ لماذا يا أخي خالفت قرار إخوانك بخصوص انتخابات نقابة المحامين التي جرت أخيرًا ووقفت مؤيدًا لهذا الذي يدعى عاشور ضد الآخر الذي وقع عليه اختيار الإخوة رجائي عطية؟ وكيف طاوعك قلبك أن تقف ضد قائمة إخوانك؟

ابتسمت وأنا أغوص في أعماقي كي أستخرج طاقة الصبر من داخلي: ألست معي يا حاج أن الصوت في الانتخابات أمانة؟

أجاب الحاج جودة بصوته الخشن المرتعش: ليس في هذا شك يا أخي.



قلت مستطردًا: وشهادة أيضًا؟

أومأ الرجل برأسه كعلامة بيّنة منه على الموافقة، فاستكملت كلامي: وهل يجوز لأحدنا أن يُملي على الآخر شهادته؟ أيجوز في حكم الشرع يا سيدي أن أطلب منك أن تشهد أمام القاضي شهادة معينة؟ أيجوز أن يتسلط أحدهم على قلبك وعقلك ويجبرك على شهادة يريدها؟ ترى، لو قلت لك اذهب للمحكمة واشهد بأن فلانًا ضرب فلانًا وأنت تحمل في جوانحك شهادة أخرى.. أتبيع دينك وقتئذ بدنيا غيرك؟

قال الحاج جودة مرتبكًا: ولكنها ليست شهادة كشهادة المحكمة.. ثم نظر إلى المهندس ممدوح مستنجدًا، ثم قال: أليس كذلك يا ممدوح؟

تنحنح ممدوح وابتسم وقال متجاهلًا سؤال الحاج: أيعني هذا يا أستاذ أنك تشكك في اختيارات إخوانك؟

قلت بحسم: يا أخي، أنا لا أشكك ولكن أتحدث عن الأصل.. بغض النظر عن التفصيلات.. هذا أمر لا يجوز أن يكون محل مساءلة أو محاكمة منكم لي لأنها شهادة.. وبالمناسبة هي شهادة بمعنى الكلمة يا حاج، فأنا أشهد أمام الله سبحانه وتعالى باختياري هذا أن فلانًا أصلح من فلان لهذا الموقع، والشهادة يا سيدي يملكها صاحبها.. ولا يحق لأحد من أهل الدنيا كائنًا من كان أن يحاسبني على شهادتي تلك.. فأنا أشهد عن نفسي ولا أشهد نيابة عن الإخوان (كل إنسان ألزمناه طائره في عنقه)، أما اختيارات الإخوان فيسأل عنها أصحابها.. أنا أشهد أن فلانًا حفيظ عليم أو غير ذلك، ولا شأن

لي بشـهادة الآخريـن فالله سيسـألهم عنها، ولا يجوز لأحـد أن يجبرني على أن أشهد بما يريد هو.. هذا ليس من الدين يا شيخنا.

زم ممدوح شفتيه ثم نظـر إلى الحاج جودة كأنما يستحثه على الانتقال إلى سـؤال آخر، فتناول الحاج جودة كوب الماء ورشـف منه رشفة ثم قال: شهد أحدهـم أمامنا يا أخ ثـروت أن الأخ «مختار» كان يحرضك على الوقوف ضد قائمـة الإخوان من داخل سـجنه وأنـه اتفق معك على خطة اسـمها تصدير القلق، فما ردك دام فضلك؟

وقبل أن أجيب تدخل المهندس ممدوح قائلًا: «لماذا يقيم الأخ مختار الدنيا ولا يقعدها بسبب حبسه يا أخي؟».

«إن أعجب فعجبي ممن يملأ الدنيا ضجيجًا عند حبسه».

«أهـو أول مـن يُحبس مـن الإخـوان.. فليُحبـس يـا أخي هل ستتهدم الدنيا؟!».

«ألا يعلم أن السـجن هو معسـكر من معسـكرات الإخوان، وأن اسـمه مازال مكتوبًا بالقلم الرصاص من لم يُحبس بعد من الإخوان؟».

تعجبت من تلك النبرة الهجومية التي أظهرت لي أن هناك من أفسد قلب هـذا الرجل على أخيه المحبوس فتجاهلـت هجومه ووجهت كلامي للحاج جودة: يشهد الله أن «مختار» لم يحرضني على الإخوان، ومن شهد بذلك كذب، وهي شهادة زور وأتمنى أن أواجه شاهد الزور هذا ولكنني أظن أنه لن يقوى عـلى مواجهتي.. أما عن خطة تصدير القلق فهي خطة وضعها الإخوة كلهم

في السجن وتستطيع يا حاج أن ترسل للسجن من يسأل الدكتور محمد بديع أو الدكتور محمد بشر في هذا الأمر وهما أعضاء مكتب إرشاد وأظن أن تلك الخطة من بنات أفكارهما مع باقي الإخوة الذين معهما في السجن.

فاستدار الحاج جودة إلى ناحية المهندس ممدوح وأشار له إشارة ذات مغزى ثم تحوَّل بوجهه ناحيتي وهو يقول:

منذ متى وأنت تعرف الأخ «سليم»؟

قلت متخابثًا: الأخ سليم! من الأخ سليم؟

قال مستنكرًا: الأخ سليم العوا!

وكأنني أصحح له قلت وأنا أقطب جبيني: آه.. تقصد الدكتور محمد سليم العوا.. أعرفه منذ زمن فهو شخصية شهيرة فضلًا عن أنه من المحامين الكبار في مصر، كما أنه مفكر إسلامي شهير وقد كان محاميًا للإخوان في القضايا العسكرية عام 1995 وما بعدها وأظن أن إخواننا يلجئون إليه في الملمات.

تدخل المهندس ممدوح قائلًا: الحاج جودة يسأل عن صلتك أنت به؟

قلت متعجبًا: صلتي به جيدة.. ولكني لا أفهم مغزى السؤال!

أجاب المهندس ممدوح: يا أستاذ ثروت، هناك أمران: الأمر الأول هو أن الأخ سليم العوا نشر مقالًا في جريدة الأهرام أشار فيه إلى قرار منعك من الخروج من بيتك.. فكيف عرف سر هذا القرار رغم أنه من الأسرار التنظيمية التي لا يجوز البوح بها أبدًا؟ فهل أنت الذي أخبرته بهذا القرار؟

أما عن الأمر الثاني فهناك من أخبرنا بأنك تتردد على محاضرات الأخ سليم في جمعية مصر للثقافة والحوار؛ ولذلك نريد أن نعرف منك صحة هذا الأمر.

أجبت وأنا أبدي تعجبي: أما عن الأمر الأول فأريد أن أسأل بدوري: هل قال لكم الدكتور سليم إنني أنا الذي أخبرته عن أمر منعي من الخروج من بيتي؟

قال الحاج جودة: لا لم يقل لنا ولم نسأله...

فقاطعه المهندس ممدوح موجهًا الحديث لي: ولكن منطق الأمور يقول إنك أنت الذي أخبرته.. وإلا فمن الذي أخبره إذن؟

قلت مستفهمًا: «يعني هذا تخمين أو حدس اعتمد على منطقك أنت هه؟».

قال: نعم.

قلت: هل من الممكن أن يكون أحد من الإخوان ممن يرتبطون معه بصلة قوية قد أخبره؟ هل هذا وارد أم أنه مستحيل؟

فقال: وارد طبعًا.. أنا قلت إن ما لدينا في هذا الشأن هو مجرد حدس.

قلت بحسم: وهل يجوز يا مولانا في هذا الموضع، موضع الحكم بين الناس، استخدام الظن أو الشك أو التأويل أو التخمين؟ (إن الظن لا يغني من الحق شيئًا).

نظر لي الحاج جودة متفرسًا، ثم قال: يا أستاذ ثروت، أأنت قلت للأخ سليم أم لم تقل؟ هذا هو السؤال!

خطـر لي خاطر بعث داخلي نوبـة من الضحك تحكمتُ فيها وكتمتُها قبل أن تخرج إلى الحياة ثم قلت: أقسـم بالله يا حاج جودة إنني لم أقل للأخ سـليم شيئًا عن هذا القرار.

بـدت الحـيرة على وجـه الحاج جـودة وأخـذ ينظـر إلى يمينه تـارة حيث المهندس ممدوح وإلى يسـاره تارة أخرى حيث الأسـتاذ مجدي وكأنما يستنجد بهما، ثم قال وكأنه يتأكد: أنت أقسمت... هه؟

قلت: نعم أقسمت.. ثم استطردت: وأنا صادق في قسمي.

حملـق الحاج جـودة في وجهـي لبرهة كأنما يسـبر غوري، ثم قـال: ننتقل للنقطة الثانية.. هل تتردد على الجمعية الخاصة بالأخ سليم؟

قلت وكأنني أضيف إلى معلوماته: تقصد جمعية مصر للثقافة والحوار طبعًا.

قـال وهـو يقدح زناد فكره: نعم هي.. أليس كذلك يا ممدوح؟ هي جمعية الحوار والثقافة بالقطع... أم هناك جمعية غيرها يا ممدوح؟

قال ممدوح مؤكدًا: طبعًا هي، فلا يوجد غيرها.

قلـت متباهيًـا: أنا عضو في هـذه الجمعية وأحضر كل محـاضرات الدكتور سـليم وهو يعطينا محـاضرات في الفقه والمذاهب الفقهيـة ويحدثنا عن المعتزلة والأشاعرة والشيعة وهي محاضرات رائعة ويا ليت الإخوان كلهم يحضرونها.. أتمنى أن تزورنا فيها يا حاج جودة وأثق أنك ستستمتع أيما استمتاع.

قال الحاج جودة ممتعضًا وقد بدا الاستنكار على وجهه: معتزلة! أشاعرة!

مـا لنا وهذه الأشـياء يا بني.. هذه أشـياء تفتـن العقول.. من أراد الدراسـة فليذهـب إلى الأزهـر حيث العلـم تمامًا كما فعل المهندس ممدوح الحسـيني.. أخـوك ممـدوح لديه أضعـاف العلم الذي عند سـليم هذا.. يـا أخي خذ من ممدوح.. خذ من إخوانك فهم ينهلون من معين البنا وما أدراك ما معين البنا ولا تأخـذ أبـدًا من خارج الإخـوان مهما يكن قدر من سـتأخذ منه.. ثم هل استأذنت أحدًا قبل الذهاب لهذا الرجل؟

قلت وأنا أتلكأ في الإجابة: لا لم أسـتأذن، فهذا محض نشـاط من حقي أن أمارسه كما أشاء.. فكما أذهب إلى النادي وإلى المصيف وإلى الـ ....

قاطعنـي قائـلًا: يا أسـتاذ، ألا تعلـم أن كل حركة مـن حركاتك يجب أن تكـون تحـت نظر الجماعة وموافقتهـا.. ألا تعلم أنك يجب أن تسـتأذن في كل شيء.. ثم استدار لممدوح قائلًا: أهملتم التربية يا باشمهندس.. وعاد بوجهه إلى ناحيتـي مكمـلًا: ألا تعلـم أن الأخ «سـليم» هـو الذي حـرض مجموعة الوسط على الإخوان وأصبح محاميهم؟ فكيف تذهب إليه وقد فعل هذا؟!

قلت وأنا أبدي اندهاشي: معقولة! أفعل هذا؟

وبطريقـة أقـرب للاسـتنكار قـال ممـدوح الحسـيني: أو لم تعلم هـذا يا أخ ثـروت.. أو لم تسـمع عنه أو لم تقـرأ في الصحف عن رعاية سـليم العوا لهؤلاء المطاريد.. أو لم تعرف أن المستشار «مأمون» لا يحب هذا الرجل لأفعاله تلك؟

قلت بحسم: هذه موضوعات لا نتحدث فيها ولم يثرها أحد في الجمعية.. كـما أننـي لا أهتـم بتداعيات موضوع الوسـط.. ثم إن مسـألة حب المستشـار

مأمون له أو عدم حبه هي من خبيئة نفسه.. يا باشمهندس أنا لا أعلم خائنة الأنفس وما تخفي الصدور.. وحتى لو كان المستشار لا يحبه فمالي أنا وهذا الموضوع؟

زم ممدوح شفتيه ثم قال: دعك من الحب والكره.. ثم استطرد مستفهمًا: ولكن مجموعة الوسط أعضاء في الجمعية، أليس كذلك؟

قلت: ليسوا أعضاء فقط ولكن أعضاء في مجلس الإدارة أيضًا.. هل في هذا شيء؟

وكأنما ظن الحاج جودة أن إجابتي هذه هي الحبل الذي التف حول عنقي.. وأنه آن الأوان لإنهاء المحاكمة باعتراف رسمي فتدخل موجهًا حديثه للمهندس ممدوح: اقرأ يا ممدوح الاتهام الثاني.

نظر ممدوح في ورقة أمامه وقال وكأنه ينطق قرار اتهام: توافرت أدلة في حق الأستاذ ثروت على أنه على صلة قوية بمجموعة حزب الوسط ويتردد عليهم بانتظام وذلك بالمخالفة لقرار الحاج مصطفى وقرار المستشار مأمون الهضيبي بمنع كل الإخوة من التواصل مع هؤلاء بأي صورة ومنع كل الإخوة من إلقاء السلام عليهم أو رد السلام إذا التقوا بهم قدرًا في أي مكان بلا ترتيب مسبق.

نظر إليَّ الحاج جودة من وراء نظارته متخابثًا ثم قال: ها.. ماذا ستقول في هذه يا أستاذنا؟ أظنك الآن قلت بفيك إنك تقابلهم في جمعيتهم وطبعًا تجلس معهم وتشاطرهم الحديث.

كانت نظرة الحاج جودة المشوبة بابتسامة نصر توحي بأنه حاصرني وأنني لا محيص سأقع في حفرة سؤاله مهما حاولت النجاة.

لم أنتظر أو أتمهل في الإجابة فقد بادرته قائلًا: يا حاج جودة سؤالك يحتاج استفهامًا مني.

ـ استفهم كما تشاء.

أولًا أريد أن أعرف متى صدر قرار الحاج مصطفى والمستشار مأمون؟ ومن الذي قام بإبلاغي به ممن هم أعلى مني في التسلسل التنظيمي ولهم عليَّ حق الطاعة؟

ـ صدر منذ بداية الأزمة التي يعرفها الكل ولا يجهلها أحد.. وتم إبلاغ المناطق كلها به.

ـ عفوًا يا حاج أنا أعرف كل تفصيلات الأزمة وأعرف غضبة إخواني على تلك المجموعة بل انعقدت كتيبة عندنا حضرها الأستاذ مسعود السبحي سكرتير المرشد وشدد النكير فيها على الوسط ورجاله وعاب عليهم خروجهم عن جادة الصواب وحكى لنا عن نزقهم وتشهيرهم بالجماعة في الصحف، والأكثر من هذا تقابلت ومعي بعض الإخوة مع المستشار مأمون وحكى لنا أمر هذا الانشقاق لكن لم يقل أحد شيئًا عن تلك المقاطعة.. فقط أخبروني عن أن الدكتور السيد عبد الستار المليجي ترك الإخوان إلا أننا يجب أن نقابله بالتوقير اللازم وهو ليس من مجموعة الوسط.. ولذلك أريد أن أعرف من الذي أبلغني بهذا القرار؟ في القانون يا حاج (لا عقوبة إلا بنص)... وفي الشريعة.. ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

التفت الحاج جودة للمهندس ممدوح قائلًا بنفاد صبر: ما الحكاية يا باشمهندس ألم تخبروا الإخوة بالقرار؟

قال ممدوح بصيغة التأكيد: لا طبعًا... الكل يعرف... فلقد طلبنا من كل مسئول شعبة إبلاغ شعبته.

وعلى الفور تناولت هاتفي المحمول وأعدت له بطاريته التي كنت قد انتزعتها لدواعي الأمن وناولت الجهاز لممدوح وأنا أقول له: اتصل بمسئول شعبتي وقت أزمتنا مع الوسط ودعه يحضر هنا ونقسم كلانا على ما إذا كان قد أبلغني أم لم يبلغني.

فقال ممدوح: بل سأستفهم منه بطريقتي... انزع بطارية هاتفك مرة أخرى يا أخي.. ثم أمسك بورقة وقلم وكتب بضع كلمات وخرج مسرعًا من الحجرة وحين عاد بعد دقيقة قال موجهًا حديثه للحاج جودة: أرسلت أحد الإخوة من العاملين بمكتبي بورقة فيها هذا الاستفهام وسيحضر بالإجابة فورًا.

تنهد الحاج جودة: وأخرج علبة دواء من جيبه وأخذ من العلبة حبة صغيرة وضعها تحت لسانه... فقال له المهندس ممدوح: أجهدناك يا حاج كان من المفروض أن يكتب لنا الأخ ثروت ردوده دون أخذ ورد ومناقشة وجدل لكن أظن أن المناقشة أفضل كي يستريح الأخ ويعلم أن العدل سيأخذ مجراه.. فلا تؤاخذنا.

قال الحاج جودة وهو يزدرد الكلام: لا أبدًا هذا أفضل... لكن يا أخ ثروت لا داعي لتحبيكها... أنت بين إخوانك ولست في محكمة.. يعني لا داعي لإصرارك في كل نقطة على أن تناقش وتسأل عن الأدلة وما إلى ذلك... اجعل بساطك أحمدي وصل على النبي وفضفض.

لم أرد عليه إلا بابتسامة غاضبة مقتضبة... فعقب المهندس ممدوح قائلًا: العمل يترك أثره على صاحبه يا حاج.. فالمهنة غلابة... والمحاماة تركت بصمتها على أخينا الحبيب... عمومًا سنستريح إلى أن يأتي الرد.

شرد ذهني وأنا أنتظر في مكاني عودة الرسول وكأنني كنت في عالم آخر لا صلة له بهذا العالم أو كأنني في جب سحيق انقطع عن الدنيا وما فيها، وحين التفت بعيني وخرجت ببصري إلى العمارة المواجهة رأيت قفصًا للعصافير معلقًا في إحدى الشرفات، فعادت ذاكرتي القهقري حينما قال لنا المستشار مأمون الهضيبي عن مجموعة الوسط إنه يستطيع أن يجعلهم يسيرون في الطرقات «بلابيص»!! ترى لماذا كان الرجل متأكدًا من سطوته واثقًا في تهديداته؟!!... ألأنه هو ومن سبقه من الآباء الأولين ممن كانوا على نهجه جعلوا من أعضاء الجماعة مجموعة من العصافير كتلك العصافير التي أراها الآن؟ وأحكموا عليهم القفص.... لو فتح أحدهم الآن هذا القفص للعصافير فإنها حتمًا لن تغادر ولن تطير فقد أصبحت مهيضة الجناح... لن تستطيع الانطلاق فهي لم تعرف الحرية من قبل ولم تتعلم الطيران.. وإن غادرت وقعت وتهشمت، يبدو أنني لم أستطع الخروج من قفص الإخوان خوفًا من الحرية، لذلك عدتُ من جديد وأنا ألتحف حجة واهية كأنها ملاءة هواء.. علها تقنعني بالبقاء في ذلك القفص الذهبي الذي طرزوه بالإسلام وزينوه بالخلافة وأستاذية العالم فخلبوا لبي..واستولوا على مشاعري... وهكذا وقع العصفور أسيرًا في القفص، وقع حينما استلبوا مشاعره ودغدغوا عاطفته وأحاسيسه الغضة النقية، وإذ يدخل الواحد منا إلى القفص يصبح بَضعة

منه... حيث يتزوج من الإخوان، ويعمل عند أحد من الإخوان، ولا يصادق إلا من الإخوان، ويستأجر شقته أو يشتريها من أحد من الإخوان.. فيكون جاره إخوان، وزميله في العمل إخوان، وصهره إخوان وهلم جرًّا.. يعيش في دائرة من الإخوان لا يعرف غيرها... أنظر إلى ممدوح الحسيني نفسه... الذين يعملون عنده إخوان... والذين يقطنون في عمارته بالحي الثامن إخوان، وعديله إخوان، وجيرانه إخوان.... وهكذا الكل..انفصلنا عن المجتمع وكأننا نعيش في جيتو.. لنا خصوصياتنا وأسرارنا وقواعدنا... دولة داخل الدولة وليس تنظيمًا في الدولة..!! لذلك صدقت يا هضيبي.. لو خرج عصفورك من القفص فإن أوامرك ستسري على الجميع... سنقاطعه ونزدريه وسنطرده من عمله وسيخاصمه جيرانه... لذلك سيمشي في الطرقات بلا غطاء فقد استتر بالإخوان زمنًا ولم يعرف غيرهم وها هم يخلعونه.. ولكن.. ألستُ مختلفًا عن هؤلاء؟ فلماذا أراني مكبلًا في قفصهم لا أستطيع مغادرته؟ لم أتزوج ابنة أو شقيقة أحد منهم.. وليس في مكتبي قضية من قضاياهم تغل لي مالًا اللهم إلا القضايا التطوعية التي أنفق عليها أو قضايا المجاملات التي أتورع عن تقاضي أتعابها.. ولم أسكن في عقاراتهم ولم أجاورهم ومعظم أصدقائي من خارج الإخوان.... هيا قم أيها الطير الجريح واقفز من قفصك وطِرْ... أجنحتك قوية وستحملك... أنت ما جَرَعْتَ منهم إلا المشقة والأحزان، وما أضافوا إليك إلا هذا القيد الذي يكبلك.. حتى إنك عندما كنت تبحر في طريق الدعوة كنت تخطب في المساجد بعيدًا عنهم... طِرْ واخرج من قفص التنظيم إلى سماء الدعوة، فالطير لا يصدح بالغناء الشجي إلا وهو على الأغصان حرٌّ..

أفقت من شرودي على صوت المهندس ممدوح الحسيني وهو يقول: صح النوم يا أستاذ ثروت.. فنظرت إليه مبتسماً، وتحشرج صوتي وأنا أقول: لم أنم.. ثم تنحنحت.

فقال الحاج جودة وهو يتضاحك معي: هنيئًا لمن أخذ عقلك يا سيدي... فنحن نحدثك من دقيقة وأنت سارح في ملكوت الله... لقد جاء الرسول بالرد يا أستاذنا.

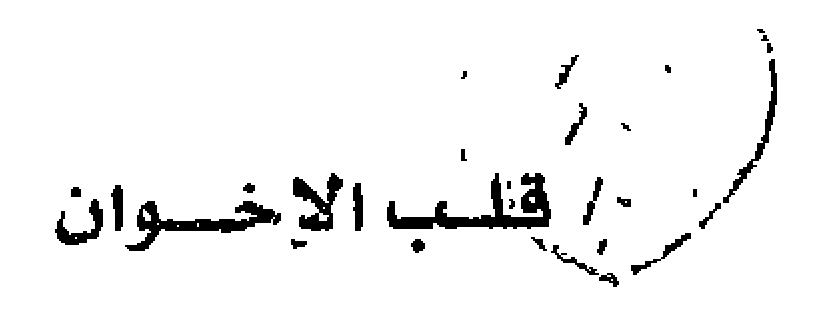
قلت بصوت خشن يشبه صوت من أفاق من غيبوبة فوجد ريقه قد جف: وأنا أنتظر من يقرأ لي هذا الرد .

فأمسك المهندس ممدوح الورقة وأخذ يقرأ من خلال نظارة القراءة: بعد السلام عليكم... قمت بإبلاغ كل الشعبة بالقرار وكان ذلك في المعسكر السنوي للشعبة الذي تم في رأس البر عام 1996 ... نظر لي الحاج جودة وزفر زفرة كأنها مقدمة بركان بدأ في الغليان.. إلا أن المهندس ممدوح أكمل القراءة وهو يتلعثم: وللعلم لم يكن الأخ ثروت حاضرًا في هذا المعسكر فلم يخبره أحد.. توقيع.. فلان الفلاني.

ابتلعني الحاج جودة بعيون حانقة ثم قال وهو يكاد يتميز من الغيظ: ولكن ألم تعرف خبر هذا القرار من أي أخ من الإخوة؟

قلت بثقة: سمعت به من بعض الإخوة من عين شمس.. منطقتكم يا حاج جودة.

فغر المهندس ممدوح فاه من الدهشة ورفع الأستاذ مجدي حاجبيه بعد



أن التزم الصمت طول الجلسة ثم قال وكأنه استغلق عليه الفهم: ها.. أنت عرفت إذن!! فلماذا الإنكار ووجع الدماغ والكلام عن الأدلة وما شابه؟ حرام عليك يا رجل.

ابتسمت ابتسامة عريضة وأنا أنظر ناحية الحاج جودة، ثم قلت له بهدوء: يا حاج... أعطني عقلك دقيقة... لو جاء لك أخ تثق فيه من منطقة أخرى وليس لك عليه حق السمع والطاعة وقال لك إن الإخوان أصدروا أمرًا للإخوة عندنا بعدم الإدلاء بأصواتهم في الانتخابات البرلمانية أو المحليات... فهل ستنفذ هذا الأمر؟

قال وهو يغوص في تفكير عميق: لا طبعًا... يجب أن يتم إخطاري بالقرار رسميًّا وفقًا للتسلسل التنظيمي.

قلت وأنا مازلت مصطحبًا ابتسامتي أستخرج بها من داخلي ما تبقى في قلبي من الصبر: الله ينور عليك... هذه كتلك... انظر يا حاج.. أنا رجل تنظيمي جدًّا.. إذا لم يأت لي القرار رسميًّا ومن الشخص المنوط به إبلاغي فلن أنفذه أبدًا حتى ولو أخبرني به المرشد شخصيًّا... نحن يا حاج في المنطقة تنظيميون للغاية هكذا تعلمنا وهكذا درجنا.

ضحك المهندس ممدوح الحسيني منهيًا هذا الجزء من المحاكمة وهو يقول: عندك حق والله هذا كلام في الصميم.

أشار له الحاج جودة كي ينتقل للجزء الثالث من المحاكمة فلبس ممدوح نظارة القراءة وتلا من ورقة أمامه « خالف قرار الحاج مصطفى المتضمن

منعـه مـن الخروج مـن بيتـه فى أثنـاء انتخابـات المحامين وخرج طـوال يوم الانتخابات... وقد شهد عدد من الإخوة أمام المستشار مأمون أنهم شاهدوه وهو يحرِّض المحامين ضد قائمة الإخوان في هذا اليوم».

وبعـد أن تـلا المهندس ممدوح الشـق الثالث من قرار الاتهـام خلع الحاج جودة نظارته الطبيـة وأخـذ يمسـح عدسـتهـا بطـرف قميصـه وهو يقـول: ما رأيك يا أستاذ ثروت في هذا الكلام؟

قلت وأنا أرفع كتفي وأمد شفتي وأقلِّبهما: والله يا حاج أنا في قمة العجب والأسـف والألم مـن وجود هـذا الاتهام في هـذا التحقيـق؛ إذ كان يجب على الإخوة التحقيق مع من زعم هذا الأمر الكاذب ومعاقبته.. ومع ذلك فليجب المهندس ممدوح فإني أفوضه في الإجابة وأثق في دينه وخلقه... واسـتطردت بنبرة استولت عليها سحابة من الحزن: ولله الأمر من قبل ومن بعد ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وعندما همَّ المهندس ممدوح بالإجابة أسـكته الحـاج جودة وقال وقد بدا أنـه تأثر مـن لهجتي: أعرف يا أخ ثـروت... حكى لنا المهنـدس ممدوح أنك كنـت عنـده في هذا اليوم والحاج مصطفى يعلم هـذا وقال إننا يجب أن نضع هـذا الأمر في الاعتبار في أثناء التحقيق معك... والله لسـوف نقتص لك أيها الأخ الكريم وسترى العجائب التي ستبهج خاطرك وتسعد قلبك... ولكن لي عتاب عليك.

قلت بمشاعر الابن المفعمة بالصدق والمتخمة بالحنان: اعتب كما تشاء يا حاج.



قال هامسًا وكأنما يخشى أن تقع كلماته على أذن غريبة: هل يصح أن تكتب في الصحف منتقدًا إخوانك؟... هل هذه أخلاقنا التي تربينا عليها؟ لقد كانت مقالاتك هذه جزءًا من التحقيق ولكننا أغفلناها حرصًا عليك وعلى وجودك بالجماعة.

قلت أبرئ نفسي: لم أنتقد الجماعة ولكن انتقدت بعض المحامين من الإخوان.

قال وكلامه يزداد همسًا: الجزء يساوي الكل من انتقد البعض فقد انتقد الكل... اسمح لي يا أستاذ.. أنت أخطأت.

قلت وأنا أستدرجه لمنطقي: هل لديك شك يا حاج أنهم ظلموني ظلمًا بينًا؟ لقد عاينت بنفسك ورأيت أنهم قدموا ضدي شكوى كاذبة تزعم أني خالفت قرار الحاج مصطفى وخرجت من بيتي... وليس من رأى كمن سمع... أليس هذا هو الظلم بعينه؟

ـــ نعم يا بني... أوافقك.. هو الظلم بعينه، ولكنه لا يعطي لك الحق في نقد الجماعة جهرًا.

كيف هذا يا حاج بالله عليك؟! إن الله يعطيني إذا ظُلمت الحق فيما هو أعلى من النقد ألم يقل الله سبحانه وتعالى: ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (النساء: 148).

عمومًا سيكون هذا محل نظر إن شاء الله والله ولي التوفيق.. سعدنا بك اليوم وأرجو أن تغفر لنا ولإخوانك وتسامحنا... صحبتك السلامة.

وقفت وقفة اطمئنان وسلمت عليهم جميعًا وقلت وأنا أهم بالانصراف: وعليكم السلام وأتمنى من الله أن تقيموا العدل.. ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى.

ستری العدل الذي لن تنساه أبدًا وستشهد لنا إن شاء الله.

ـ ومتى سيصدر القرار إن شاء الله؟

ـ سيصدر أقرب مما تتوقع فدع أمرك للذي لا يغفل ولا ينام.

خرجت إلى الطريق بعد أن أمضيت ثلاث ساعات كاملة أو أكثر قليلًا داخل محكمة الإخوان وكان الظهر قد اقترب فتوجهت إلى أقرب مسجد كي أصلي الضحى وأنتظر الظهر، دخلت المسجد وأنا أتحرق شوقًا لمعرفة الحكم الذي سيصدر من المحكمة الإخوانية، وكانت نفسي تحدثني بأنني هزمت فلول الظلم لا محالة.

الفصل الثامن

الطير والمصيدة

«تستطيع أن تحيا بعقلية النملة ولكنك ستعيش أبد الدهر مخبوءًا خافت الأثر بين الحفر حتى ولو كنت في قمم الجبال.. أما إذا امتلكت عقلية الطير فثق أن العالم سيسمع تغريدك وأنت تحلق في السماء».

ذات ظهر مشمس من أحد أيام شهر يوليو القائظ الذي هلَّ إلى الدنيا عقب جلسة المحاكمة الإخوانية التي كنت أنتظر نتيجة الحكم فيها، وجدتني مشتت الذهن مضطرب الوجدان ممزق الهوى.. أأنتظر في الجماعة وأصطبر عليهم؟ أم أهجرهم مليًّا؟ أأسرع في مغادرتهم توًّا؟ أم أتمهل وأنتظر نتيجة المحاكمة؟

بعد أن خف وطيس الحر.. وأدى الناس صلاة العصر.. رأيت أن أجمع أشلائي وأرتقها رتقًا كي أذهب لزيارة الدكتور توفيق الشاوي في بيته حتى

أستأنس برأيه فيما حدث، فوجدته طريح الفراش بعد أن دهمه المرض، فاكتفيت في أثناء الزيارة بالدعاء له ثم انصرفت... خرجت من بيت الأستاذ وأنا أجرجر من خلفي خيبة الأمل، فقد كنت أتوق لسماع كلماته النيرات التي يضيء بها طريقي ويبث من خلالها في ضميري لآلئ الحكمة والمعرفة.

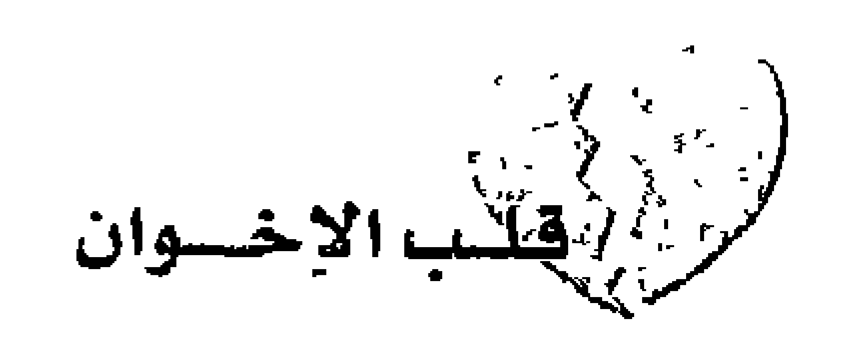
جلست في سيارتي ساكنًا كأنني ألوذُ بها وأتحدثُ معها وأبثها أشجاني.. وبعد هنيهة أخذت أستمع لصوت الشيخ مصطفى إسماعيل وهو يتلو بصوته الشجي المعبر آيات من القرآن الكريم، فانتابتني لحظة صفاء صوفية جعلت قلبي يقفز من مكانه ويحلق بعيدًا عني وكأن ذاتي انفصلت عن ذاتي، كان الشيخ يتلو من سورة النمل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (النمل:18). أبدع الشيخ وهو ينطق بشكل تعبيري فذ كلمة (نملة) إذ كان ينطقها بشكل يوحي بقلة شأن هذه النملة أو ضآلة حجمها، ومع ذلك فإنها كانت حريصة كل الحرص على سلامة التنظيم الذي يحويها ويأويها.. فهذا هو جل همها وغاية مرامها وهدفها الأسمى الذي تتحطم رقاب أمم من النمل فداءً له... فمساكنها ومساكن تنظيمها النملي المحكم ذات الحبكة المذهلة هي أولوية النمل الذي تتقاصر من دونه الأولويات، لا يهم النمل في قليل أو كثير أن تجور نملة على حق نملة أخرى أو تفتئت على طعامها ما دامت مساكنها بخير حال، فجرى في خيالي أن فكرة التنظيم وأهمية هذا المسكن التنظيمي قد استولت على عقلية الإخوان في عصرنا الحالي، فأصبحت الجماعة تعيش بعقلية النملة التي تخشى أن يتحطم بنيانها تحت غوائل الأيام!!.. استغربت

الفكـرة عندما قفـزت إلى عقلي وأخذت أُقلبها رأسًـا على عقب وأسـتنطقها وأستشرف معانيها.

كانت فكرة استعادة الخلافة الإسلامية ذاتَ يوم هي الفكرة الحاكمة عند الإخوان، وكان حلم الوصول إلى أسـتاذية العالم هو الخاطر الذي تعيش من أجلـه، وكان بناء الفرد المسـلم هو الوسـيلة.. فإذا بالحـال يتبدل ومآل الحلم يتغير، ليصبح التنظيم وبنيانه هو الهدف والحلم والخاطر والأمل.. وأصبحت الوسـيلة هي بناء الفرد المطيع القادر على القيام بواجبات الجندية التنظيمية.. مـن أجل ذلك لا ضـير عند التنظيم أن يسرق الأخ أخـاه أو يغتابه أو يظلمه أو يأكل لحمه حيًّا أو ميتًا طالما أن التنظيم يمضي سالمًا في طريقه!! بيد أن هذه العقليـة ذاتها لا تقبل أبدًا أن يمس أحدهم أمـن التنظيم ،وإن فعل.. فالويل والثبور وعظائم الأمور.. اختلفت الأولويات فاختلفت المواقف.

وعندما وصل الشـيخ في تلاوتـه لقوله سـبحانه وتعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ۝٢١ فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ۝٢٢ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ۝٢٣﴾ (النمل:20-23)

قلت سـبحان الله.. ما أبعد الشُّـقة بين النملة والهدهد.. فهذه نملة تدب على الأرض، ولأنها عاشـت من أجل تنظيمها ومسـاكنها فإنها خشيت على هذه المسـاكن من النبي سليمان وجنوده، وهذا هدهد يحلق في السماء... عاش من



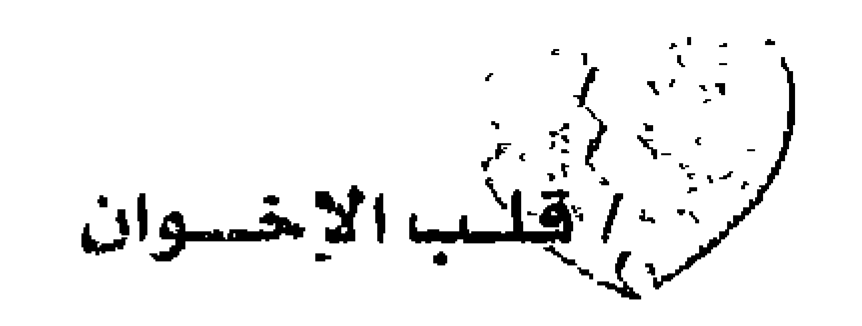
أجل الدعوة والتوحيد فإذا به ينطلق إلى آفاق بعيدة دون أن يتلقى تكليفًا أو أمـرًا من قائده الأعلى الذي هو نبي الله سـليمان عليه السـلام، بل ترك مكانه وأخذ يتفقد أمر التوحيد في العالم كله.. طار بملكاته وقوته وموهبته إلى حيث يسـتطيع جناحه أن يحمله ولم يخش من سـليمان الذي كان قد أمره أن يقف في مـكان محـدد، وغاية مـا فعله حينما عـاد أن مكث غير بعيد حتى يسـتطيع أن يخبر النبي الغاضب بأمر ملكة سـبأ وعبادتهم للشـمس من دون الله.. لم يزين الهدهـد كلامـه أو يغلف عباراته بتفخيـم النبي وتعظيمه، إنـما فاجأه بكلمات تامات، في شـجاعة وقوة ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ (النمـل:22) لم يقـل له أنت نبي الله تعلـم أكثر مما أعلم وترى ما لا أرى، ولكنه صدح بالحق وغرّد بقول تهتز له عروش ملوك الدنيا بأسرها: أنا أعرف ما لا تعرفه!!

تأججـت في داخـلي ثورة لم أتحكـم فيها فارتفع صـوتي وكأني أحدث كل الإخـوان بـل العالم أجمـع: أي حرية تلك... بـخٍ بخٍ لهذه الحرية!! وسـحقًا لعبودية أصحاب النملة!.

جمحت نفسي في ثورتها المخبوءة والتي تكاد تمزق أحشـائي: ترى لو كان هـذا الهدهـد من جنود الإخوان وخالف أمر المرشـد أو أمر المستشـار أو أمر الحاج فلان.. هل كنا سنقرأ في قابل الأيام كيف كانت عاقبة من سعى إلى أمر الدعوة دون تكليف من المرشد الذي هو في نظر الإخوة يعلم أكثر من الجميع ويفهم ما لا يفهمون.. هل كنا سنتحسر على ذلك الذي ادعى أنه أحاط علمًا

بما لم يحط به (إخوانه فوق)... ابتسمت لنفسي ساخرًا: (إخوانًا فوق يعلمون ما لا نعلم ويرون ما لا نرى) هـه.. تلك العبارة البغيضة التي تبرر تلك السلطة المستبدة التي تهيمن على مقادير الأمور في الجماعة.. والإخوة كلهم لا يعلمون أن الإخوة فوق لا يعلمون شيئًا عن شيء اللهم إلا النذر اليسير لأنهم لا يرون إلا بأعينهم فقط.. قاموا بإغلاق عيون الجميع حتى لا يرى أحد إلا ما يرونه هم فخسروا عيونًا بصيرة مبصرة، وكأنهم فرعون المستبد الطاغية الذي قال ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.. أغلق الإخوة عيونهم وكذّبوا أفئدتهم واتبعوا قرارات ما أنزل الله بها من سلطان بعد أن غُمّي عليهم أن قمة إخوانهم يكتنفها الضباب والغيوم من كل جانب، وتحج إليها السحب من كل صوب وحدب فتحجب عنهم الرؤية.

غامت الدنيا أمام عيني وأنا أستعيد شريط ذكرياتي مع الجماعة.. استدعيت في خيالي أيام النور، ذلك النور الذي خرج من مشكاة صافية هي مشكاة الدعوة الخالصة حيث الوسطية والاعتدال والفهم، فرأيت البنا والتلمساني والغزالي والقرضاوي وسيد سابق وفريد عبد الخالق وتوفيق الشاوي وآخرين على نهجهم... واقتحمت بخيالي أيام الجمود والتصلب والبلادة والطاعة العمياء التي تمحو العقل وتجعل القلب رهينة في غيابات الجب التنظيمي..استمر صوت الشيخ مصطفى إسماعيل يداعب مشاعري في حين كانت الذكريات تتداعى إلى قلبي، فتذكرت تلك الأحداث التي رافقت خطواتي الأولى في الجماعة والتي كانت بالنسبة لي وقتها كالطلاسم إذ لم أكن أفهم مغزاها وأسبابها... تذكرت واقعة طريفة، عندما طاف ذكرها في عقلي ضحكت بصوت مسموع وبقلب موجوع... كنت قد ذهبت في



بداية التحاقي بالجماعة إلى مدينة رأس سدر في معسكر تأهيلي من معسكرات الإخوان، وهناك حيث البحر بمده وجزره، والهواء بطلاقته وعنفوانه، والطبيعة الساحرة والليل الذي تسبح فيه النجوم قضينا ليلتين في تقشف وخشونة وعبادة، وفي الليلة الثانية وبعد صلاة العشاء أقام مسئول المعسكر لنا حفلة سمر حيث المسابقات والجوائز والضحكات وأعطى كل واحد من أفراد المعسكر ورقة مطوية ترك له فيها أمرًا يجب أن يقوم بتنفيذه حرفيًا بلا تبديل ولا تغيير، وعندما قرأت ورقتي كان الأمر فيها هو (احمل كوبا زجاجيًا من مطبخ الفيلا التي كنا نقيم فيها واذهب به إلى شاطئ البحر وقم بدفنه تحت كومة رمال.. وإذا جاء لك من يطلب تسليمه هذا الكوب فلا تجبه إلى طلبه مهما كان شأنه ومهما فعل، ثم دافع عن هذا الكوب المخبوء تحت الرمال بكل قوة ثم استخرجه من تحت كومته وعُد به سليمًا إلى حيث مكانه في المطبخ).

وفعلت ما أمرتني به الورقة ولكنني أدركت أن الحيلة ضرورية في هذا الموقف، فقمت بدفن الكوب تحت كومة رمال قريبة من الفيلا، ثم ذهبت إلى مكان آخر وأقمت فيه كومة ظاهرة من الرمال، ووقفت عندها وكأنني أحرس شيئًا ما، وبعد هنيهة وجدت أخوين من الإخوان البارعين في المجال الرياضي أحدهما كان بطل الجمهورية في رياضة الكونغ فو والثاني كان بطل الجامعة في المصارعة الحرة.. اقترب مني الأخوان بحذر ثم قال لي أحدهما وهو يفتعل الجدية: يا أستاذ ثروت نحن نحبك ونقدرك ولكن جاء لنا أمر حاسم أن نأخذ منك الكوب الزجاجي الذي هو تحت هذه الكومة مهما كان

الأمر حتى ولو اشتبكنا معك، فأرجوك قم بتسليمنا الكوب حتى لا يحدث ما لا يحمد عقباه.. فأوهمتهما أنني سأقاوم ثم نثرت على وجهيهما حفنة من الرمال وتركتهما مسرعًا وهما يظنان أنهما نالا مأربهما، إلا أنني توجهت إلى الكومة الحقيقية حيث استخرجت الكوب وذهبت به إلى الفيلا سليمًا في الوقت الذي كان فيه الأخوان يبحثان عن الكوب تحت الكومة المزيفة... يومها قال لي الأخ المسئول على مرأى ومسمع من كل أفراد المعسكر إنني لم أقم بتنفيذ الأمر ولم ألتزم بالسمع والطاعة فقد كان من المفترض وفقًا لظنه أن أدافع عن الكوب بجسدي ولكنني دافعت عنه بعقلي!! وهذا ينتقص من سلوكياتي كأخ عليه السمع والطاعة الحرفية، وعندما ناقشته أبديت رفضي لمنطقه الغريب وقلت له: يا أخي إن سليمان النبي عليه السلام عندما طلب عرش ملكة سبأ قال لمن كان يجلس في مجلسه ﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ حينئذ قال عفريت من الجن صاحب قوة جسدية ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ ولكن الغلبة كانت يا أخي لصاحب العلم والفهم ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ﴾ ...وقبل أن أستكمل المناقشة والاستدلال أبدى المسئول تعجبه واندهاشه وقال: يا أخي الأخ يسمع ولا يناقش، فمن ناقش هلك!! (أصبح مسئول المعسكر بعد ذلك قيادة إخوانية كبيرة أما الأخوان اللذان حاولا الاستيلاء على الكوب الزجاجي فقد تركا الجماعة بعد سنوات قليلة من انخراطهما فيها إلى غير رجعة).

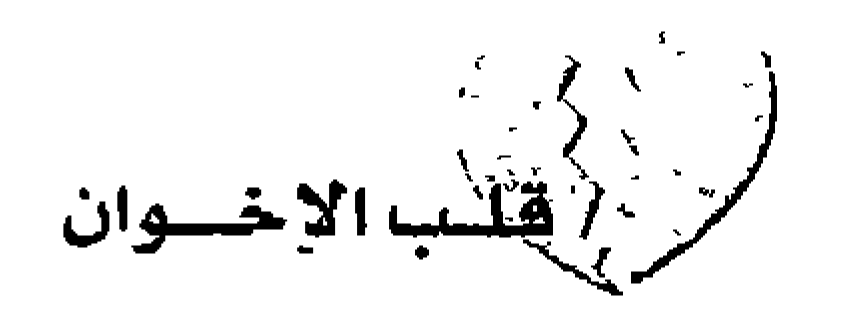
وبعد سنوات علمت بمحض الصدفة أننا عندما عدنا إلى القاهرة كتب هذا المسئول توصية مفادها أنني لا أصلح كأخ عامل؛ حيث إنه لا تتوافر بشأني شروط الانخراط في الجماعة لأنني أفكر، وكأنما كان التفكير ضد الإخوان!! إلا أن علاقتي وقتها بمختار نوح وبقيادات أخرى في الجماعة ألقت بهذا التقرير في سلة المهملات وجعلته كالهباء المنثور... طاف صوت الشيخ مصطفى إسماعيل بأذني وأنا أهمهم بصوت خافت :

السمع والطاعة المطلقة هما ديدن الإخوة.. رفعت الجماعة من شأن تلك الخصال فتمت عسكرة الجماعة، وتمت مصادرة عقلها... أعتب على نفسي أن تركتني نهبًا لمن لا يدركون قيمة العقل وقيمة النفس البشرية التي كرَّمها الله سبحانه وتعالى... وبألم ممض وقلب متوعك أخذت أحدث نفسي وأقول لها: عشرات المواقف مرت عليك يا ثروت دون أن تثور ودون أن تحرك نفسك بعيدًا عن تلك الجماعة، وقفت في مكانك ساكنًا فلم تغضب لنفسك ولو لطرفة عين لأنك كنت تستشرف فيها ومن خلالها الإسلام الصحيح والصحبة الطيبة، ولكن غلبت عليهم مفاهيم دخيلة لم تكن من سمتهم.. فهموا الطاعة على غير نسقها الصحيح... هل تذكر ذلك اليوم الذي طلبوا فيه منك أنت وأفراد أسرتك الإخوانية أن تسيروا من منطقة الزيتون إلى مسجد عمرو بن العاص بمصر القديمة سيرًا على الأقدام لا لشيء إلا لتدريبكم على السمع والطاعة بلا مناقشة!!.. هل تذكر عشرات المواقف التي انعدمت فيها العدالة.. فهذا أحمد سيف يخرق كل قواعد الإخوان ويثير امتعاض الجميع ولا يستطيع أحد الاقتراب من حياضه، وهذا الذي أصبح

عضوًا بمجلس نقابة المحامين في قائمة طوسون ثم قام بسرقة عشرات الآلاف من الجنيهات من أموال المحامين والإخوان يعلمون كل شيء عن سرقاته، ولكن لم يفعل أحد منهم شيئًا في مواجهته ولو من باب الحفاظ على أموال استأمنهم المحامون عليها.. هل تذكر مأمون الهضيبي حين جلس في ندوة من الندوات السياسية التي أعدتها نقابة المهندسين عام 1991 حينها أخذ يوجه العديد من الإهانات لكبار السياسيين المصريين وأخذ يمنع هذا من الكلام وذاك من إبداء الرأي، وعندما اعترض إبراهيم شكري على طريقة الهضيبي في إدارة الندوة قال الهضيبي: أنا صاحب هذا المكان وأنا الذي أسمح وأمنع.. وكأنه يتحدث مع مجموعة من التلاميذ الصغار الأمر الذي أغضب الكل منه، ولم يستطع أحد من الإخوان محاسبته رغم الشكوى التي تقدم بها ضده المهندس أبو العلا ماضي.. واسترسلت أفكاري الغاضبة في التدفق إلى أن فرغ النصف الأول من تلاوة الشيخ على جهاز التسجيل، وقتئذ انسكبت ذاتي في ذاتي وعدت من حالة الوجد التي استغرقتني إلى دنيا الناس وأنا أغمغم بصوت شبه مسموع: لك أن تعيش بعقلية النملة أو أن تحلق بأجنحة الهدهد... ونظرت من حولي فإذا قرص الشمس المستدير قد ارتدى غلالة حمراء واصطحب الشفق معه كي ينصرف في موكب الغروب من السماء إلى حيث يشاء الله، فأسرعت بسيارتي إلى بيتي أسابق بها هذا الموكب العجائبي الخلاب.

هدأت زوجي من روعي إذ وجدتني مُتعَبًا قلقًا متهدج الأنفاس :

«اعرض ما حدث على كتاب الله».



«فإن وجدت منهم زيغًا عن الحق فاتركهم..».

«كن مع الله وكن معهم إن رأيت أنهم مع الله... فإن حادوا عن طريق الله فلا تكن معهم».

«الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما أمور مشتبهات».

«ليسوا سواء.... منهم الصالحون ومنهم دون ذلك».

«دخلتَ إلى الإخوان تقربًا لله، فإن خرجتَ فليكن لله».

«عطلتك تلك الأحداث وأوقفتك فلم تستثمر مواهبك وقدراتك في سبيل الله».

«كم طلبتُ منك من قبل أن تظل معهم ردءًا تصدقهم، والآن آن لي أن أطلب منك أن تغادرهم، واحتسب ما حدث لك عند مولاك الحكم العدل اللطيف الخبير».

«وهبك الله مواهب عديدة فكبلوها... فحلِّق في سماء الدعوة من دونهم إن رأيت ذلك.. وهم مع ذلك إخواننا ظلمونا ولكننا لن نظلمهم».

«عشت معهم ولم يعرفوك حقًّا، وسيعرفونك ذات يوم».

«يستطيع المسلم أن يكون أمة... فكن أمة... وكن للحق، ولا تحزن إن جهلوا مقصدك فالله يعلمه».

فاستراحت نفسي وهدأ خاطري واجتاحتني فرحة غامرة لم أدر سببها، ولعلها فرحة السجين الذي اقتربت حريته.. فأمسكت بورقة وقلم وكتبت

خطابًا مطولًا لمختار نوح أخبرته فيه عن تفصيلات تلك الأحداث التي مرت بي وعن تلك المحاكمة الغريبة، وأنهيت الخطاب بعبارات واضحة قلت فيها: « آن لي أن أترك الجماعة بلا عودة فهي جماعة لا يهمها في قليل أو كثير ماذا قال الله وماذا قال الرسول ﷺ، وإنما يهمها فقط (ماذا قال المرشد وماذا قال المستشار)».

وفي اليوم التالي تحدثت هاتفيًا مع صديقي أحمد ربيع المحامي الإخواني وكنت قد انقطعت عنه زمنًا منذ أن تمت الانتخابات، فأسررت له بعبارات موجزة جملة ما حدث لي وما فعلوه معي فأخذه العجب وقال لي: إن ما حدث معك علامة فارقة تؤرخ للجماعة.. ثم أضاف قائلًا والحسرة بادية في صوته المكتوم: أنا أخجل نيابة عن كل أخ حر مما حدث لك، ويبدو أنهم فعلوا ذلك لسبب من اثنين... فإما أنهم جهلوا قدرك فتمادوا... وإما أنهم علموا قدرك فأرادوا أن يقزموك لأن ديدنهم وأد الملكات الذاتية في الأخ حتى يتماهَى في الجماعة ويصبح جنديًا يدين لهم بالولاء والطاعة... واستطرد معبرًا عن أسفه: عبر تاريخي كله في الجماعة رأيتهم يحاربون أصحاب المواهب والملكات بدعوى قتل حظ النفس.. أما الآن فإنهم لا يقتلون حظ النفس فحسب، ولكنهم أيضًا يقتلون الكرامة والرجولة !.

سكت ربيع لبرهة ثم قال بصوت مخنوق: عجوز هي جماعة الإخوان، ولكنهم قدموها لنا في غسق الليل فلم نرها.. زينوها بالخلافة والوسطية والاعتدال إلا أن هذا كله كان زينة لعجوز احدودب ظهرها.. جماعة الإخوان يا صديقي هي تمامًا كما قال الشاعر :

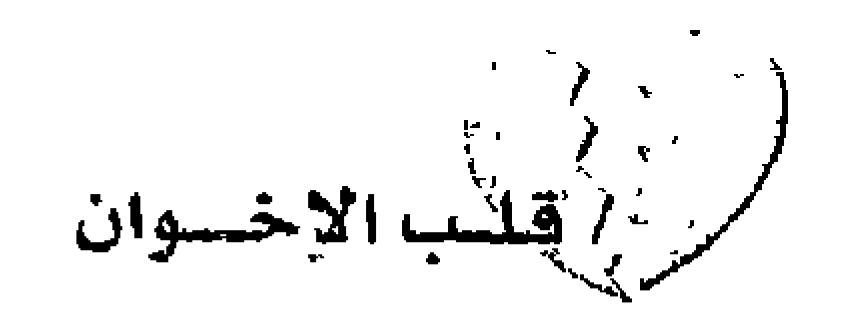
عجـوز يُرجـى أن تكـون فتيـة	وقد غارت العينان واحدودب الظهرُ
تـدس إلى العطـار سـلعـة بيتهـا	وهل يصلح العطار ما أفسد الدهرُ
ومـا غـرني إلا خضـابٌ بكفهـا	وكحـلٌ بعينيهـا وأثوابـهـا الصفر
وجـاءوا بـهـا قبل المحـاق بـليلـة	فـكان محاقـتـا كلـه ذلك الشـهر

فأخبرتـه عـن العزم الذي انتويتـه وعن الخطاب الذي كتبتـه لنوح، فقال والأسـى يملأ جوانحه: أنا أغبطك على الحرية التي سـتنالها، وأتمنى أن أفعل مثلـك إلا أنـك أقوى مني، وقد يصلح الله هـذه الجماعة على يدي أنا وبعض إخواني وقد نعيد لها شبابها وقد نستطيع الانتصار لعقلها وفك الأغلال التي كبلتها.. ودعا لي بالتوفيق وأنهينا الحديث على وعد بلقاء قريب.

وبشـق الأنفس استطعت تهريب خطابي الحاسـم إلى مختار داخل السجن عـن طريق أحـد الجنود الذين تعودنا أن نعطيهم هبـة أو عطاءً ما نظير القيام بهذا العمل...ثم انتظرت سـاعة أو بعض سـاعة أمام بوابة السجن الداخلية على أمل أن أتأكد من وصول الخطاب لصاحبه، وما إن تأكدت حتى تنفست الصعـداء... فقد وصل الخطـاب إلى مختار.. وآن لي أن أغرِّد بعيدًا عن سرب الإخـوان... ولكـن يبدو أن بعضهـم كان قد أحكم التدبـير والمكر وإن كان مكرهـم لتـزول منـه الجبال.. وبعـد أيام بـدأت أحـداث شـيبتني وزلزلت فؤادي.

■■■

بعد أن أقمت الدعوى القضائية الأولى التي تستهدف الإفراج عن مختار نوح والمحبوسين معه، لاحظت أن هناك سيارة (هونداي) فضية اللون تتبعني في الذهاب والإياب بحيث تكاد ألا تفارقني أبدًا.. وكنت أنظر لقائد تلك السيارة وأتفرسه مليًّا على حين غرة منه فأجده شابًّا يافعًا يلبس في كل الوقت حتى في الليل نظارة شمسية عريضة وكأنه يُخفي بها ملامح وجهه.. فلم أحفل بهذا الأمر ووقع في خاطري أن بعض الجهات الأمنية تريد أن تتابع خطواتي كي تعرف مآل القضايا التي بدأت في تحريكها.. ولا أخفيكم سرًّا أنني بذلت جلَّ همي ونزفت جهدي لتأصيل هذه القضايا من الوجهة القانونية... ولكن والحق أقول لم يكن الجهد جهدي وحدي إذ لا أنسى الجهد الذي بذله معي المحامي مصطفى عمر الذي يعمل بمكتب مختار نوح وهو من شباب الإخوان وكان للمناقشات القانونية التي أجريناها مع مختار نوح وخالد بدوي في أثناء زيارتنا لهما أثر فاعلٌ في التكييف القانوني للقضايا... كما تضافرت معنا جهود ثلة من كبار المحامين في مصر منهم المحامي الوفدي العلم الأستاذ محمد علوان وأستاذ القانون النابه دكتور عاطف البنا والدكتور محمد عصفور الفقيه الدستوري الكبير والذي فقدته مصر بعد ذلك في مشهد حف بالنكران والجحود فلم يشهد جنازته أحد ولم يشيعه إلى مثواه إلا قلة من الأوفياء، وكان معنا أيضًا المحامي النابه القدير عصام الإسلامبولي، وكان أن نشرت الصحف خبر تلك القضايا ودارت التكهنات بشأنها وشأن المتوقع منها، وأجرت معي إذاعة لندن حوارًا حول الخلفيات القانونية والسياسية لتلك القضايا، ودارت عجلة الجلسات القضائية... ومرت الأسابيع...



وانشغلت بالمرافعات وكتابة المذكرات والأبحاث القانونية وخلق حالة إعلامية تواكب تلك القضايا وتبرزها للرأي العام.

كنت قد انقطعت عن حضوري اللقاء الأسبوعي لأسرتي الإخوانية رغم تكرار سؤال الدكتور حسن عبد الحليم نقيب الأسرة عني بشكل دوري.. وخفت اهتمامي بنتيجة التحقيق والمحاكمة التي تمت معي خاصة وأن أحدًا لم يحدثني عنها أو يفتح معي حوارًا بشأنها رغم وعدهم المغلظ أن النتيجة ستعلن في غضون أيام قليلة فكان أن نسيت أو تناسيت أمر هذه المحاكمة والمؤامرات التي حيكت ضدي داخل الجماعة، وكان ظني أن الإخوان أغلقوا باب هذه المحاكمة بعد أن تيقنوا من تهافت الاتهامات وعدم صحتها وقلت وأنا أحدث نفسي: يبدو أنهم ثابوا إلى رشدهم.

ومن ناحية أخرى كنت قد اعتدت على هذا الشاب اليافع الذي يراقبني ليل نهار فأصبح وكأنه جزء من حياتي إلا أنني لم أحفل به ولم أحرص على الهروب من مراقبته.

ومع تواتر الأيام انتبهت إلى أن الجدية التي صبغت بها حياتي آنئذ أغلقت خافقي فلم يفتر ثغره عن ابتسامة ولو مصطنعة تنعكس على محياي، الأمر الذي جعلني أبدو أمام الناس جهمًا متجهمًا على غير طبيعتي.

آه أيها القلب ما أشبهك بالأرض.. إذا أنزل الله الماء على الأرض اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج.. والقلب كذلك ينتظر قطرات إذا لم تصل إليه جف وتشقق كالأرض الهامدة.. وكان أول الغيث الذي انهمر على قلبي

قطـرة.. فقد تلقيت خطابًا من مختار أدركت مذ وقعت عليه عيناي أنه يحاول فيـه أن يثنينـي عـن المـضي في قـراري.. قرأت الخطـاب على مهـل إلا أنني لم أتدبر معانيه وكأنني احتجزت عقلي عن التفكر حتى أشـارك الدكتور توفيق الشـاوي في القـراءة فحملـت الخطاب وقلـت لنفسي وأنا أعاتبهـا: آن لي أن أعاود زيارة الدكتور -وكنت أناديه بالأسـتاذ- فقد تعافى من سـقمه وحقت الزيارة، وقد تكون الفرصة حينها سـانحة حتى أتحدث معه باستفاضة وأقرأ معه هذا الخطاب الفريد.. وحدث أخطر وأعمق حوار بيننا.

في حجـرة الصالـون التليـدة ذات الطـراز الفرنـسي جلسـت على كرسي مواجه للأريكة التي كان يجلس عليها الأستاذ، لم أترك شـاردة أو واردة إلا وأخبرته عنها، كانت قسـمات وجه الرجل ترتعش في بعض المواضع وكانت ابتسـامته تنطلق حتى تكاد أن تتحول إلى قهقهـات في مواضع أخرى، وكان يغمغم بعبارات تنم عن الأسى ثم يقول: حقًّا صدق الأولون إذ قالوا: «هَمّ يضحك وهَمّ يبكي».. وعندما أخبرته عن خطاب مختار نوح الذي أرسله لي من سـجنه أشرق وجهه بابتسامة هادئة مريحة ثم قال وهو يخفي دمعة كادت أن تنزلق من عينيه: ظلموه هذا الولد... ولكن الظلم الأكبر سيقع عليه من إخوانـه بعد أن يخرج من محبسـه.. إذا كتـب الله لي عمرًا.. سـأُذَكِّرَك بكلماتي هذه... اسـمع يا بني سيخرج نوح من سجنه إن آجلًا أو عاجلًا ولكن هناك نفرًا من إخوته لن يتركوه وشأنه وسيطردونه حتمًا خارج الجماعة.

قلـت وأنـا أشـكك في توقعاتـه: يطردونه؟!! كيـف يطردونـه؟ يبدو أن فضيلتك لا تعلم أن مختار من المقربين للمستشار مأمون الهضيبي!

ضحك ضحكة خفيفة أقرب للحسرة ثم قال: مأمون هو الذي سيضع بقلمه الحرف الأول من قرار الطرد والإبعاد، وقد أخذ الضوء الأخضر بذلك من المرشد مصطفى مشهور.. أما باقي القرار فسيصدر من محمد حبيب نجم المستقبل وأعوانه..

قلت مستفهمًا: أعوانه.. من أعوانه؟

قال موضحًا: محمد طوسون مثلًا الذي تسبب في محاكمتك.. هو رجل طيب ولكنه أحد رجال محمد حبيب وله طموحاته الخاصة.. صدقني يا بني فأنا أعرفهم كما يعرفون أنفسهم أو أكثر.. هذا هو أسلوب حبيب.. كل الذي حِيك ضدك كان من نسجه.. وهو لا يفتأ يدبر الخطط التي سترمي مختار بعيدًا عن الجماعة ذات يوم.. وسيلحق به عبدالمنعم أبو الفتوح الذي يعيش داخل الجماعة على أمل الإصلاح ومن قبلهما السيد عبد الستار المليجي ولن ينجح عصام العريان في الحصول على مساحة له رغم ذكائه التنظيمي وسيظل مهمشًا طول عمره وأظن أن إبراهيم الزعفراني في طي النسيان الآن.. ثق تمام الثقة أن ما حدث معك هو شكل من أشكال الضربات التي يوجهها حبيب لنوح.. وسيوجه غيرها له بعد ذلك بطريقة الملاكم الذي يجهد منافسه ويستنفد قوته.. فلا تظن أنك مقصود لذاتك ولكنك مقصود لغيرك، والهدف هو إفساح الطريق لطوسون كي يتسلطن على نشاط الإخوان في نقابتكم.

قلت متعجبًا: الغريبة أن مختار يحاول في خطابي إثنائي عن قراري الذي اتخذته بترك الإخوان، ولا أظن أنه يعرف أي شيء عن هذا الذي تقوله الآن.

ـــ ليس من المطلوب أن تترك الإخوان الآن.. أنا معه في ذلك، ولكني معك في أنه لا يعرف شيئًا عن ذلك الذي يدور داخل دهاليز الجماعة وأروقتها الداخلية.

ـــ هل أفهم من حديثك أن حبيب يحلم بخلافة الحاج مصطفى في موقع المرشد؟

ـــ لا أبدًا.. حبيب يدرك أن أوانه ليس الآن، فما زال مأمون موجودًا وليس في إمكان أحد أن ينافسه.. ولكنه يحلم بفترة ما بعد مأمون، ولكن يشق عليه وجود خيرت الشاطر ويخشى من عبدالمنعم أبو الفتوح.. لذلك يقوم بإقصاء من يظن أنهم سيكونون مع غيره ويسعى إلى تنصيب رجاله في المواقع الهامة انتظارًا لتلك اللحظة التي سيقطف فيها ثمرة جهده.

ـــ ولكن خيرت قوي.

ـــ خيرت ليس سهلًا بالمرة، ويسعى إلى ما يسعى إليه خبيب وهو أحد مراكز القوة في الجماعة.. لذلك حبيب يهادنه مؤقتًا ثم سينقض عليه.. حبيب وخيرت هما نجما السنوات العشر القادمة، ولكن مشكلة خيرت ثقته المفرطة في ذكائه، إذ تجعله هذه الثقة لا يأبه لذكاء الآخرين.

ـــ وعبدالمنعم أبو الفتوح.. أين هو؟

ـــ عبدالمنعم طيب ومحترم وصادق وظاهره كباطنه.. ليس له في المؤامرات والدسائس ويعيش على أمل الإصلاح من الداخل وأنا معه في هذا وأؤيده بكل قوة في مسعاه رغم أنهم يمررون ما يريدونه بعيدًا عن ذقنه.. ولكنني أخشى عليه أن يضيع بين أقدام المتحاربين.

ــ هناك خامات جيدة في الإخوان قد تقوم لهم قائمة، وأظن أن بروز اسم الدكتـور جمال حشـمت نائب دمنهور في الآونة الأخـيرة يعطي أملًا في غلبة فريق عبدالمنعم أبو الفتوح.

ــ جمال حشمت ولد ممتاز وأفكاره رائعة وهو واسع الأفق ثاقب البصيرة وهو مثلك ناقم على الأوضاع المتردية ولكني أخشـى أن يسحقوه.. يعيبه أنه لا يتمتع بدهاء الآخرين، الأمر الذي يجعله يلجأ لمداهنتهم في بعض الأحيان حتـى يحتفـظ بمكانة مـا، فقد تعلم من مشـكلة حزب الوسـط واسـتوعب الحكمة التي تعلمها من رأس الذئب الطائر.

ــ وهل كانت له علاقة بحزب الوسط؟

ــ نعم كان مؤسسًـا ولكنهم أجبروه على إلغـاء التوكيل الذي كان حرره لأبو العلا ماضي فخضع لهم ولم ينبس ببنت شـفة.. ليس هو فحسـب ولكن جمهرة من الإخوان المؤسسين ساروا خلف قرار مأمون بإلغاء التوكيلات.

ــ هل تعلم يا أستاذي أن جزءًا كبيرًا من محاكمتي قام على صلتي بأعضاء حزب الوسط وبالدكتور سليم العوا.. ألهذا الحد يمثل حزب الوسط عنصر قلق للإخوان؟!!

ضحك الأستاذ ضحكة أسى وهو يقول :

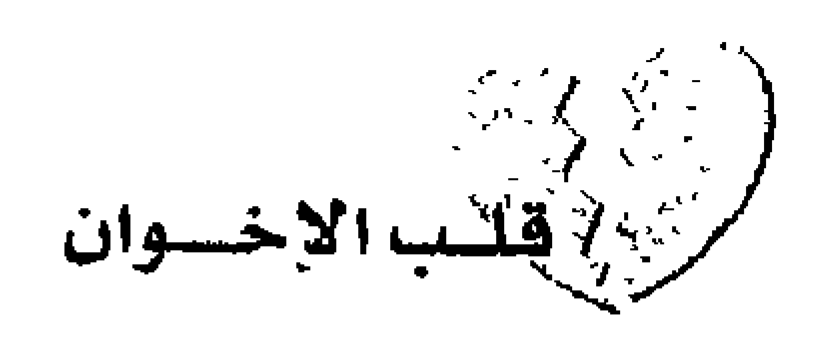
ــ لم تُحاكم أو تحاسـب أنت وحدك يا بني، فمن قبل تمت محاسبة الدكتور حامد عبد الماجد حسـاب الملكين.. أنت تعلـم أن حامد كان عضوًا باللجنة السياسية في الجماعة.. رآه مأمون وهو يمسك برنامج الحزب، فكانت الحاقة

والطامة الكبرى والنازلة.. ولم يشفع لحامد أنه دكتور في العلوم السياسية، وبرامج الأحزاب تدخل في تخصصه، بل زاد الطين بلة أن حامد قال لمأمون إنه أخذ البرنامج من عصام سلطان فى أثناء زيارته له، فثار مأمون لأن زيارة المارق عصام في قانونه جريمة كبرى.

نظرت لسقف الحجرة وأنا أكاد أتميز من الغيظ.. وسادت بيننا لحظة صمت، وقبل أن أسترسل في الحديث انشغل الأستاذ بالرد على مكالمة تليفونية وبعد أن وضع الهاتف قال وكأنه يستدرك: أنا قلت من قبل في تصريح صحفي إنني أؤيد مساندة القرضاوي والعوا لحزب الوسط وقلت إنه ينبغي للإخوان أن يساعدوا هذا الحزب، لا أن يقفوا ضده وقد أثار هذا التصريح غضب مأمون إلا أنني لم أعر غضبه التفاتًا.

استرسل الأستاذ وكأنه يستدعي ذكرياته: هل تصدق أن الحال وصل بمأمون لدرجة أنه غضب غضبة شديدة على الصحفي الكبير محمد صلاح مدير مكتب جريدة الحياة في مصر، لأن محمد يجري حوارات مع مجموعة الوسط؟ ويبدو أن مأمون ظن أن محمد صلاح عضو تحت قيادته في التنظيم فحدثه في الهاتف وطلب منه قطع صلته بمجموعة الوسط، وعندما رفض محمد صلاح هذا الطلب وهو يتعجب، أصدر مأمون قراره بمقاطعة الإخوان لجريدة الحياة.

خرجت الدهشة من وجهي كأنها كانت بشرًا سويًّا إلا أنني استخرجت نفسي من حالة الدهشة وقلت للأستاذ مستفهمًا: ما الذي جعل الإخوان ينقمون على الوسط كل هذه النقمة؟



قال الأستاذ بهدوئه المعهود: ضيق الأفق وقلة الوعي وضحالة الفهم السياسي.. جماعة الإخوان يا بني تسير حاليًّا بلا عقل.. تستطيع أن تقول إنها جماعة فقدت رأسها.

ـ يا ألله!! أين نحن؟ وكيف يكون هذا هو أمر جماعة تدعو لله؟

ـ يا بني «اعلم أن الخيرية ليست صكًّا يمنحه الله سبحانه وتعالى لفريق من الناس على بياض دون غيرهم أبد الآبدين لمجرد أن اسمهم (الإخوان المسلمون).. ولكن الخيرية مرتبطة بالنية والإخلاص والعمل.. فإذا ضاعت منا الخيرية تاهت خطواتنا ووقعنا في حفر لا أول لها ولا آخر، ولن ينفعنا ساعتئذ اسمنا أو شعارنا أو هتافاتنا..».

«لن ننجح إلا بالحب.. ومن أسف فإن الغل حل محل الحب والطموحات الخاصة غيبت المصلحة العامة للأمة.. فكيف تقوم لنا قائمة!».

«كنا طلاب آخرة فأصبحنا طلاب دنيا.. ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

«أتجرع حسرتي على جماعة أفنينا أعمارنا فيها من أجل الله، فذهب القوم بها إلى غايات أخرى».

وسكت الشيخ وهو يتنفس الصعداء وينظر لي بطيبة سخية وكأنه أبي.. فقلت له وأنا أُسرِّي عنه:

ـ أريد أن أقرأ لك بعض سطور الخطاب الذي وصلني من مختار؛ فلعل بعض كلماته تبهج خاطرك.

ابتسم وهو يقول:

ـ تفضل على الرحبِ والسعة... وأنا أحب أن أسمع.

«أخـي الحبيب ثـروت، أخي إلى الأبد إن شـاء الله بحكم الأخوة وحكم الفضل..

«رسالة شكر وعرفان أرسلها إليك..وصلني خطابك الغاضب في قراره العاقل في لفظه، ولقد أحسسـت فيه بأنفاسك وهي تتصاعد وبوجهك وهو عابس ولا أرى داعيًا لذلك أبدًا..

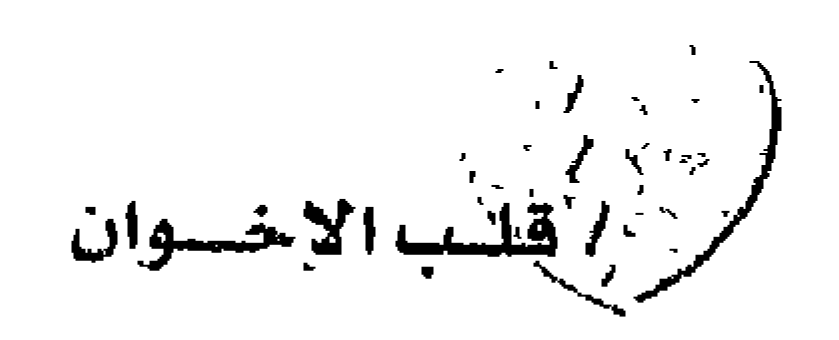
وأرد أولًا على بعض النقاط التي سقتها في خطابك.. وأبدأ بآخر فقرة.. وآخر سـطر والذي تقول فيه: «ولكني عزمت بعد خروجك إن شاء الله على التفرغ لعملي ولحياتي الخاصة».

أشـار الأسـتاذ بيده إشـارة تدعوني إلى التوقف ثم قال: أنت تنقل له خبر رغبتـك في تـرك الجماعة بعبـارات ضمنية وكأنك تخشـى عليه مـن وقع هذا الخبر.

ـ هذا سـبب.. ولكن العبارات الضمنية أيضًا لها أسبابها الأمنية فقد يقع الخطاب في يد الأمن، والاحتياط واجب.

ضحك الأستاذ ضحكة خفيفة ثم أشار لي أن أكمل القراءة.

ـ «لا أعرف يا صديقي أنك أصبحت تنفرد بالقرار وتطبقه على نفسـك دون مناقشـتي.. أليـس في ذلك إهدار لحقي عليـك؟ فكما أني قد مكنتك من



قـراري قبـل دخولي وأسـكنتك داخـلي، فحق لي أن أسـكن داخلـك وأنعم بالتمكـن من قرارك.. وأحسـب أن سـيارتك الـفيات شـهدت وفاة العديد مـن القـرارات وكذلـك ميلاد أخـرى.. عندي وعنـدك على السـواء.. الآن حـان التمرد والانفراد بالقرار.. فإن فعلتها أنـت ما أنا بفاعل.. القرار الذي سـتتخذه أنـا به أولى أو خالـد بدوي لأن ما تعرضتَ له من إيذاء لا يسـاوي واحدًا على مليون مما تعرضتُ له أو مما تعرض له خالد».

قاطعني الأستاذ قائلًا: ألم أقل لك.. لن يسلم نوح من الإيذاء؟ هذه خطة محكمـة... خطة الصراع من أجل المسـتقبل.. من أجل موقع المرشـد.. ذلك الموقع الذي أذل أعناق الرجال.. هه.. أكمل.

اسـتكملت القراءة بتـأنٍّ: «لا تنظر إلى الحياة على أنها شـهر واحد، ولكن انظـر إليها عـلى أنها سـنوات وأجيال قادمـة ووفر انفعالـك.. وقد عرضت خطابـك على إخوة معنـا، أولهم خالد، فطلب أن أضـع توقيعه على الخطاب منضمًّـا لي في كلامـي أما الآخر فهـو أخ فاضل أثق في رأيه، أمـا الثالث فهو الدكتور بديع وهو له وضعه في الدعوة وقد أفادني الدكتور بديع بما هو نصه: أن تقيم الموقف من ثلاث زوايا.. فأما الأولى فهي تحليل ما يحدث، وهنا أكد لي أن سـبب مـا يحدث هـو أن ما فعله ثـروت أظهر قصور الآخرين لاسـيما أن العمـل النقابي لا يبدو على ما يرام.. فسـامح هو الشـخصية الظاهرة، ولم نسـمع عن مشروع قدمه الإخوان في نقابة المحامين طوال الأشـهر الماضية.. وعلى المستوى الأخوي لم يقدم لك -أي مختار وخالد- أحدهما شيئًا يستقيم ومعنـى الأخـوة.. فثـروت كالعـدَّاء السريـع الـذي أظهر عجـز الآخرين،

والغـيرة هي الأسـاس.. وأما الثانية فهي أن معالجـة ثروت للأمر كانت على خـير ما يرام ولكـن عليه ألا يقرر هو أي شيء وحده.. لا تقاعد ولا بعد ولا كسل وإنما يمضي في طريقه وعليه أن يستشهد بالدكتور بديع والدكتور محمد بـشر بالذات لأن خطـة تصدير القلق هي خطة المسـجونين وقـد نقلناها إلى طوسـون ومع ذلك لم تنفذ الخطة.. وتستطيع أن تستشهد بهما أو بأحدهما عما قدمتـه لنا بينـما عجز الآخرون طواعية.. ومني أنا أقول عليك طلب شـهادة الدكتور بديع والدكتور بشر عن دورك الإعلامي والقانوني الذي وفقك الله فيه وتستشـهد تحديدًا بالدكتور بشر في أمر خطة تصدير القلق، وأطلب منك زيارة سريعة جدًّا ولو عن طريق حمدي خليفة وأنا أعرف مدى صعوبة ذلك وإلى هذا الحين اعلم أننا جميعًا نحبك في الله خاصة أنا وخالد».

نظرت إلى الأستاذ فوجدت ملامحه قد اكتست بابتسامة رضا وساد الصمت بيننـا وبـدا أن الرجل اسـتغرق في تفكير عميـق.. فاحترمت صمته ولم أشـأ أن أقطع عليه حبل تفكيره حتى تنحنح الشيخ الوقور وقال: كلام طيب من نفسية طيبـة.. معـادن الرجال تقاس بقلوبهم لا بعقولهـم.. لا تصاحب يا بني إلا من تثـق في صفـاء قلبه وأصالـة معدنه.. ومختـار ولد طيب النفـس والقلب أصيل المعدن.. ولكن في نفسي شيء من الدكتور بديع والدكتور بشر.

ـــ الدكتور بديع داعية من الطـراز الأول ويجيد ترقيق القلوب بخواطره وطريقته المحببة في الحديث.

ـــ أعرفه طبعًا وأعرف حديثه وطريقته ومنهجيته الفكرية.. لقد كان أحد

المتهمـين في قضية سـيد قطـب عام 1965 وهـو لم يعرف في حياتـه إلا قيود التنظيـم وآلياتـه، فاعتـاد عليها وأصبح جـزءًا منها.. هو طبعًـا طيب القلب ويعمـل لما يظـن أن فيه صالـح الدعوة وفقًـا لخلفيته الفكرية ولكـن أفكاره بعيدة تمامًا في منبتها عن أفكار حسـن البنا.. فهو من العاشـقين لسـيد قطب ويحفـظ كتابـه «معالم في الطريق» عن ظهر قلـب.. إلا أنه في لحظة واحدة من الممكن أن ينسـاك تمامًا بل من الممكن أن ينكرك! ومن اليسـير عليه أن يتنكر لما قاله لمختار فلا تراهن عليه أبدًا. ويبدو أن مختار تأثر من رقائقه.

ـ الذي أعرفه أن بديع مثقف ثقافة متنوعة.

ــ ليسـت الثقافة هي الكـم المعرفي الذي يختزنه الشـخص.. فالحاسـب الآلي يختزن معلومات ليس في إمكان بشر أن يختزنها.. ولكن الثقافة سعة أفق ومرونـة وسـلوك وقدرة على التـمازج مع الواقع.. أضرب لـك مثلًا..عندك عبدالمنعـم أبـو الفتوح ليس لديه الكـم المعرفي الذي عند محمـد بديع أو عند خيرت الشـاطر، ولكنه أكثر ثقافة منهما لما لديه من مرونة وسـعة أفق وقدرة فائقة على التعاطي مع الواقع المحلي والدولي.

ـ وماذا عن الدكتور محمد بشر؟

ـ الدكتور بشر عقلية ممتازة، ولكنه متخاذل ليس له موقف محدد واضح.. تارة هنا وتارة هناك.. من السـهل عليه أن يتخذ قرارًا فوريًّا حماسـيًّا بتأييدك والمنافحة عنك.. ومن الأسـهل عنده أن يتراجع عن تأييدك ومناصرتك بلا أدنى سـبب ولا أدنى شـعور بالحرج!! أفضل ما في محمد بشر هو ابنه هاني..

ولـد فلتة من فلتات جيل الشـباب.. عقله مسـتنير بحق؛ لذلـك لن يبقى في الإخوان أبدًا.

ــ إذن مختار يراهن على جوادين، هما في الأصل مع غيره!!

ــ مشكلة صديقك مختار أن حساباته التنظيمية قامت على صلته بالأستاذ عمـر التلمسـاني رحمـه الله.. ثم قامت عـلى صلته بمأمـون الهضيبي.. ولكن هناك مراكز قوة حقيقية داخل الجماعة تشـيب مـن هولها الولدان، أهملها ولم يحسب حسابها.

حانت مني التفاتة لساعة الحائط فوجدت الوقت قد انسرب دون أن أشعر به فقمت أقبل رأس الشيخ وأودعه وأستودعه الله الذي لا تضيع ودائعه وأنا أطلب منه الدعاء، فدعا لي وألح عليَّ أن أكرر الزيارة مرات ومرات.

وأسـفل بيت الأستاذ وجدت السيارة الهونداي الفضية تنتظرني.. فجرى في عقلي أن أجعلها تقتفي أثري لبرهة يسـيرة ثـم ألوذ بالفرار منها فلا تلحق بي.. وبالفعل تحركت بالسـيارة بطريقتي المعتادة وعندما اطمأن من يطاردني غافلته وانجرفت يمين الطريق في الوقت الذي كانت إشارة المرور قد أوقفت السيارات التي من خلفي فضعت منه ولم أجد له أثرًا من خلفي.

■■■

بعـد لَأْيٍ مضنٍ وجهد مسـتميت اسـتطعت الحصول عـلى تصريح فريد لزيـارة كل الإخوة المسـاجين مرة واحدة!! سـتة عشر مسـجونًا سـأزورهم

جميعهم في يوم واحد ووقت واحد.. لم تكن تلك الزيارة بشكلها وطريقتها قد أتيحت لي من قبل كما أنها لم تتح لي بعد ذلك أبدًا.

كان يوم الأربعاء هو اليوم الموعود للزيارة وكان فصل الصيف قد ألقى بجمرات من حرِّه وصهده على الخلق أجمعين.. لذلك رأت إدارة السجن أن تكون حديقة ملحق مزرعة طرة هي المكان المخصص للزيارة، خاصة أن أحد الضباط سيمكث معنا أثناءها... واصطفت المقاعد بشكل دائري تحت مجموعة من الأشجار ذات ظلال وارفة وكأننا سنعقد اجتماعًا لمجموعة من الأصدقاء في أحد الأندية، وما إن جلست على أحد المقاعد حتى بدأت وفود المساجين من الإخوة تتوافد على المكان وكان أولهم هو الدكتور محمد بديع الذي ما إن رآني حتى أقبل عليَّ والبشاشة تنطلق من وجهه وأخذ يعانقني ثم قبل رأسي وهو يهمس في أذني: والله الذي نفسي بيده لأنتصرنَّ لك فور خروجي وسأعلِّمهم كيف يُنزِلون الناس منازلهم، فأنت صاحب فضل علينا بعد الله سبحانه وتعالى وليس هذا جزاء من وقف يصد عنا غوائل الأحكام فلا يصح أبدًا أن يكون جزاؤك هو جزاء سنمار.. ومن بعده كان الدكتور محمد بشر الذي بدا الحبور والبشر على وجهه وهو يقبل رأسي وكتفي، ثم قال متحسرًا: لا تحزن يا أخي من أفعالهم.. أعلم أنهم أتعبوك، ولكن ثق أن الحق سيظهر، وسأصك آذانهم بكلمة حق مدوية ستخلع أفئدتهم.. وسيعلمون حينها أنهم أخطئوا في حقنا بما فعلوه معك قبل أن يخطئوا في حقك أنت... وكان المهندس مدحت الحداد هو ثالثهم وقد أفرط في تطييب خاطري وقال: بوجه خاص: يا أستاذ ثروت أنا من أكثر المعجبين بك وبكتاباتك.

وهكـذا توالى الجمع وظهر مختار نوح وخالد بدوي وهما يشـقان الطريق ناحيتـي مسرعـين حيـث عانقاني وقبـلا رأسي ثـم جلس الجميـع من حولي وأخذنا نتحدث بشأن القضايا التي أقمتها وشرحت لهما فكرة قضية الإفراج عنهـم لمـرور ثلاثـة أربـاع مـدة العقوبـة، وكنت قـد أحضرت معـي لائحة السجون وظهر من المناقشة أنهم استغرقوا من قبل في جدل عميق حول تلك القضيـة.. وانتهت الزيارة بحصولي على موافقـة جماعية بإقامة تلك الدعوى وقد شـكر لي الجميـع الجهد المبذول في القضيتين الأخريـين وأبدوا إعجابهم بالنشـاط الإعلامي الذي بذلته من أجل إحيـاء قضيتهم أمام الرأي العام... وفي النهايـة وفي أثنـاء انـصرافي كرر لي الدكتـور بديع كلماته المشـجعة حيث همس في أذني قبل أن يسـتدير بوجهه عائدًا إلى محبسـه: سـترى عند خروجي تغير الأحوال إلى ما يسرك.. والله يا أخي لأفعلن بهم الأفاعيل.

وعندمـا انصرفـت بسـيارتي رأيـت من خـلال المرآة تلـك السـيارة التي تطاردني صباحَ مسـاء.. وكان شـعوري بالضيق قد أخذ في الازدياد من تلك المطـاردة المقيتـة وفى أثناء محاولتي الهـرب من المطاردة سـمعت رنين الهاتف المحمـول وعندمـا قمت بالرد سـمعت صوتًا خشـنًا عريضًا يقول: السـلام عليكم يا أخي الكريم.

ـ وعليكم السلام ورحمة الله.

ـ أنا أخوك عبدالمنعم أبو الفتوح.

ـ يا ألف مرحبًا بك يا دكتور، ما هذه الظروف السعيدة التي ذكرتك بي؟

ـ الله يبارك فيك... ولكنها للأسف ليست ظروفًا سعيدة.

ـ خير إن شاء الله.

ـ إن شـاء الله خير...لكن هناك أمرًا يخصك في منتهى الخطورة، أريدك من أجله بشكل عاجل... وسأنتظرك غدًا في بيتي بعد صلاة العصر.

شكرته ووعدته بالذهاب إليه في الموعد المضروب، وأغلقت الهاتف وأنا أدندن مع المذياع رائعة إبراهيم ناجي التي غرَّدت بها أم كلثوم

أعطني حريتي أطلق يديا إنني أعطيت ما استبقيت شيًّا

آه من قيدك أدمى معصمي لِمَ أبقيه وما أبقى عليًّا

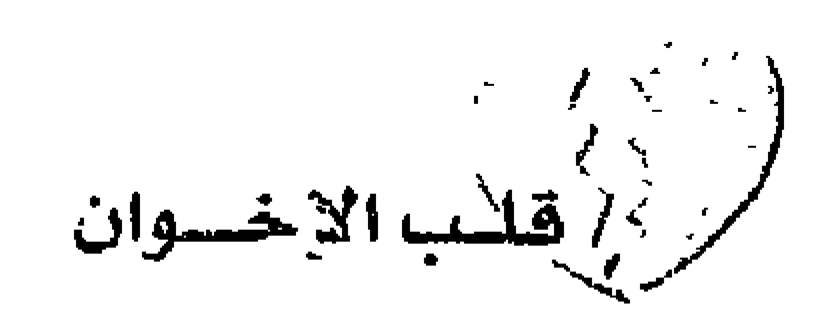
ما احتفاظي بعهود لم تصنها وإلام الأسر والدنيا لديًّا؟

الفصل التاسع

الرحيل

«ولكن رجع الصدى عاد إلى صاحبه مكللًا بالحزن والألم، وبكأنه بكى وقتها كما يبكي الرجال.. هل تعلم كيف يبكي الرجل؟ يبكي قلبه ورأسه مرفوع، وشفته منفرجة عن ابتسامة خفيفة خفية لا ينكس رأسه أبدًا، هكذا يكون الرجل وهكذا بكى صاحبنا».

يمتلك الدكتور عبدالمنعم أبو الفتوح شقتين في إحدى العمارات الكائنة في المنطقة السادسة بحي مدينة نصر، وقد جعل من الشقة الكائنة بالدور الأول مقرًّا لسكنه، وجعل من الشقة الثانية الكائنة في الدور الأرضي عيادة طبية لزوجته، طبيبة النساء والتوليد، وفي الموعد المحدد كنت أطرق -على استحياء- باب شقته السكنية..بشَّ الدكتور في وجهي وأحسن الترحيب بي، ثم اصطحبني إلى شقة العيادة الكائنة في الدور الأرضي، والتي كانت خالية



وقتهـا، ويبدو -والله أعلم- أنه كان قد أعد هـذه العيادة لمقابلاته الخاصة مع الإخوة، إذا كان الموضوع -محل المقابلة- خاصًّا أو به قدرٌ من السرية.

عندما جلسنا في إحدى حجرات العيادة نتبادل بعض عبارات المجاملة، أخذت أستشرف وجه الدكتور عبدالمنعم وأتفرسه علَّني أستشف من قسمات وجهه سـبب هذه المقابلة أو الدافع لها، وكأننـي -وأنا أتفرس وجهه- أقول له: «ماذا وراءك يا رجل؟ وهل سأجد لديك الخبر اليقين؟».

وأثنـاء حوارنا عن الأحوال والدنيا وأخبـار منطقة مدينة نصر الإخوانية وحالة مصر السياسـية دخل علينا عبد الرحمن، ابن الدكتور عبدالمنعم، وهو يحمل صينية الشاي، ووضع أمامي كوب الشاي بأدب جم، فقلت في نفسي: «هذا الشبل من ذاك الأسد».

وأثناء ارتشـاف الشـاي انقطعت العبارات الخفيفة التي كانت تدور بيننا عندما رنَّ الهاتف الأرضي، إذ استأذنني الدكتور عبدالمنعم في الرد، وبابتسامة موحيـة أذنت له.. لم يصـل لوعيي صوت الدكتور، وهو يتحدث في الهاتف، فقد تملكتني ذكريات قديمة، طفت على سطح وجداني وسيطرت على وعيي وحواسي، وكأنني أراها الآن شـاخصة أمام بصري.. ذكريات من زمن بعيد مضى وانقضى، إلَّا أنها تركت في نفسي أثرًا.

كان ذلـك منـذ ربع قـرن تقريبًا، وقتها كنـت طالبًا يافعًـا، وكان الرئيس السـابق أنور السـادات قد دعا قيادات العمل الطـلابي في الجامعات المصرية ليتحـدث معهـم حديث الأب للأبنـاء، وكان قد تـم نقل الحـوار بكامله في

التلفزيون عبر الأثير، وتطرق حديث الرئيس لمؤامرات الشيوعيين على نظام حكمه وأعلن بصراحة أن مصر هي دولة العلم والإيمان.. ظهرت صورة الطالب عبدالمنعم أبوالفتوح أمامي، وكأنه من فرط شجاعته وجرأته يمتطي جواد الجسارة.. وقف أبو الفتوح وقتها يتكلم مع رئيس الدولة، فقال له بقلب شجاع ولسان فصيح وهو يقف أعزلَ ليس معه سلطة إلا سلطان الإيمان: أنت تُعلن أننا دولة «العلم والإيمان»، في حين أن هذا الشعار يخالف التطبيق.. ثم استطرد قائلًا: أنت تقوم بوقف الشيخ محمد الغزالي عن الخطابة في مسجد عمرو بن العاص، في الوقت الذي تترك فيه المنافقين الذين من حولك ينافقونك.

فرد الرئيس -بعد أن قطَّب جبينه واكفهر وجهه والغليون يرتعش بين يديه: الزم مكانك.. أنت تتحدث مع رئيس العائلة، وأنا لا أقبل النفاق؛ وليس هناك من ينافقني.. قف.. قف.. الزم مكانك.. مكانك.. ثم تبعثرت كلمات الرئيس، وجحظت عيناه، وتفصد جبينه عرقًا، وخرج الرذاذ من فمه يتطاير في أنحاء المكان.

استعادت عيناي صورة أبو الفتوح -وهو واقف رابط الجأش، دون أن يهتز له جفن أو يتتعتع له لسان في موقف تُذل فيه أعناق الرجال- واستعادت أذناي صوته وهو يقول: أنا أقف مكاني، ثم إن كلماتي واضحة، فالبون شاسع بين أن يكون هناك من ينافقك، وبين أن تقبل أنت هذا النفاق، لقد تم نقل الشيخ الغزالي دون سبب، والمسئولون في الدولة تنصلوا من قرار النقل، فمن نقله إذن؟ وأنت طلبت أن نتكلم معك بصراحة، وأنا أعرف حدودي.

عدت من رحلة ذكرياتي عندما أغلق أبو الفتوح الهاتف ثم تنحنح قائلًا: والله يا أخ ثروت أنا أريد أن أنقل لك خبرًا مهمًا، فقد كانت هناك بالأمس جلسة لمكتب الإرشاد، وكان أمر محاكمتك هو البند الرئيسي لجلسة المكتب.. والحقيقة أنا لم يَصلْ إلى علمي خبر هذه المحاكمة إلَّا أمس فقط ومن خلال جلسة المكتب، وقد وجدت أن هناك عددًا من إخوانك في مكتب الإرشاد يتحاملون عليك خاصة أن القرار الذي صدر عن لجنة المحاكمة هو فصلك من الجماعة.

فصلي من الجماعة!! فصلي!! هه!! كدت أقفز من مكاني عندما زف لي أبو الفتوح خبر فصلي من الإخوان، ثم ضحكت ضحكة قصيرة مغلفة بالدهشة، وقلت بصوت حشرجه الألم: كيف طاوعهم قلبهم وضميرهم على قرار كهذا؟!

كيف بعد أن استبان لهم كذب الاتهامات وتهافتها بل تزويرها يخالفون الحق الذي كان ماثلًا بين أيديهم ويركنون إلى الباطل؟!

ألهذا الحد غابت العدالة عن الإخوان؟!

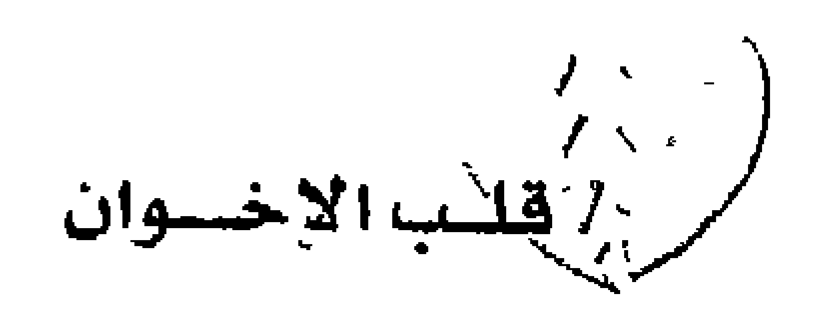
أظن أنني الرابح وهم الخاسرون.

وبعد أن أخرجت مشاعري العارمة من مكنون نفسي، وناولتها لعبدالمنعم شعرت براحة غريبة، إلا أنها كانت راحة مغموسة في الدهشة.. لم تكن الدهشة من قرار الفصل، ولكن الدهشة كانت من نفسي التي ثارت من قرار الفصل.. تُرى، أكنت متمسكًا بالإخوان إلى هذا الحد، وأنا الذي

كنت أنهر نفسي لعدم خروجي من تلك الجماعة؟ ما سبب هذا الألم الذي اعتراني؟ الظلم؟ نعم.. الظلم.. ليس ألمي مبعثه قرار الفصل، فقد كنت أوشك على ترك الجماعة غير آسف عليها، لقد أصبح من حقي الآن أن أقول لهم -كما في المثل الشعبي-: (بركة يا جامع أن جاءت منكم). والحمد لله أن حصلت على حريتي بعد أن كنت سجينًا في سجن الإخوان، ولكنَّ الظلم والافتئات على الحق والجرأة على الله من جماعة ترفع لافتة الدعوة هي التي لطمت مشاعري.

طالت فترة الصمت بيننا، إلى أن قطع أبو الفتوح نسيج الصمت الذي غلفنا بكلمات هادئة: على العموم، لم يعتمد المكتب هذا الحكم، وقد كانت المناقشات حامية، ولكن يبدو أن الصورة التي وصلت عنك لإخوانك في المكتب صورة مزيفة، وقد انتهى التصويت بيننا على رفض فصلك بفارق صوت واحد، وكان سندنا في رفض الفصل هو أن اللجنة التي حاكمتك غير مختصة بحسبان أنها لجنة تمثل منطقة شرق القاهرة، في حين أن الخطأ المسند إليك، والذي دارت حوله المحاكمة متعلق بنشاطك في قسم المهنيين، وبالتالي كان من المفترض أن تكون لجنة المحاكمة مشكَّلة من المهنيين، فهي أولى وأجدر من لجنة المنطقة في معرفة الظروف، وتطبيق قواعد العدالة على الخلاف.. ولكن قل لي يا أخي.. ما قصة خلافك مع باقي إخوانك من المحامين؟ الغريبة أنني لم أعرف شيئًا عن هذا الموضوع.

ـــ ألم يصدر قرار تشكيل هيئة المحكمة من مكتب الإرشاد؟



ــ لا، للأسف، ولكنه صدر من الحاج مصطفى مشهور، ولم أكن متدخلًا في هذا الموضوع، فهو بين الحاج مصطفى والمستشار مأمون.

أطرقت بوجهي إلى الأرض، ثم أخذت -والأسى يعتصرني ويهز أوردتي- أحكي القصة بكاملها، واسترسلت في الحديث بلا انقطاع، وحالة الحزن تغلف كلماتي وتشدها من ألم كان حريًا أن يسكتني، فما أقسى الظلم! وما أوجعه على القلب إن كان من الغريب! فماذا لو كان من ذوي القربى؟! ماذا لو كان ممن أحببتهم ونسيت نفسك من أجلهم؟ حقًا وصدقًا.. لم يكن هناك من ميراث البشر أشد وطأة على النفس -بعد الكفر- مِن الظلم.

سار حديثي للدكتور عبدالمنعم على وتيرة واحدة، وعندما ذكرت له تفصيلات قرار الحاج مصطفى بمنعي من الخروج من بيتي قاطعني قائلًا: وهل استجبت فعلًا لهذا القرار المعيب العجيب؟!

حركت يدي حركة من ليس بيده حيلة وقلت بأسف: نعم استجبت.. كان الكل عندنا في مدينة نصر غاضبًا من القرار ولكنهم كلهم طلبوا مني بإلحاح طاعة هذا القرار، لتفويت الفرصة على الآخرين، كما أنني أمضيت يوم الانتخابات عند المهندس ممدوح الحسيني، من باب إثبات تنفيذي للقرار، ومع ذلك كانت المحاكمة تدور -في ركن منها- حول مخالفتي للقرار يوم الانتخابات!!

هز الدكتور عبدالمنعم رأسه، علامة للرفض وقال بحسم: لقد أخطأت يا أخي بطاعتك هذا القرار.. أنت رجل مهذب.. وجماعة الإخوان ليست

جماعة عسكرية، ولكنها جماعة إنسانية، أنا شخصيًّا لو جاء لي أحدهم بمثل هذا القرار لضربته على أم رأسه.

استكملت باقي القصة، وحكيت له عن بنود المحاكمة، وعن اتهامي بإقامة صلات بالدكتور سليم العوا ومجموعة حزب الوسط.. قاطعني أبو الفتوح للمرة الثانية، وقال بصوت ارتفعت نبرته: كيف تقبل محاكمتك على صلاتك الإنسانية بإخوان لك، وإن اختلفوا مع الإخوان؟!

ـ هذا الأمر لم يكن مطروحًا في تفصيلات المحاكمة، التي تم عرضها على مكتب الإرشاد بالأمس!!.

ـ المفترض أن تدور المحاكمة -في شقها الرئيسي- على مخالفتك قرار تأييد المحامي رجائي عطية في انتخابات النقابة.

ـ بالطبع.. لا يصح للإخوان محاسبتك على موقفك الانتخابي، لك كامل الحرية فى أن تفعل ما تشاء، بل لك كامل الحرية فى ألا تقف مع الإخوان في الانتخابات، والأكثر من هذا.. من حقك أن تقف ضد مرشحيهم إذا كان في تقديرك أنهم لا تتوافر فيهم الشروط الشرعية.

ـ ولكنَّ الإخوان حاليًّا يا أخي الكريم -كما تعلم- لا ينتظمون في فهم واحد، ولكنهم أشتات وخليط من مشارب متنوعة، تجمعنا عاطفة دينية واحدة، نعم.. ولكن عقولنا متفاوتة.

ـ كان من المفترض يا أخ ثروت أن تزورني وتحكي لي قبل المحاكمة، إن ما حدث معك تهريج، ولكنه لن يستمر.

اغرورقت عيناي بالدموع فقد شعرت بالمهانة التي لحقت بي من إخوان كنت أظنهم سهامًا لي، فكانوها.. ولكن في فؤادي، شعرت بأنني أهنت نفسي عندما مكثت داخل الجماعة غير بعيد، ولم أغادرها من قبل.. فالتفت عبدالمنعم -بحسه المرهف- إلى الناحية الأخرى، حتى يجعلني لا ألحظ أنه رأى دموعي، كان عبدالمنعم يدرك قيمة دموع الرجل، ويعرف -باليقين- لحظات الضعف الإنساني التي تنتاب من قهره الظلم، فأراد أن يجعلني منفردًا بنفسي، حتى أكون مع دموعي على سجيتي بلا قيود ولا رقيب، فاستأذن وغادر الغرفة هنيهة، ثم عاد بعد دقيقتين، كنت قد كفكفت فيهما دموعي.

ـــ يا أخ ثروت سأقول لك ما قاله سيدنا يوسف لأخيه.. قال له: فلا تبتئس بما كانوا يعملون، وقد قمنا في المكتب كما قلت لك، بإلغاء القرار، ولكن يجب إعادة المحاكمة على أسس صحيحة، وقد طرحت في المكتب أن يتولى محاكمتك أخونا الكبير الأستاذ محمد هلال، وأنت تعرفه طبعًا، وقد رحب الرجل.. وهو بمثابة أب، وطبعًا -باليقين- هو غير من حاكموك من قبل، وسينتظر غدًا منك أن تكلمه لتحديد موعد تسافر له فيه إلى المنصورة، وسينتهي الموضوع قريبًا بأقل الخسائر -إن شاء الله- وأرجو ألَّا يصيبك يأس، فأنا أرى في عينيك رغبة واضحة في ترك الجماعة، ولكن إن تركتها أنت وأنا وغيرنا -من أصحاب العقول والضمائر والأفئدة- فمن يصلح حالها إذن؟ هي ليست جماعتهم هم ولكنها جماعتنا نحن.. هم يتركونها إذا أرادوا، أما نحن فسنبقى فيها.. أريد وعدًا منك يا أخي بأن تذهب لأخينا محمد هلال.. لا تجعلهم ينتصرون عليك.. ثق بي.

ــ وهو كذلك..

قلتها وأنا نصف مقتنع، ونصف رافض.

خرجت من عند الدكتور عبدالمنعم وكأنَّ هناك مغناطيسًا يجذبني إلى الجماعة، رغمًا عن أنفي، ولا يريد أن يتركني لحالي.. أفٍّ لهذه الحيرة وأفٍّ لهذا التردد الذي أثقل كاهلي.

كانت نفسي ثائرة مهتاجة، أخذت أحدثها، وكأنني ألومها: متى أترك هذه الجماعة؟ أما آن لي أن أحمل متاعي وأرحل إلى حيث الحرية؟ اما آن لي أن أترك ضيق التنظيم إلى سعة الدعوة؟ أكلما قررت الخروج منها؛ عدت إليها؟!!

ما هذا التردد الغبي؟!

هل العناد هو الذي يدفعني للبقاء أم أنه الانتصار للحق؛

أم هو الانتصار للنفس؛ والنفس لا تقبل هزيمة أو مذلة؛

أم أنني خلطت بين النفس وبين الحق؟

وَلِمَ أكون أنا على حق؟ ألا ترى أن نظرة الإنسان نسبية، وأنه لا يستطيع أن يحيط بكل شيء علمًا؟

أنت ترى أنك صاحب الحق، وهم -أيضًا- يظنون أنهم أصحاب الحق وأصحاب الفضيلة، ترى من منا يقف على أرض الحق؟ ومن منا يقف على أرض الباطل؟

ليس لدي مثقال ذرة من شك أنهم يعرفون فساد مواقفهم؛ وإلا فكيف يستسيغون -من ناحية الشرع- استقدام شهود زور؟! وكيف يقيمون محاكمة فاسدة خالفت الإسلام في كل كبيرة وصغيرة؟! أيصبح الحرام حلالًا؛ لأن صاحبه يظن أنه بالحرام سيصل إلى حلال؟!

أيجوز أن نقيم شرع الله بوسائل تخاصم شرع الله؟!

كيف نرفع راية الإسلام فوق رءوسنا ونمزق هذه الراية في أفئدتنا؟ كيف نطلب تطبيق الإسلام في بلادنا ونحن لا نطبقه على أنفسنا!

كيف نسي الإخوان قول إمامهم الشهيد حسن البنا: «أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تقم في بلادكم»؟

ثم ألم يقل لنا الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾. (الصف: 2)؛ وقال: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾. (البقرة: 44)؟! ما لهم كيف يحكمون؟! مالهم كيف يفكرون؟! والله إني أرأف بحالهم.. كيف سيقفون أمام الله -سبحانه وتعالى؟!

ما هذه الجرأة على الله من رجال يقولون إنهم أهل الله وخاصته؟!

تضاربت الأفكار في رأسي، ثم قفزت خاطرة في ذهني، وكأنها شخص آخر وقف أمامي يحدثني: ليس من المفترض أن تنتصر للحق، ولكن من الحتمي أن تنتصر لما تعتقد أنه حق.. وليس من المفترض أن تنتصر على الباطل، ولكن من الحتمي أن تقف ضد الباطل، مهما تكن نتيجة هذه الوقفة؛

وعندما استرحت لهذا الخاطر أدرت محرك السيارة، وذهبت لأصلي المغرب في مسجد «الأرقم» القريب من بيت الدكتور عبدالمنعم أبو الفتوح.. إلا أنني لاحظت تلك السيارة التي ما فَتِئَتْ تراقبني منذ فترة وهي تتبعني حتى إن المراقب العتيد غادر سيارة المراقبة، ودخل معي المسجد؛ وكأنه سيراقب الملائكة وهي تدوِّن أعمالي!

بعد الصلاة أخذت أستنشق بعمق رائحة زكية تجوب آفاق المسجد.. بثت هذه الرائحة راحة نفسية في قلبي فغشيتني حالة وجد شعرت من خلالها بأن طاقة نور اندفعت من أعماقي، دفعتني إلى أن أسبح الله، وأستغفره، ثم رأيت أن أتوضأ على وضوئي؛ ليكون الوضوء نورًا على نور، وبعد الوضوء حملت المصحف الشريف، وجلست معه في ركن من أركان المسجد وكان أن فتحت المصحف على سورة «سبأ» فأخذت أقرؤُها على مهل إلى أن وصلت إلى قول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾. (سبأ: 24،25).. وهنا تملكني العجب فأعدت القراءة عدة مرات، ثم قلت في نفسي -بلسان قلبي-: سبحان الله.. الكلام هنا في تلك الآية الكريمة على لسان سيدنا محمد ﷺ.. فقد بدأ الله -جل في علاه- في مخاطبته بقوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾ أي قل يا محمد للكفار الذين يجادلونك إن الله هو الرزاق ثم قل لهم: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يالعظمة الإسلام،

ويا لأدب الاختلاف! لم يقل الرسول ﷺ للكفار إنه هو على الهدى، وإنهم هم على الضلال المبين؛ رغم أنه كان كذلك، ولكنه قال: «إنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين»، فساوى في الخطاب بينه وهو صاحب الحق وبينهم؛ وهم أصحاب الباطل، وأهله... وعندما استمر معهم في الجدال قال لهم كلمة تدل على قمة الأدب في خطاب المختلفين، حتى ولو كانوا كفارًا.. قال لهم -كما حكى القرآن-: ﴿لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ ياللهول! يكاد الفؤاد ينخلع من هذه الكلمة.. سرت قشعريرة في جسدي كله، ثم قلت لقلبي -وكأنه انخلع من مكانه-: انظر وتأمل.. الله -سبحانه وتعالى- أمر الرسول وهو يخاطب الكفار -بأن يقول لهم إنهم لا يُسألون عما أجرم المسلمون، وهم لم يجرموا، ولكن اقتضى الحال ذلك؛ لأن الكفار كانوا في عقيدتهم يظنون أن المسلمين، ليسوا على شيء..وإذا كان من الطبيعي في السياق ذاته أن يقول الرسول مستطردًا: -ولا نُسأل عما تُجرمون؛ ولكن كان الأمر على غير ذلك.. كان قول الله -سبحانه وتعالى هو: ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ رغم أنهم يجرمون -يقينًا-؛ قمت واقفًا، مبهوتًا بطريقة فجائية، وأخذت أتجول في مسجد دون هدف..كانت دفقة سعادة وراحة بال قد غمرتني.. رغم أنني قرأت القرآن قبل ذلك عددًا من المرات، لا أستطيع حصرها، واستمعت للقرآن بصوت معظم القرّاء خاصة قرّاء مصر المبهرين، إلا أنني لم أنتبه لهذا المعنى من قبل.. أخذت أحدث نفسي وأنا أتجول في المسجد رائحًا غاديًا بصوت مسموع حتى ظن المصلون الذين ينتظرون صلاة العشاء أن بي خبلًا.. ارتفع صوتي قليلًا وأنا أقول: الرسول وهو على الحق يقول للذين

هـم عـلى الباطل: وأنـا أو إياكم لعلى هـدى أو في ضلال مبـين، أي أن هناك طرفًا منا على الحق، وطرفًا على الباطل.. ثم يقول كلمة مذهلة: (لا تسـألون عـما أجرمنـا).. أجرمنا.. رغم أنه على الحق ولم يجـرم في الاعتقاد والإيمان أو في أي شيء.. أيوجـد أدب يماثـل هذا الأدب؟! هذا الأدب كان مع الكفار.. أدب المناظـرة.. فـماذا لـو كانت معركة الحـق تدور بين إخوة؛ تـدور بين من نطقوا بالشـهادة وآمنوا بالإسـلام دينًا ودنيا؟ ألا يكون هذا داعيًا لي أن أصبر وأتحـلَّى بأدب البحـث عن الحـق وأدب المجادلة فيه.. فالبحـث عن الحق له آدابـه والمجادلـة فيه لهـا أخلاقهـا.؟! الآن لا يهم أن أبقى في الإخـوان أو أن أغادرهـم.. الأهـم هو أن أصدح بالحق الذي أعتقده وأواجه به الباطل بدأب لا أخشـى في الله لومـة لائـم، لا يهم أن أنتـصر ولكن الأهـم أن يجـد الباطل من يواجهه.. الله بقدرته سـينتصر للحق.. فهاهي ذي آية مبينة تأتي في سورة «سـبأ» يقول الله فيها: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ (سبأ: 26). نعـم إن لم يظهـر الحق في الدنيا فسـيجمع الله بيننا ثم يفتح بيننـا بالحق، وأنـا خصيمهم أمام الله يوم الدين.. جلسـت في زاوية المسـجد وأنـا أقول: سـأكون مع الحق الذي أعتقده سـواء كنـت في الإخوان أو كنت خارجهم.

■■■

لم أنقطع عن أنشـطة الإخوان في منطقتي ولكنني كنت متكاسلًا عنها ولم أكن متحمسًـا لها، فقد وقع في نفسي شيء من المهندس ممدوح الحسيني الذي

كان عضوًا في هيئة المحاكمة التي حاكمتني، وانتهت إلى إدانتي رغم الحق الذي استبان لهم واضحًا جليًّا، كما أنني وجدت أن معظم المسئولين يقدسون الإداريات ويرفعون من شأنها على حساب أشياء كنت أرى أنها أكثر أهمية، وأدركت من واقع الحال أن هناك مجموعة من القطبيين الذين يؤمنون بفكر سيد قطب الإقصائي والتكفيري يتكاثرون وكأن الجماعة تستنسخهم ثم تسند إليهم وحدهم دون غيرهم مناطق النفوذ وكأن هذا الفريق يطبع صورته الخاصة على الجدد فيكون الجديد صورة ممسوخة من القديم.. ومن هؤلاء ظهر على سطح الأحداث أحد المسئولين الجدد في المنطقة، والذي كان يعمل في الخليج من قبل ثم حمل متاعه وعاد ليتبوأ مقعده من الإدارة رغم حداثة عهده بالإخوان، وما ذلك إلا لأنه كان من تلاميذ محمود عزت عضو مكتب الإرشاد.. كان هذا الأخ ذا موقع غير محدد لائحيًّا إلا أنه كان يصدر القرارات ويحدد المهام ويعين نقباء الأسر وكأنه مسئول المنطقة بأسرها.. هاتفني هذا الأخ ذات يوم وطلب مقابلتي، فقلت له: على الرحب والسعة يا أخي سآتي إليك بعد مكتبي.. وعندما بدأ لقائي بالأخ عاتبني عتابًا شديدًا إلا أنه وضع عتابه في غلاف من الكلمات الرقيقة المهذبة وكان سبب العتاب هو أنني ذهبت إلى الدكتور عبدالمنعم أبوالفتوح دون أن أستأذن أحدًا من المنطقة.. قال لي الأخ من ضمن ما قال: أنت من الإخوة الكبار عندنا وأنت قدوة لمن هم دونك من الشباب وقد هالني ما فعلته منذ أيام ولم أصدق أن تقع أنت بفكرك وثقافتك وخبرتك في هذا الخطأ التنظيمي.. أظن أنه سهو؟

ــ خطأ! أي خطأ!

ــ لقد ذهبت إلى الدكتور عبدالمنعم أبوالفتوح.

ـ نعم ذهبت. وهل في ذلك شيء؟ الرجل طلبني! ولكن كيف عرفت بزيارتي للدكتور؟ من أخبرك؟ هه؟

تجاهل الأخ الإجابة عن سؤالي وقال بتؤدة: له أن يطلبك كما يشاء وفي الوقت الذي يشاء؛ فهو أخونا وأستاذنا ولكن كان من المفترض وفقًا للوائح أن يطلبك من مسئولك.

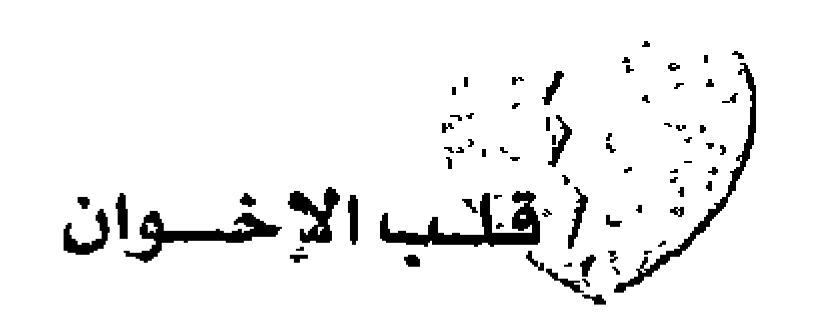
ــ هذه مشكلته؛ إذن لك أن تعاتبه إذا أردت!

ــ لن نعاتبه فليس لنا سلطة عليه ولكننا نعاتبك أنت.. فأنت منا ونحن منك.

ــ وماذا كنت أفعل إذن عندما طلبني.. أكنت ترى أن أعتذر عن لقائه.

ــ لا طبعًا، ولكن كان يجب عليك أن تستأذن من مسئول الشعبة الذي كان سيستأذن لك من مسئول المنطقة؛ فإذا أذن كان لك الحق وقتها في الاستجابة لزيارة الرجل.

وضعت يدي على خدي وكأنني أحفظ رأسي من الوقوع، ثم نظرت إليه وأنا أزدرد كمية من الحنق كادت عيوني أن تصبها في وجهه وقلت بكلمات بطيئة وأنا أسايره في منطقه: ولكن الدكتور عبدالمنعم طلبني في الهاتف وقال لي أريد مقابلتك غدًا في بيتي ولم يقل لي إن المقابلة سببها أمر من أمور الجماعة



ونظرًا لأن بيني وبين الدكتور عبدالمنعم بعض الصلات الإنسانية الخاصة التي لا علاقة لها بالتنظيم ذهبت إليه دون أن أستأذن.

ـــ على العموم حصل خير، ولكن في المرة القادمة يجب عليك أن تخبر إخوانك بأي زيارة للدكتور عبدالمنعم حتى ولو كانت في أمور شخصية.. يا أخي، نحن نريد المحافظة عليك فانتبه لخطواتك.

قلت وأنا أقف متأهبًا لمغادرة المكان:

جزاك الله خيرًا وشكرًا لك على النصيحة، فهكذا يكون الأخ ونعم الأخ أنت ولكنني إذا ذهبت إلى أي شخص مهما يكن قدره أو مكانته في الجماعة فلن أستأذن من أحد.. أنا يا أخي في جماعة مدنية دعوية ولست في منظمة عسكرية.

عندما دخلت بيتي بعد هذه المقابلة العجيبة أخذت أحوقل وأسترجع وأستغفر (لا حول ولا قوة إلا بالله.. إنا لله وإنا إليه راجعون.. أستغفر الله العظيم) وعندما رأتني زوجتي على هذه الحالة انزعجت أيما انزعاج وقالت بصوت «مخضوض»: ما الذي حدث؟

نظرت إليها بابتسامة مطمئنة ثم قلت: إما أنني فقدت القدرة على الفهم وإما أن الجماعة فقدت عقلها ورشدها.. وأنا على يقين أنني ما زلتُ قادرًا على الفهم.

■■■

تبدأ إرهاصات الخريف في مصر وقد حملت في أحشائها غضبًا مستترًا ثم

ما يلبث هذا الغضب حتى يعلن عن نفسه في بعض السنين أو يظل مستترًا كامنًا في جوف النيل في بعض الأعوام؛ ولذلك يقول بعض المؤرخين إن خريف مصر كالبحر مزاجه متقلب فتارة يكون هادئًا لينًا سهلًا، وتارة يكون هادرًا منفلتًا، أما في هذا العام «الإخواني» عام 2001 ميلادية 1422 هـ الذي شهد أحداثًا طويلة مرهقة؛ فقد بدأ فصل خريفه وفقًا للتوقيت الرسمي مع يوم سفري إلى المنصورة لمقابلة الأستاذ محمد هلال عضو مكتب الإرشاد الذي كان من قدره وقدري أن يفتح معي ملف الخلافات والاختلافات الذي أصبح ثقيلاً متخمًا.. كنت قد اصطحبت معي في أثناء السفر صديقًا لي اسمه سمير تاج الدين وقد كان هذا الصديق أخًا شقيقًا لأحد المحامين من الإخوان؛ اسمه جمال تاج الدين، ومن الغريب أن «جمال» هذا كان قد أخذ موقفًا متشددًا مني وانضم إلى فريق محمد طوسون رغم أن الصلات الإنسانية قبل الإخوانية التي تربطني به منذ أشهر معدودة كانت في منتهى القوة، ويبدو أن القلوب تتقلب مع تقلب الأيام، لذلك انقلب جمال وأصبح من ألد الخصوم!! إلا أن أخاه الأكبر «سمير» ولم يكن من الإخوان ظل على صلته الوثيقة بي.. وكان أحد أبناء سمير تاج الدين قد التحق بكلية الهندسة جامعة المنصورة فأخذ يرتب له شأن إقامته هناك فاستأجر له شقة مفروشة، وما أن علم سمير بخبر سفري حتى آثر أن يصطحبني ليخفف عني ملل الطريق ولينتهز الفرصة بزيارة ابنه.. كان الطريق إلى المنصورة طويلًا متعرجًا مملًا وكانت السيارة تنهب الأرض نهبًا، وكانت قطرات المطر على غير العادة في هذا الوقت من العام تنساب على زجاج السيارة الأمامي برتابة مملة؛

فأوجست في نفسي خيفة.. أترى، كان هذا المطر بشير خير أم نذير شر؟ وأين السيارة التي كانت تراقبني من قبل؟ ولماذا غابت عن هذه الرحلة؟ وهكذا أخذت الأفكار تتزاحم في رأسي إلا أن تفاؤلي دحر فلول التشاؤم فانشرح صدري فكان أن انطلقت بالسيارة وانطلقت في ذات الوقت في الحديث مع صديقي عن أخطاء الإخوان المسلمين التاريخية والحركية والسياسية حتى وصلنا إلى المنصورة فأوصلته إلى الشارع الذي يقطن فيه ابنه وكان بالمصادفة قريبًا من الشارع الذي يوجد به مكتب الأستاذ محمد هلال فتركته لينصرف إلى شأنه وذهبت إلى مكتب هلال.. لم نمكث في المكتب إلا دقائق؛ فقد آثر الرجل الهرم النشيط الذي بلغ من الكبر عتيًّا أن يصطحبني إلى نادي المهندسين النهري الذي يقع على شاطئ النيل بطلخا، وهناك وجدت عددًا من المهندسين من الإخوان يستقبلوننا استقبالًا حافلًا حتى إنهم التفوا حول الرجل؛ وكأنهم يلتفون حول أحد الملوك وكانوا يتسابقون إلى تقبيل يديه في إكبار وتقدير.. وكان الأستاذ هلال يتصرف وكأنه صاحب هذا المكان والمهيمن عليه حتى إنهم أفردوا لنا وفقًا لتعليماته غرفة نجلس فيها وحدنا، وأمر أن يتم إعداد طعام الغداء على أن يكون جاهزًا بعد أن نفرغ من حديثنا.

كان الأستاذ محمد هلال عضوًا قديمًا بمكتب الإرشاد وقد شارف الثمانين أو أوشك أن يقع فيها، وكانت صلتي به طيبة فهو يمارس المحاماة مثلي أو -على وجه الدقة- أنا مثله وكان كثيرًا ما يلجأ إليَّ لحضور بعض جلسات قضاياه في القاهرة، فضلًا عن أنه كان طلب مني فيما سبق من الأيام أن

أكـون وكيلًا عن ابنته في قضية خاصـة، كانت قد أقامتها على صاحب شركة مقاولات نصب عليها وأخذ منها ومن آخرين مبلغًا كبيرًا من المال؛ ليستثمره ثم فرَّ هاربًا.

وعلى مستوى الإخوان، كانت العديد من اللقاءات قد جمعتني به خاصة بعـد قضيـة المهنيين عام 1999 وقد رأيت فيه رجلًا هادئًا بشوشًـا طيبًا قليلَ الـكلام، إلا أننـي لم أجد فيـه ثقافة مميزة أو علمًا واسـعًا بالعلـوم الشرعية أو خبرة قانونية عالية تتناسب مع سنوات عمره التي قضاها في المحاماة حتى إن الإخوان لم يسندوا إليه المرافعة في أي قضية من قضايا الإخوان التي انهمرت عليهم كالمطر بعد عام 1995.

وبـدأ الحديـث.. فتح لي الأسـتاذ هلال ملفًـا كان يحمله معه ثـم ناوله لي قائلًا: اقرأ هذا الملف بعناية.

أخذت أقرأ الملف فإذا به يحوي أوراق التحقيق والمحاكمة التي تمت معي من قبل والتي كان الحاج جودة شـعبان رئيسها، وكانت هذه الأوراق بمثابة الصاعقة التي هبطت على رأسي؛ فأذهلتني... ففيها وجدت شـهادة مكتوبة مـن أحـد المحامين من الإخـوان وكان مـن الذين وقفت معهـم ضد غوائل الأيام يشهد بأنني حرضته ضد قائمة الإخوان في انتخابات النقابة وهو الأمر الـذي لم يحدث قطُّ!! ووجدت شـهادة أخرى من أحـد الإخوة من المحامين الذيـن ارتبطوا معـي بصداقة قوية إبان قضية المهنيين يشـهد بأنني كنت أدير مؤامـرة عـلى الإخوان بتحريض من مختار نوح الـذي كان يرزح تحت أغلال

السجن وقتها! ووجدت شهادة ثالثة يشهد صاحبها الإخواني بأني خالفت قرار المرشد المتضمن منعي من الخروج من بيتي وخرجت يوم الانتخابات ووقفت ضد قائمة الإخوان! قلت للأستاذ هلال:

يا للعجب!! الإخوان يشهدون زورًا.

ألم يسمعوا عن حديث الرسول ﷺ الذي قال فيه (ألا وشاهد الزور..)؟

ابتسم الأستاذ هلال وقال بهدوء: أكمل الملف يا أستاذ...وهنا وقعت عيناي على قرار المحكمة الذي قضى بفصلي من الإخوان والذي تم العدول عنه؛ فإذا بي أقفز من مكاني غير مصدق.. المهندس ممدوح الحسيني الذي مكثت في مكتبه يوم الانتخابات حتى أُحبط خطة الآخرين وأفسد مكرهم وأثبت للإخوان أنني لم أخالف قرار المرشد بمنعي من الخروج من بيتي وأنني لم أذهب للنقابة ولم أدل بصوتي، يكتب قرار إدانتي ويؤسسه على أنني خالفت القرار وذهبت للنقابة ووقفت ضد قائمة الإخوان وحرضت الآخرين يوم الانتخابات على عدم انتخاب الإخوان!! قاضي المحكمة الإخوانية يوقع على الباطل ويشهد في حكمه شهادة يأبى الضمير أن يبتلعها.

من أي فقه استمد المهندس ممدوح دارس الفقه هذا الذي ذهب إليه؟!

أمن فقه سيد قطب الذي يقسم المجتمع لقسم مسلم وقسم جاهلي؟! نظرت للأستاذ هلال وأنا أضحك ضحكة سخرية واشمئزاز من هذا الذي قرأته ثم وجهت وجهي لصفحة نهر النيل أتفرسه وأتأمل حركته الرتيبة التي تبعث الهدوء والراحة في النفس.. ووقع في خاطري أن النيل نعمة، ولكن

النعمة تغادرنا إن خالفنا قوانينها.. نعم للنعمة قانون، وشكر الله على النعمة من قوانين بقاء النعمة بل زيادتها؛ فالله سبحانه وتعالى يقول في كتابه الكريم ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾... وهاهو نهر النيل يطفح أمام نظري بالمخلفات التي ألقيناها فيه؛ فخالفنا بذلك قواعد شكر النعمة..

وجهت نظري مرة أخرى للأستاذ هلال بعد فترة صمت وقلت: هل تعلم يا أستاذنا أن كلمة النيل فرعونية ومعناها «نعمة الله».

ضحك الأستاذ هلال وقال بحميمية: لا والله.. لا أعرف هذا.. ولكن «هو انت بتتكلم فرعوني» «كنت فاكرك بتتكلم إخواني بس».. هههه.

ـ شاركته الضحك وأنا أقول: لا أنا في الإخوان من فريق الصم والبكم؛ فالذي يتكلم في الإخوان برأي إما أحمق وإما متهور.. ألم تسمع يا أستاذ هلال بذلك الذي قال.. وافق أو نافق أو فارق؟!

قال الشيخ بأبوية وقد اصطنع تجهمًا صوريًّا لم يستطع إخفاء ابتسامة ندت عنه: يا ولد.. الإخوان دعوة ربانية.

قلت وأنا أستدرجه في الحديث: النيل نعمة من الله، فماذا فعلنا بتلك النعمة.. انظر يا سيدي لتلك المخلفات الرهيبة التي لوثت النيل لقد أضعنا النعمة من بين أيدينا حتى إننا ونحن على ضفة النهر نشرب معًا مياهًا معدنية!! والإخوان دعوة ربانية.. نعم الدعوة نفسها ربانية بقربها من القرآن والسنة.. ولكن الأفراد الذين ينضوون تحت لواء التنظيم ليسوا ربانيين.. هم أفراد يرتكبون الأخطاء ويكذبون ويزّيفون ويشهدون زورًا، فإذا ابتعد أفراد

الحركة من حيث التطبيق عن كتاب الله وسنة رسوله ابتعدوا عن الربانية وفقدوا خيريتهم.

تنهد الشيخ ثم قال: لا تقل هذا الكلام لأحد ولا تنتقد إخوانك.. اخفض جناحك للإخوان ولا تمس الرموز.

حركت رأسي ذات اليمين وذات اليسار وأنا أقول: هذا هو توثين الرموز أي جعلهم أوثانًا، وهذا ليس من الإسلام في شيء.. هناك من الصحابة من سرق ومن زنى ولم يصدر عن رب العالمين تشريع بتوثين الصحابة ومنع النقد، بل إن حق النقد وحق إبداء الرأي من الحقوق الأصيلة في الإسلام ولكننا للأسف قد جهلنا هذا الحق عبر مئات السنوات، الآن صرنا يا شيخنا أقدس من الصحابة وقمنا بشخصنة الدعوة فأصبح قادتها فوق مرتبة البشر بزعم أنهم يحملون راية الدعوة وأمسى من ينتقد الإخوان كأنه ينتقد الإسلام!

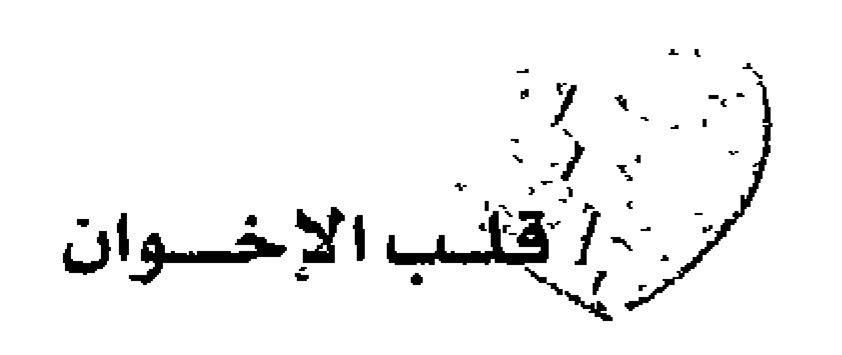
وضع الشيخ وهو يمازحني يده على أذنه وكأنه يقول: وكأني لم أسمع شيئًا.. هذا كلام تضيع من أجله الرقاب وأنا أخاف على رقبتي.. دعنا ندخل في الموضوع.. ما رأيك في هذا الملف الذي بين يديك؟

قلت وأنا أهز رأسي يمينًا ويسارًا علامة على الرفض والامتعاض: هذا الملف في حد ذاته جريمة، ففيه شهود زور وفيه قاضٍ اتبع الهوى فمال عن الحق.. لست في حاجة إلى أن أدافع عن نفسي ولكنهم هم جميعًا بمن فيهم أعضاء المحكمة الصورية في حاجة إلى أن أصفح عنهم.

تنفس الأستاذ هلال نفسًا عميقًا وقال وهو يتناول مني الملف: إسمع يا ثروت.. يقول الشاعر:

سئمتُ تكاليفَ الحياةِ ومن يعش ثمانين حوْلًا -لا أبا لك- يسأم

وأنا قد بلغت الثمانين وليس لي في الدنيا مأرب وليس لي عند الإخوان حاجة وأتمنى أن أتقاعد من عضوية مكتب الإرشاد قريبًا، وقد قرأت الملف جيدًا وكنت معترضًا على قرار فصلك، وأنا أصدقك دون أن تشق على نفسك وتدافع عن موقفك فقد علمت بيقين من خلال مصادري فساد الوقائع التي نسبوها لك وقد أغضبني أن البعض يتبع طرقًا غير شرعية للوصول إلى غاياته التي تبدو بعيدة عن نصرة الإسلام ولا علاقة لها برفع راية لا إله إلا الله.. وقد أحزنني ومزق قلبي وقائع المحاكمة السابقة التي عقدوها لك، فهي محكمة باطلة لا تساوي قطميرًا، والذين جلسوا ليحاكموك لا يفهمون شيئًا غفر الله لهم، فالحاج جودة رجل خالي الوفاض على الفطرة، أما ممدوح والآخر فلا حيلة لهما.. ثم خفض صوته وكأنه يقول سرًّا ثم همس: هأنذا أنتقد الإخوان كما تفعل أنت.. ثم ضحك وهو يستكمل: لا تقل لأحد نقدي هذا وإلا فصلوني مثلك.. ثم عاد إلى جديته وقال: أنا أرى أن تضرب الصفح عن هؤلاء وتبدأ مسيرتك من جديد مع الإخوان، وأقترح عليك أن تعتزل قسم المحامين وتتفرغ لأنشطة الإخوان في منطقتك ولنغلق هذه الصفحة، أما عن مكتب الإرشاد ومحاكمتك فسأقوم أنا بتسوية هذا الأمر وسأذهب للحاج مصطفى وهو رجل طيب ولكنهم نقلوا له عنك نقلًا غير صحيح وأفهموه أنك تدبر مؤامرة ضده هو شخصيًّا، وسأخبره بأن تحقيقي انتهى إلى عدم ارتكابك أي



مخالفة وربنا يسامحني، سأكذب من أجلك وسأنقل له حبك للإخوان وحبك له شخصيًا.. وأنهى الشيخ كلامه بضحكة، ثم قام من مكانه ليطلب من أحد العاملين وضع الطعام على إحدى الموائد التي ترى النيل عن قرب.

■■■

عدت إلى مصر ليس بخفي حنين -كما يقول المثل العربي- ولكن بمتاع حنين كله إن كان لحنين متاع وكان أول ما فعلته بعد عودتي وقبل ذهابي لمنزلي هو توجهي إلى مكتب ممدوح الحسيني حيث وجدته يجلس مع بعض الإخوة فرحب بي ترحيبًا كبيرًا ووضع يده على كتفي في مودة ظاهرة واصطحبني إلى غرفة جانبية كي ينفرد بي وعندما جلسنا سألني وهو يبدي القلق: ماذا فعلت يا أخي الحبيب عند الأستاذ هلال؟

أبديت عدم الاهتمام بالسؤال وباغته قائلًا: هل وضعت توقيعك على قرار فصلي ووافقت على زعمهم بأني خالفت قرار الحاج مصطفى وذهبت للنقابة يوم الانتخابات؟

سكت ممدوح وتنحنح ويبدو أنه فوجئ من سؤالي، إذ قال لي: نعم.. هه؟

أعدت عليه السؤال وأضفت: كنتُ في مكتبك وفي رحابك وفي ضيافتك في هذا اليوم.. جئت إليك باتفاق وافق المرشد عليه، فكيف انقلب الحال وكيف طاوعك قلبك وقلمك على أن توقع على شهادة زور؟ كيف واتتك الجرأة على ذلك؟

تلعثم ممدوح وهو يقول: أنا مجرد عضو بالمحكمة ولم يكن هذا القرار قراري.

احتد صوتي وأنا أقول: ولكنك وافقت عليه ووقعت على تفصيلاته بما يعني قبولك هذا التزوير! ألم يقل لي الحاج جودة يومها إنه عرف منك وجودي معك وإن هذا الزعم باطل وإنه سيرد كيدهم؟!

استمر ممدوح في تلعثمه وهو يقول: الحمد لله.. هذا يعني أنني قلت الحق..

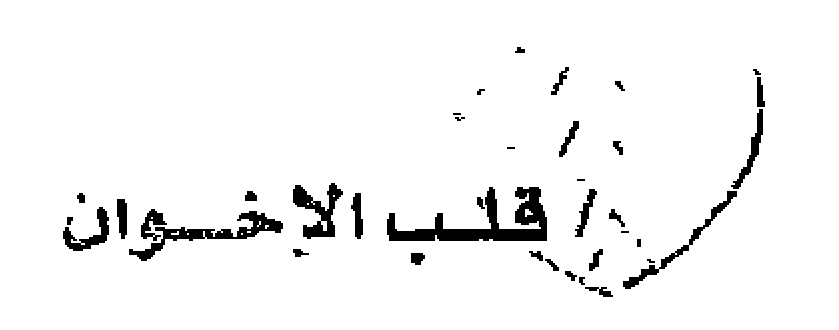
بادرته ساخرًا: ولكنك وقَّعت على الباطل.

زفر ممدوح زفرة مَن أصيب بالضجر وقال: والله هذه أوامر من المستشار مأمون الهضيبي شخصيًّا، هو الذي تسلم منا التحقيق وهو الذي كتب القرار، وكان دورنا مقصورًا على التوقيع على أسباب قراره دون أن نتدخل في شيء.. القرار جاء لنا من فوق يا أخي ولم نكن نملك حياله شيئًا.

وهنا وقفت متأهبًا للمغادرة، وفي منتصف الغرفة استدرت له وأنا أقول: ذات يوم سيتم إحالتك لمحكمة استثنائية وسيأتي الحكم من فوق وسيكون دور أعضاء المحاكمة هو التوقيع على قرار حبسك.. يا أستاذ ممدوح، كما تدين تدان.

■■■

بعد أسبوع من عودتي من المنصورة تلقيت اتصالًا على هاتفي المحمول من الأستاذ محمد هلال الذي طلب مني في كلمات قصيرات مبتسرات أن أقابله باكرًا أسفل مكتب الإرشاد بالمنيل، وقبل الموعد المحدد كنت أجلس بسيارتي في



المكان المتفق عليه وكنت أستمع لصوت فيروز وهي تغني أغنيتها الشهيرة عن القدس.. كنت أشاركها الغناء بصوتي وبمشاعري: «لأجلك يا مدينة الصلاة أصلي.. لأجلك يا بهية المساكن.. يا زهرة المدائن.. يا قدس يا قدس يا قدس يا مدينة الصلاة.. أصلي.. عيوننا إليك ترحل كل يوم.. ترحل كل يوم.. تدور في أروقة المعابد.. تعانق الكنائس القديمة.. وتمسح الحزن عن المساجد.. يا ليلة الإسراء.. يا درب من مروا إلى السماء.. عيوننا إليك ترحل كل يوم.. وإنني أصلي»، واسترسلت فيروز في الأغنية وهي تقول: «البيت لنا و القدس لنا و بأيدينا سنعيد بهاء القدس بأيدينا للقدس سلام للقدس سلام آت للقدس سلاااااام آت آت آآت».

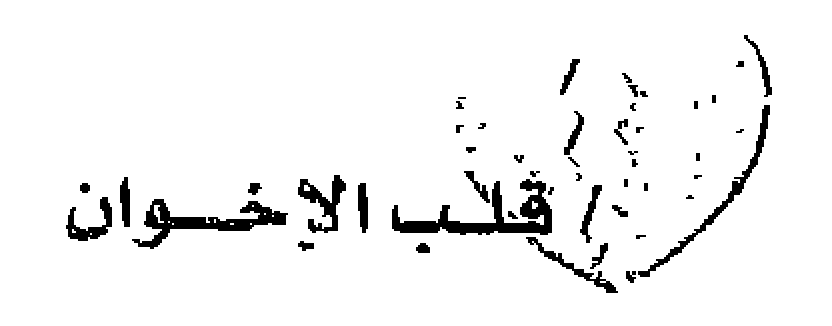
وعلى حين غرة وجدت الأستاذ «هلال» يقف مبتسمًا بجوار السيارة وهو يقول: قالت لك الست فيروز إنه سيأتي سلام وصممت وأكدت وقالت آت آت؛ فإذا بهلال هو الذي أتى وليس الأخ سلام.. نزلت ضاحكًا وأنا أعانقه قائلًا: غزة يتم دكها ليل نهار بالصواريخ والقنابل، وأطفالها يُقتلون بلا رحمة، وجماعة الإخوان غيرت أولوياتها فأصبحت فلسطين في الذيل.. جماعة الإخوان بجلالة قدرها وهي راعية الإسلام وداعيته منشغلة بقضها وقضيضها بثروت الخرباوي وطوسون ونقابة المحامين وسفاسف الأمور ونسيت غزة والقدس وأهلنا هناك.. فمن سيأتي بالسلام؟

بادرني وهو يمزح: أخفض صوتك، إنك بالوادي المقدس.. وادي الإخوان الكائن بالمنيل وتحت مقرهم.. ألا تخاف أن يسمعك عمك الحاج مصطفى مشهور؟ عمومًا شكلك «هتعكها».. انتظر هنا ولا تصعد معي وسأنزل إليك بالخبر اليقين.

عدت إلى السيارة وأدرت شريط أغنية القدس لفيروز مرة أخرى، وبعد نصف ساعة هلَّ الأستاذ هلال مرة أخرى ليقول وقد قطب جبينه مدعيًا التجهم: مبروك يا سيدي، وافق الإخوان على تبرئتك ولكن الأخ مأمون الهضيبي صمم على توقيع عقاب ولو صوريًا فوافقنا على أن يتم إيقافك مدة شهر عن نشاط أسرتك الإخوانية ونشاط الكتيبة، على أن يبدأ تنفيذ العقاب من أول شهر رمضان، وأنت تعلم أن نشاط الأسر والكتائب يتوقف أصلًا في رمضان فلا عقاب إذن.. سيصل القرار لمنطقتك خلال يومين.. هيا اذهب لمصالحك ولا تنسنا من صالح دعائك.

رفعت كتفي علامة اللامبالاة وكدت أقول له: لا يهمني قرار الوقف «فأحمد هو السيد أحمد» وقراركم كالهباء المنثور أو كالزبد الذي يذهب جفاء لأنه لا ينفع الناس، إلا أنني دفنت كلماتي في جوفي احترامًا لشيخوخة الرجل وسعة صدره وجهده الذي بذله.

وقبل أن يتركني الشيخ وينصرف إلى شئونه لمحت الشخص الذي كان يراقبني بسيارته عبر الشهور الماضية، والذي كنت أظن أنه من إحدى الجهات الأمنية وقد أوقف سيارته على مقربة من البناية التي بها مكتب الإرشاد.. نزل هذا الشخص من سيارته إلا أنه لم يكن وحده كان معه آخر.. يا للمفاجأة المذهلة! أحقًّا ما أراه؟ كان الذي معه هو الدكتور محمود عزت عضو مكتب الإرشاد والأمين العام للجماعة وكان يتأبط ذراعه وكأنه ولي حميم.. صحت في وجه الأستاذ هلال قائلًا: من هذا الذي مع الدكتور محمود عزت؟ فتعجب من صيحتي وقال: ما لك هل هناك شيء؟ هذا أخ



مـن الإخوان من الذين يعملون مع الدكتور محمود عزت في منطقته وهو أخ ثقة ودائمًا ما يكلفه بمهام إخوانية خاصة.

ارتسـمت عـلى وجهي مئات علامات الاسـتفهام والتعجـب.. لقد كان الشخص الذي يراقبني ويعد عليَّ أنفاسي هو أحد الشباب الذين يعملون في جهاز سري داخل الجماعة اسمه جهاز أمن الدعوة!

انصرفت ذاهلًا دون أن أودع الشيخ.

الفصل العاشر

وداعًا شاوشانك

« لا تكن عبد غيرك وقد خلقك الله حرًا » قالها سيدنا علي بن أبي طالب فسمعناها ثم جعلنا من أنفسنا عبيدًا لغيرنا، أما طاغور فقال: « ثقيلة هي قيودي والحرية هي مناي ولكنني لا أستطيع أن أحبو إليها فمن استعبدوني رفعوا لافتات الفضيلة وجعلوها حائطًا بيني وبين حريتي » لذلك لا تجزع إن رأيت لافتات الفضيلة والشريعة والخلافة قد أصبحت هي جدران السجن الذي يتم استعباد الغافلين المتدينين فيه ».

مر شهر رمضان الكريم بروحانياته وقيامه.. قرأنا القرآن فاهتزت قلوبنا رهبًا ورغبًا وسجدنا لرب العزة فاندفعت أنوار الإيمان إلى صدورنا.. مرَّغنا جباهنا في التراب طاعة لله ودعونا الواحد الأحد وبكينا وتحرينا ليلة القدر..

تعبـدت لله وأنـا موقوف من الإخـوان، وكنت أتعبد لله قبـل أن يتم إيقافي.. فما الفارق إذن؟ هل سـينتقص الله من حسـناتي لأن الإخـوان أوقفوني؟ هل سـيكون في صيامي شك لأن المرشـد لم يرض عني؟! وهل الوقف الإخواني يجعل الموقوف فاطرًا؟!

من الغريب أنني كنت أفضل في هذا الشهر من أيام سابقات، بل كان من قدر الله أن وقفت في هذا الشهر المبارك خطيبًا على المنابر في أيام الجمع في أحد المساجد بالمنطقة الأولى في مدينة نصر، كما كنت ألقي خاطرة دينية في مسجد بالمنطقـة الثامنـة بين صلاة القيـام، كان هذا من نشـاطي الدعوي الخاص بي بعيدًا عن الإخوان فمن أثر الوقف أن أتوقف عن أي نشـاط دعوي، كما أنه لم يكـن أحد من الإخوان من كبيرهم إلى صغيرهم يعلم شـيئًا عن ممارسـتي الخطابة والدعوة في المساجد.

تأملـت وأنـا في خلوتي الروحية حـال الكثيرين من الإخـوان الذين دخلوا الجماعـة بمشـاعر دينية متدفقـة، وملكات نفسـية وذهنية متنوعـة، يحملون في طيـات أنفسـهم مواهب دفينـة هي كالألماس الـذي يبحث عن مكتشـف له.. وبغـير مـا يبتغـون تحولـت طاقاتهـم وملكاتهـم ومواهبهـم إلى ثروة مبـددة.. انطمرت الماسـات تحت وسـائل تربوية عقيمة ترفع من شـأن السـمع والطاعة ويتيـه الأخ معهـا في الإداريات.. فـإذا كان كل تنظيم أو تيـار لا يرتفع إلا على أكتـاف أصحـاب «التوهـج الفكـري» فقد أصبـح التنظيم الإخـواني صاحب أكـبر ثـروة بشرية إلا أنها لا تكاد تـرى النور بعد أن تم تخزينهـا هناك في خزينة الجماعـة.. تـكاد الجماعة في هذا تشـبه الرجل الـذي امتلك كنـزًا ثمينًا فبذره في التراب وطمره في الطين.

هـل كنـتُ وحدي الذي نـال حظه مـن التكبيل؟ هـل كنت فريـدًا حينما ضيقـوا علـيَّ الخناق؟ لن تكون الإجابـة إلا بكلا ولا ولـن ولم.. فيقينًا لم أكن بدعًـا منهـم، فجماعـة الإخـوان دخلها وخـرج منها مـن هم أعلى منـي قدرًا وقيمة وفكرًا وموهبة.. جماعة الإخوان متخمة بالمواهب وأصحاب الطاقات والملـكات في المجـالات الدعوية والفكرية إلا أنهم يرسـفون في أغلال وقيود التنظيـم التـي حرصت على إخفائهـم عن جمهور الناس، ومن اسـتطاع منهم أن يفـر من التنظيم خرج إلى سـماء الدعوة ونال شـهرة في مجاله وأصبح قائدًا ومؤثرًا في تخصصه، وكأنه يقول للجماعة بقيودها ومثالبها:

يا باري القوس بريًا لسـت تحسـنه   لا تظلم القوس واعط القوس باريها

خـرج أبو العلا ماضي ومعه مجموعة الوسـط؛ فأصبحوا أصحاب أنضج تجربة فكرية إسلامية حركية حتى إن رجب طيب أردوغان صرَّح بأنه استلهم فكـرة حزبه التركي من تجربة حزب الوسـط وأبو العلا ماضي، وخرج عمرو خالـد فأصبح أشـهر داعية في عصرنـا الحالي وتطور في طريقته حتى اسـتطاع اجتذاب فئات من الشباب عجزت الجماعات والحركات والدعاة عن اجتذابهم إلى طريـق الالتـزام، وامتـد تأثير عمرو بعـد تحرره من قيود الإخـوان إلى كل العالم الإسلامي، أما الشيخ القرضاوي بقدره وعلمه وتأثيره فقد آثر أن يفك أغلال التنظيم من معصمه ويهب نفسـه وعلمه وفقهه لكل العالم الإسلامي، ومن قبل هؤلاء خرج الشـيخ الفقيه سيد سـابق والشيخ الرباني محمد الغزالي -رحمهـما الله- وغير هؤلاء كثير بحيث يصعب الحصر.. ولكن للأسـف، ما زالت ثلـة من أصحاب الملـكات والمواهب والطاقات مـن الإخوان يقبعون

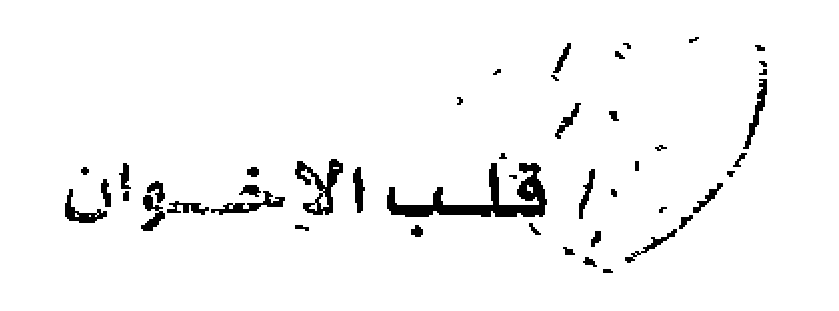
في سراديب الجماعة تخيفهم أضواء الشمس ويزعجهم الصوت المرتفع؛ إذ لم يتعودوا النور ولم تقو عيونهم على استقبال أشعته، كما لم يعرفوا إلا الهمس والسرية خوفًا من الأمن أو خوفًا من النقيب أو المسئول أو المرشد.. ومع هذا التغييب لكل المواهب ما زالت الجماعة تزعم أنها تسعى لأسلمة المجتمع واستعادة دولة الخلافة الإسلامية.. ستستعيدها وستؤسلم المجتمع بفريق من البكم الذين لم يتعودوا الكلام! والصم الذين لا يسمعون! والأكفاء الذين أدمنوا النظر للظلام! ستستعيدها بالمشلولين الذين لم يعرفوا الحركة ويوغر صدرهم أن يروا غيرهم يتحرك! وحقًّا قال شيخنا القرضاوي: «إن الجماعة لم يبق فيها بعد أن تفلَّت منها أصحاب المواهب إلا المتردية والنطيحة وما أكل السبع».. ذات صبح، استيقظنا من نومنا فوجدنا أن دعاة الإخوان الذين كانوا يملئون الدنيا دينًا ودعوة قد اختفوا تمامًا وغابوا عن مصر وظهر غيرهم من غير الإخوان مثل الدكتور عمر عبد الكافي وصفوت حجازي وخالد الجندي.. وظهر أيضًا أرتالٌ من دعاة السلفيين مثل الشيخ محمد حسان والشيخ أبو إسحاق الحويني والشيخ محمد حسين يعقوب وبسطوا نفوذهم الفقهي على جمهور واسع حتى بات جمهور السلفيين يفوق جمهور الإخوان ثلاثة أضعاف.

تداعت إلى ذهني الخواطر وأنا في خلوتي التعبدية التي عشت فيها وبها في رمضان ودفعتني هذه الخواطر إلى وضع مقارنة بين عهدين عشت فيهما: عهدي في الإخوان، وعهدي وأنا موقوف عن أنشطة الإخوان لمدة شهر، وكانت المقارنة في غير صالح إخوانيتي التنظيمية.. دخلت الإخوان للدعوة

ومـن أجـل أن أتعبد لله؛ فإذا بالجماعة تبعثر في طريقي وطريق غيري الأشـواك الإداريـة التـي من شـأنها يقينًـا أن تمنعني من الدعوة وأن تشـل حركة الشـباب المتدين مـن أصحاب الطاقات والملكات الخلاقة.. وأظن أنني دخلت الإخوان وهأنذا على وشك الخروج أو الفرار منهم، ولم يسأل أحد منهم ذات يوم: في أي شيء تميـز هذا الرجل؟ ومـا موهبته؟ أهي في مجالات الكتابة أم الخطابة أم علوم المفاوضة أم الدعوة أم فنون السياسـة أم غيرها؟ ضجر فؤادي من الاسترسـال في المقارنات وختمت حديث النفس إلى النفس بحقيقة أظنها لا ينبغي أن تغيب عن أحد وهي أن الجماعة كمؤسسـة لم يكن من ديدنها أو نظامها الاهتمام برصد الموهوبين وتوظيف مواهبهم؛ فهذا أبعد ما يكون عن الإخوان!

لا ريب عندي أن شـهر رمضان الكريم كان بمثابة إعادة صياغة حقيقية لتفكيري، فقد صبَّ في روحي شلالًا نورانيًّا رأيت فيه رحابة الإسلام وضيق التنظيـم، ومن خلاله أيقنت أن التنظيم الضيـق مهما تكن قوته لا يمكن أبدًا أن يسـتوعب رحابة الإسـلام، وأن الذين يريدون إدخال الإسـلام في تنظيم مهما يكن قدره كأنهم يحاولون إدخال جَمل في سم الخياط وهم، يقينًا، يجهلون الإسلام ويخلطون بينه وبين التنظيم عمدًا أو جهلًا.

ولأن الشـهور تمر والزمن ينقضي، مضت أشـهر بعد انتهاء مدة الوقف.. انتهى الوقف وكان له أن ينتهي، إلا أن نشاطي في الإخوان ظل متوقفًا بإرادتي فلم أنتظم في أسرة ولم أحضر كتيبة ولم أسـدد اشـتراكًا، ومما يدهش الألباب أن الإخوة الذين كانوا يلتفون من حولي ويظهرون مشـاعرهم المسـاندة لي لم يهتمـوا بغيابي وضاعت عبر الأثير الإخواني كل الأخوَّة وكل معانيها، ويبدو



أن الأخوة تكون عندهم في التنظيم وليس في الإسلام.. فمن كان معي في التنظيم كان أخي ومن اختلف مع التنظيم ليس أخي.. فهي أخوة في التنظيم قطعًا وليست أخوة في الإسلام!

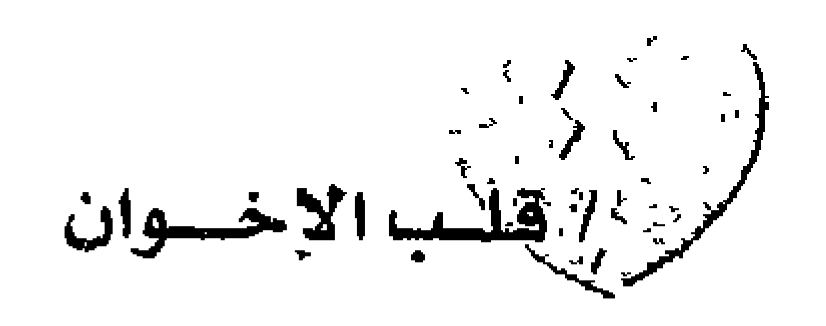
وأخيرًا... وبعد شهرين من انقطاعي المتعمد عن الإخوان زارني الأخ حسن عبد الحليم الذي كان قريبًا مني ذات يوم، والذي كان يمتص غضبي ما وسعه الجهد عند بداية الخلافات، إلا أنه غاب عني واحتجب عن واقعي فيما بعد، وكأنه نفض يديه من «الجمل بما حمل» على رأي المثل.. وقع في ظني وقد كنت سليم الطوية أن الزيارة ربما تكون أخوية وأن مبعثها هو الاطمئنان عن سبب غيابي عن الإخوان، وقد كانت عبارات الاطمئنان بالفعل هي العبارات التي بدأ بها حسن حديثه معي وسرعان ما عرج إلى أمر آخر كان قد تاه عني وغاب عن وعيي وهو أمر الاشتراك الشهري الذي يجب أن يدفعه كل أخ وهو يمثل نسبة ما من إجمالي دخله والذي كنت قد امتنعت عن سداده في الشهرين الماضيين، سألني حسن: أين الاشتراك يا سيدنا؟ إخوانك يسألون: لماذا توقفت عن سداده؟ تفجرت ينابيع الدهشة في أعماقي.. أهذا كل همكم؟ واحسرتاه على جماعة لم تهتم بقلب الأخ وكرامته قدر اهتمامها بجيبه! قلتها في نفسي، ثم نظرت إليه بابتسامة وقلت وأنا أنتقي الألفاظ: إن شاء الله.. ادع لنا بالخير والرزق.

اللهم ارزق ثروت أخي رزقًا وفيرًا طيبًا وبارك له في ماله وصحته.. قالها حسن ثم قام مستأذنًا وقد أيس أن يأخذ مني شيئًا.

■■■

كان عـام 2002 يجري في سـباق محموم مع نفسـه حتى اقـترب من منتصفه أو كاد، ومـع ذلك كانت أيامـه مترعة بالأحداث، فمن ناحيـة تعاقبت القضايا التـي أقمتهـا أمام القضاء الإداري بهـدف الإفراج عن إخـوان «قضية النقابات المهنيـة» العسـكرية وتعددت زيـاراتي لمختار نوح وإخوانه في محبسـهم من أجل مناقشة تطورات القضايا، وكنت ألقى من إخوان السجن كل دعم نفسي وتأييد معنـوي خاصة من الدكتور محمد بديـع والدكتور محمد بشر، ومن ناحية أخرى زاد فتوري ونفوري من البقاء داخل الجماعة فكنت أسـير في طريقي وكأني أجمع طرفي مقص ما إن يلتقيا حتى يفترقا.. وكنت قد رأيت ألا أشـغل تفكيري بأمر الإخـوان وأركن إلى الهدوء والوحـدة، إلا أن الأحداث كانت لا تدعني لنفسي طرفة عين.. فكيف أبتعد عن الأحداث والأحداث لا تبتعد عني؟!

أخـذت أرقب ما يدور في نقابـة المحامين عن كثب خاصة وأن الخلافات بدأت تعلن عن نفسـها بين إخوان النقابة وسامح عاشور نقيب المحامين، إذ كان عاشـور قد بدأ في استقطاب الكثيرين ممن تحالف الإخوان معهم ونجح بغرابة شـديدة في جذب حلفاء الإخوان إلى فريقه الصغير، وهاهم الإخوان يفقـدون الواحد تلو الآخر من الناجحين عـلى قائمتهم حيث كانوا يذهبون رهبًا أو رغبًا إلى «حصالة» النقيب سامح عاشور التي يجمع فيها الهاربين من قائمـة الإخوان.. وزاد الطين بلة أن فقد إخوان النقابة بعضًا من رجالهم من أعضاء التنظيم فقد سـارع أحدهم بالتحالف مع سامح وانقلب على إخوانه بغيـة تحقيـق مصالحه، ومن الغريـب أن هـذا العضو الإخـواني المنقلب كان ممن شـهدوا زورًا ضدي!! فكان انقلابه درسـًا ينبغـي أن يفهموه ولكن أنى



لهـم أن يفهمـوه؟ أما الأعجب فهو أن إخوان التنظيـم لم يتحركوا بتحقيق أو محاكمـة لهذا العضو الذي انقلب عليهم ويبـدو أن إخوان المحامين أحجموا عـن التحرك في مواجهـة هذا الأخ حتى لا يفضح الكثير من مخالفاتهم التي شهدت لها فيها بعد تقارير الجهاز المركزي للمحاسبات.

وفي خضـم الأحداث المتلاحقة توثقت صلتي بمجموعة حزب الوسـط الذين خرجوا من الإخوان ليعلنوا على الملأ مشروعهم السـياسي والفكري، ومـع زيادة صلتي بهم تبين لي أنهم وصلوا بحزبهم تحت التأسـيس إلى درجة من النضج السـياسي والفكري والفقهي قد يصل إليها الإخوان بعد خمسـين عامًا إن تخلوا عن جمودهم وتيبسهم.

كان مـن البديهـي أن يكـون عاطـف عـواد هو همـزة الوصـل بيني وبين مجموعـة الوسـط.. فعاطـف كان مـن مجموعة الوسـط حتى عندمـا كان في قلـب الإخوان، كـما أنه كان من الأصدقاء المقربـين لي وكان رفيقي في معظم الأحداث التي مرت بي سواء وأنا في الجماعة أو عند اختلافي معها، فضلًا عن أنه كان مشـتركًا معي في خطة (إنجاح سـامح عاشور على رجائي عطية) ولم يتخلف عاطف عن مسـاندتي أو بالأحرى مسـاندة نـوح وبدوي في القضايا التـي أقمتها، فـكان معي في كل الجلسـات كتفًا بكتـف، وكان يصاحبني في مسيرة التحالف القانوني والسياسي مع كبار المحامين من كل الأطياف.. ظل عاطـف معي ردئًا يصدقني ويشـد مـن أزري فكان معي ثـاني اثنين إذ ذهبنا للفقيه الدستوري محمد عصفور رحمه الله نطرح عليه أفكارنا القانونية، وعند ذهابنا للمحامي الحكيم محمد علوان نرشف من حكمته وأفكاره الصائبة.

كانت تجربة عاطف مع الإخوان فريدة من نوعها وكان قد حسم أمره في غضون النصف الأخير من عام 2000 وترك الإخوان غير آسف على ذلك متجهًا بعقله وقلبه وكل كيانه إلى حزب الوسط تحت التأسيس، وقد اعتبرته أكثر شجاعة مني فقد فعل ما عجزت عن فعله وقتها.

أما عن الخاتمة التي ختم بها عاطف وجوده مع الإخوان فقد كانت خاتمة طريفة غاية الطرافة.. ذلك أن مجموعة حزب الوسط كانت قد بدأت في الاكتتاب لإنشاء صحيفة تعبر عنهم وتعبر عن أفكارهم وأعلنت في الصحف عن ذلك المشروع وعن فتح باب الاكتتاب.. وطرق طارق خفي على بوابة الإخوان ليخبرهم أن عاطف عواد من المارقين وأنه حتمًا اكتتب ودفع من ماله متبرعًا من أجل إنشاء صحيفة حزب الوسط!! فكان أن أوعز أحدهم إلى بعض الإخوان من المحامين بهذا «الجرم الافتراضي» الذي ارتكبه عاطف، فما كان منهم إلا أن تقدموا بشكوى ضده وكانت هذه الشكوى بطبيعة الحال من نصيب «الرجل الطيب» قاضي الإخوان في منطقة شرق القاهرة الحاج جودة شعبان حيث أسندت له الجماعة أمر التحقيق واستجلاء الحقيقة.

كان عاطف محاميًا داهية يتميز عن غيره بمنطقه وسرعة بديهته، أما الحاج جودة فهو رجل على سجيته كجدول ماء ضحل ترى الحصباء في قاعه دون أن تمعن النظر فيه.. ويبدو أن عاطف كان قد انتوى ترك الإخوان قبل التحقيق إلا أنه أسر هذا الأمر في نفسه ولم يبده لهم؛ لذلك لم يلق بالًا بالتحقيق وما سيسفر عنه.

ذهب عاطف للحاج جودة ودخل يقبل كتفيه كما يفعل الإخوان في مجتمعاتهم وسأله وهو يبدي الاهتمام: أنا تحت أمرك يا عمي الحاج وطوع بنانك.. لك أن تأمر.

ـ خير يا بني إن شاء الله.. يقولون إنك اكتتبت لإنشاء «مجلة» الوسط؟

ويبدو أن الحاج جودة لم يستطع التفرقة بين «المجلة» و«الصحيفة» فهناك مجلة عربية تصدر في لندن اسمها مجلة «الوسط» لا علاقة لها بحزب الوسط وهناك «صحيفة» يجري الاكتتاب فيها لصالح حزب الوسط، فخلط الحاج بين هذه وتلك دون أن يدري أن البون شاسع بينهما.... فابتسم عاطف في نفسه وقال: أنا!!! يا ليت يا حاج جودة فهذا أمر لا يستطيعه إلا الأثرياء.

ـ هه.. نعم.. الأثرياء.. يا ليت.. لم أفهم شيئًا؟!!

ـ مجلة الوسط يا عمي الحاج هي مجلة عربية قديمة وعريقة وتصدر من لندن ويمتلكها بعض الأثرياء العرب ويتم توزيعها على نطاق الوطن العربي بل على نطاق العالم كله.

ـ ولكنهم يقولون يا بني إنها مملوكة لحزب الوسط.

ـ صدقني يا عمي.. وبقدر الله معيَ الآن نسخة من العدد الأخير من هذه المجلة وهاهي بين يديك فانظر إلى رقم العدد لتعلم أنها مجلة قديمة نشأت عندما كانت مجموعة الوسط تلاميذ في المدارس.. أما مجموعة الوسط فليست لديهم مجلة.

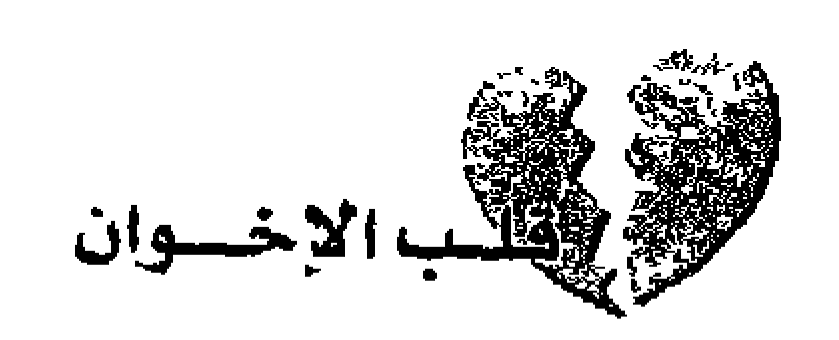
أمسك الرجل بالمجلة وهو غير مصدق نفسه وأخذ يقلب كفيه ذات اليمين وذات الشمال ثم قال: أستغفر الله العظيم.. نأسف يا بني على هذا الخطأ فأنت أخونا الحبيب ولكن إخوانك أرادوا التأكد فاعذرهم فهم إنما اتبعوا منهج سيدنا إبراهيم حين قال لرب العزة ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.
فابتدره عاطف قائلًا: أنا أعذرهم يا عمي الحاج وسأتبع معهم منهج سيدنا يوسف حين قال لإخوته: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

ـ بارك الله فيك.

وخرج عاطف عواد من مجلس الحاج جودة وقد نفض يده من الإخوان.

أخذت أجتر تجربة عاطف مع الإخوان وقصة خروجه من الجماعة وأقلّبها في ذاكرتي ذات صباح حين طلبني الدكتور عبدالمنعم أبو الفتوح هاتفيًا.. وكأنه يكلمني دائمًا في الخطوب.. قال بعد أن ألقى السلام: اسمع كلامي يا أخي الحبيب.. هناك من يعبث مرة أخرى في قلب أبيك الحاج مصطفى ويوغر صدره عليك فقد تقدم أحدهم بشكوى يزعم فيها أنك تُحرّض الحاج عبد السلام كشك عضو مجلس نقابة المحامين والمتحالف مع الإخوان وهو الشقيق الأكبر للشيخ عبد الحميد كشك رحمه الله على أن ينقض اتفاقه مع الإخوان ويعقد اتفاقًا مع سامح عاشور بخصوص أمر من أمور النقابة.

ـ لم يحدث هذا قطعًا.



ــ جيد.. إذن أنـا أرى أن نحبط مخططات من زعم هـذا الزعم، وأقترح عليك أن تذهب للحاج مصطفى في بيته وتنفي له هذا الزعم.

ـ ليس لديَّ مانع.. متى أذهب إليه؟

ــ اذهب إليه بعد صلاة العشاء.

وبعد نصف ساعة أعاد أبو الفتوح الاتصال بي ليقول: اسمع يا أخ ثروت حدث تغيير في شـأن اللقاء إذ لن تسمح ظروف الحاج مصطفى باستقبالك؛ لذلك تحدثت مع المستشـار مأمون الهضيبي وسـيكون هو في انتظارك في بيته بمـصر الجديـدة اليوم بعد صلاة العشـاء.. أرجـوك يا أخي هـذا اللقاء على درجة كبيرة من الأهمية والرجل سينتظرك فلا تتأخر عليه.

■■■

مـر زمـن طويل كنـت قـد انقطعت فيـه عن صديقـي أحمد ربيع بسـبب مشـاغلي وانشـغالي بالأحداث التي مرت بي والتي لم تتركني أهنأ براحة منذ آخر مرة اتصلت فيها به.. وكان أحمد في ذات الوقت يتعرض داخل الإخوان لحـروب ومكائد بيـد أنه كان صابرًا على حروب هدفها تهميشـه بعد أن كان في يوم من الأيام أحد الرموز التي أسـهمت في اشتداد ساعد جماعة الإخوان كلها في منطقة الجيزة، ومن أسـف فإن الجماعة بعد أن اشـتد ساعدها رمته.. كما رمت آخرين.

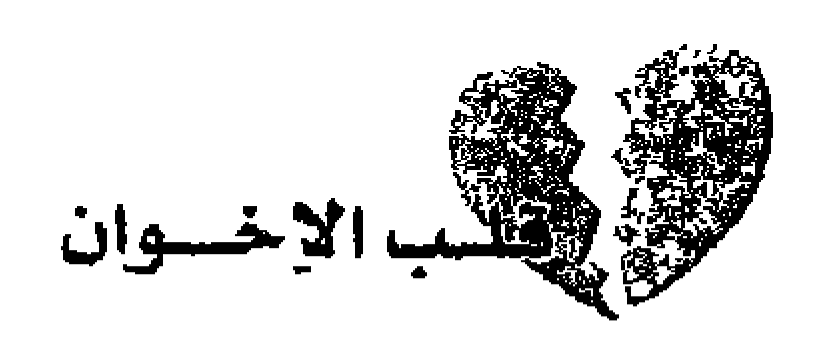
بعـد أن هاتفنـي عبدالمنعـم أبو الفتـوح تذكرت أحمد وكأنني أشتد به في

الأوقات الحاسمة فأمسكت بالهاتف الأرضي واتصلت به وأخبرته سريعًا بالأحداث المتلاحقة التي مرت بي فتعجب من بقائي داخل الجماعة حتى الآن وقال بمودة: إن ما مر بك يا صديقي أشد وطأة مما يمر بي ولو كان الإخوان يفهمون لتمسكوا بك ولعضوا عليك بالنواجذ حتى لا تتفلت منهم وقد صدق مختار نوح حين قال عنك ذات يوم: إنك تسبق زمنك بخمسين عامًا وإنك بخمسين أخ ولكن الإخوان للأسف الشديد لم يكن من ديدنهم الحفاظ على الأخ اللهم إلا إذا كان أخًا باهتًا عديم الأثر لا يعرف إلا السمع والطاعة مستسلمًا كالميت تحت يد مغسله يقلبه كيف يشاء.. أنهيت مكالمتي معه وأنا أدعوه للحضور معي في جلسات محكمة القضاء الإداري التي أطالب فيها بالإفراج عن إخوان السجن وقلت له قبل أن أغلق الهاتف: عما قريب ستجدني خارج الجماعة إن شاء الله فقد حانت لحظة خروجي من الإخوان ولن أسمح لنفسي بالتردد مرة أخرى.

ويبدو أن مكالمتي مع «أبو الفتوح» فتحت لي باب الحديث مع أصدقائي فما إن أغلقت الهاتف مع أحمد حتى اتصلت بعاطف عواد وطلبت منه أن يمر عليّ في مكتبي بعد العصر لأمر مهم.

وفي الموعد المحدد جلست في غرفة مكتبي مع عاطف واستعرضت معه الأحداث الفائتة كلها بالترتيب وأخبرته بنبأ الموعد المضروب لي مع المستشار مأمون الهضيبي بعد صلاة العشاء.

قال عاطف وهو يتنهد: يا صبرك يا أخي.. أظن أن الصبر مل من صبرك.



ضحكت قائلًا: ليست المسألة متعلقة بالصبر ولكنني أردت أن أقيم الحجة عليهم.. على الجماعة بأسرها أمام الله سبحانه وتعالى.

قال بمنطقه المعهود فيه: أظن أنه لو تم تخييرك بين الصواب والبقاء في الإخوان فيجب أن تختار الصواب.

بادرته بحميمية: يا سلام على الحكمة يا عم عاطف.. ولكن هل يطاوعني قلبي على أن أترك جماعة أحببتها.. أتركها والفساد يعشش في رأسها ويضرب بجذوره في أطنابها.. لك أن تعرف أن العديد من الإخوان النبهاء من أصحاب العقول النيرة والقلوب المضيئة يجاهدون داخل الجماعة حتى لا تصبح خاوية على عروشها بلا مصلحين... فلماذا أتركهم وحدهم؟ أكون حينئذ قد تخليت عنهم.

قال وقد نفد صبره: يا سيدي.. الإصلاحيون لا يستطيعون التنفس داخل جماعة «كتم النفس» هذه.. عبدالمنعم أبو الفتوح يظن أنه يستطيع الإصلاح ويحاول أن يجمع معه جيل الوسطيين مثل إبراهيم الزعفراني وآخرين ولكنهم جميعهم يعيشون على وهم لن يتحقق.. إن الفريق الذي سرق الجماعة يقوم بدوره بنجاح ملحوظ وهم يسحبون حاليًّا كل الملفات التي كان أبو الفتوح مسئولًا عنها، أصبح عبدالمنعم الآن يجلس في الجماعة بلا عمل.. وأظن أنه سيستيقظ ذات يوم من حلم الإصلاح هذا على قطار الإخوان وقد ابتعد عنه وتركه وحيدًا بلا جماعة.

تأملت قوله وانتابتني لحظة صمت وسرعان ما قطعتها قائلًا: أصدقك

القـول.. لقد كنت أشـعر منذ آمـاد طويلة أن هذه الجماعة سـجن وقيود وأنا السجين الذي لا يستطيع أن يحبو إلى حريته.. ثقيلة هي قيودي... ندت عني ابتسامة ساخرة وأنا أقول: أخشى أن أكون قد أدمنت السجن والسجان.

أومأ عاطف وكأنه يؤكد إدمان السـجن: يبدو أنك نسـيت ذلك النشـيد الذي كنا ننشده في المسرحية الإخوانية التي قمنا ببطولتها في أوائل التسعينيات على مسرح نقابة المهندسين.

قلـت بصوت أقـرب إلى الهمـس وكأنني أنشـد: سـجنٌ في شرق بلادي سجنٌ في غرب بلادي سجنٌ هي كل بلادي سجنٌ سجانٌ وسجووون.

قال عاطف بمنطقه: لاشك عندي أنك تحفظ النشيد بل وتحفظ المسرحية كلهـا فليـس هناك من يضاهيك في ذاكرتك ولكنني أردت أن أسـتدعي هذا المعنى.. معنى السـجون.. نحن نعيش في سـجن كبير.. والإخوان قطعة من هـذا السـجن ولكـن خطورتها تكمـن في أن جـدران السـجن وقضبانه هي لافتات الفضيلة والشريعة التي ترفعها الجماعة كي تستعبد المساجين وتستنفر طاقاتهم من أجل السجن لا من أجل الإسلام.

وكأن عباراتـه أيقظـت وعيـي الـذي كان مخـدرًا ومتبلـدًا فقلـت وأنـا أسـتجلب أمرًا من أعـماق ذاكرتي: هل تتذكر فيلم وداعًا شـاو شـانك ذلك الفيلم الأمريكي الذي شاهدناه معًا منذ سنوات؟

أومأ عاطف: أتذكره ولا أنسـاه.. كان عن سجن شهير اسمه شاو شانك لا يدخل فيه إلا من صدر ضده الحكم بحبسـه أكثر من خمسين عامًا أو مدى

الحياة وقد قام ببطولته تيم روبنز ومورجان فريمان وأظن أنه حصل على الأوسكار وبدأت منه شهرة مورجان فريمان.

أكملت قائلًا: كانت قواعد هذا السجن تقتضي خروج السجين الذي أمضى خمسين عامًا إذا كان سجله خاليًا من المخالفات وكان حسن السير والسلوك، وكانت لائحة السجن توجب أن يتم إلحاق السجين المفرج عنه بعمل في المدينة التي يقع فيها السجن فضلًا عن تسكينه في أحد الفنادق.. هل تذكر يا عاطف ذلك السجين الذي خرج بعد خمسين عامًا.. دخل السجن شابًا يافعًا وخرج وهو يحبو نحو الثمانين.

قاطعني عاطف بقوله: لم يقو هذا السجين على الحرية فقد تعود على السجن بل أدمنه.. لم يعرف غيره وليس له أصدقاء إلا في داخله.. أهله هم السجناء وحياته هي السجن.. لم يسبق له أن رأى المدينة منذ أكثر من خمسين عامًا.. عندما خرج إلى الطريق كاد عقله أن يُجن، وكادت السيارات أن تدهمه.

أخذت منه طرف الحديث وقلت وكأنني أحدث نفسي: لم يتحمل الحرية فانتحر بعد أسبوع من خروجه من السجن.

بادرني وهو يضحك: وفي ذات الفيلم رأيناهم وهم يحملون سجينًا آخر حان وقت الإفراج عنه فإذا به يبكي بحرقة وهو يحاول التملص منهم.

قاطعته قائلًا: أما تيم روبنز فقد استخدم كل الحيل لكي يهرب، لم يقبل زنزنته.. ولم يرض عن قيوده.. لم يقبل التعذيب الذي تعرض له من بعض

المساجين الذين لا يتحركون إلا بأمر من مدير السجن، لم يتحمل المهانة التي أصابته من المحاكمات الداخلية الجائرة والسجن الانفرادي، فهرب.. ظل يخطط للهرب مدة عشرين عامًا حتى استطاع الخلاص من سجنه ونيل حريته.

عاد عاطف إلى الحديث وهو يستكمل الأحداث معي: أما مورجان فريمان فلم يجاهد للحصول على حريته كما جاهد تيم روبنز ولكنه ساعد روبنز على الهرب.. انتظر مورجان إلى أن مرت عليه خمسون سنة.. كان مورجان قد قضى أكثر من نصفها بالفعل قبل دخول روبنز إلى السجن ولما كان روبنز قد قضى في شاوشانك عشرين سنة قبل هروبه.. لذلك لم يمر خمس سنوات إلا وقد خرج مورجان حرًّا طليقًا.

أنهيت القصة قائلًا: مورجان كان يتوق إلى الحرية ولكنه لم يسع إليها.. انتظر إلى أن أتت له.. وحين خرج ذهب إلى تيم روبنز في مكان ما كانا قد اتفقا عليه... هناك بعيدًا على شاطئ بحر شديد الاتساع كان اللقاء بين من سعى نحو الحرية ومن انتظرها.. ويبدو أن شاطئ البحر هذا كان يرمز باتساعه إلى الحرية.

سألني عاطف وقد غير وجهة الحديث: هل ستذهب للمستشار مأمون؟

أومأت بالإيجاب وأنا أقول: نعم سأذهب لأقول له وداعًا شاوشانك.. وداعًا للإخوان.

ولأن صوتي كان يبدو فيه التردد وعدم الحسم ارتفعت ضحكة عاطف



إلى سقف الحجرة وهو يقول: والله أنا خائف منك.. إذ من الممكن أن تقول له بالأحضان يا شاوشانك.

■■■

رغم كل ما مر بي إلا أنني لم أكن قد حسمت أمري بشكل نهائي.. كان التردد لا يزال ينصب شباكه أمامي، وكنت آمل أن أجد المستشار الهضيبي -رحمه الله- يحمل عقلية حكيمة وبصيرة نافذة تستوعب ولا تنفر، تستقطب ولا تبدد، تهدهد ولا تهدد.. ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن... لذلك كانت مشاعري ملتاعة حين خرجت من معية الرجل.. ولكن كيف كان لقائي به؟ هل تعرف كيف يكون هو شعور الإنسان عندما يصاب بخيبة أمل؟ البعض يشعر أن قدرًا من الماء قد تم صبه عليه، والبعض الآخر تذهله خيبة الأمل عن التفكير وقد تصيبه بحالة من الوجوم أو لربما قد يظن أنه مستغرق في حلم، أما أنا فقد أصابتني خيبة الأمل عند لقائي بالمستشار الهضيبي بفرحة غامرة وسعادة بالغة مشوبة بحزن شفيف وهو شعور شديد الندرة فقد أيقنت أن ما مر بي من أحداث وكانت خاتمته هذا اللقاء سيكون عظيم الأثر في قراري الحائر.

كان من المفترض وفقًا لما وقر في يقيني أن لقائي بالمستشار مأمون الهضيبي سيكون ثريًا له قيمته.. فالرجل يحمل فوق كتفيه تاريخًا ويختزن في مكنون ذاته كمًّا متنوعًا من المعارف القانونية والخبرات السياسية والتنظيمية.. إلا أنني تذكرت عند لقائي الأخير معه ذلك المثل العربي الذي يقول: «ليس كل ما

يتمناه المرء يدركه».. ويبدو أن معارف الإنسـان وخبراته قد تكون عبئًا عليه أو يكـون هـو عبئًا عليها إن لم تكن له بصيرة وسـعة أفـق، كذلك الجواهري الذي وهبه الله ذهبًا وجواهر نفيسة فقذفها في اليم إلى غير رجعة!.

كان العديـد مـن اللقـاءات الإخوانيـة التنظيميـة قـد جمعتني بالمستشـار الهضيبي سـابقًا إلا أنه في الغالب الأعم كان قليل الكلام يميل إلى الاسـتماع ولا يعقب إلا بكلمات قليلات... وكانت معظم الحوارات التي جمعتنا تدور في مجملهـا حـول شـئون تنظيمية وحركيـة لا علاقة لها بالفكر كـما لم تكن لها علاقة بالإنسانيات والمشاعر، لذلك لم تتح لي الفرصة كي أختبر -عن كثب- بصيرة هذا الرجل و قلبه، إلا أنه وقد تلاحظ لي من خلال خبرتي في التعامل معه كما تلاحظ لآخرين أنه يتسم بضيق الصدر وسرعة نفاد الصبر.

كان المستشـار هو الذي فتح لي باب فيلته وأدهشني أنه نظر لي بدهشة إلا أنه دعاني للدخول بكلمة مقتضبة وبعد أن جلسـت في أحد مقاعد الصالون قال بصوته الحاد الرفيع وهو لا يزال واقفًا: ما الذي جاء بك هنا؟

تعجبت من السـؤال وارتبكت المعلومات في رأسي إلا أنني قلت بهدوء: هناك موعد بيننا اليوم على ما أظن.. هكذا قال لي عبدالمنعم أبو الفتوح.

اسـتمر في حدته ثم جلس على مقعد مواجه لي وهو يقول: لا علاقة لي بما تظـن.. كان موعدنـا أن تأتي لي في مكتبي في «الشـغل» بعـد صلاة ظهر اليوم وقد انتظرتك ولم تـأت.

ظهرت على قسمات وجهي مخائل الدهشة حتى إنني كدت أهز رأسي لأعيد

عقلي إلى مكانه المعهود، ثم قلت متباطئًا بعد أن أدركت أخيرًا معنى عبارة «فغر فاه» التي يكتبها الأدباء إذا أصيب أحدهم بالدهشة: شغل.. أي شغل..؟!!

كنت أعرف أن المستشار مأمون «على المعاش» لا يعمل في أي جهة وأنه متفرغ للإخوان لذلك أصابتني كلمة «شغل» التي قالها بالدهشة للدرجة التي ظننت بسببها أنني دخلت بيتا آخر على سبيل الخطأ.

قال المستشار وهو ينظر لي كأنه ينظر إلى رجل عيي بطيء الفهم: «الشغل» ألا تعرف «الشغل»!! ألا تعرف مكتبي في المنيل في مقر الجماعة؟ ألا تعرف أن «شغلتي» هي نائب المرشد؟!

تجاهلت السؤال الذي أظهر لي الرجل في صورة لم أكن أتمناها له ثم قلت له بعد أن قمت واقفًا متأهبًا للانصراف: أعتذر عن اقتحامي وقتك ولكن يبدو أن عبدالمنعم اختلط عليه الزمان والمكان فقد أخبرني هذا الصباح أنك تنتظرني في بيتك بعد صلاة العشاء وقد وفيت بموعدي وإن شاء الله سآتي إليك في وقت آخر في «الشغل».

أشار لي بيده يأمرني بالجلوس وهو يقول: اقعد.. اقعد.. هل تظن أن «دخول الحمام كالخروج منه».

جلست وأنا أقول في نفسي بعد أن غالبت ابتسامة طفت على سطح وجهي «طالما أن الرجل يعتبر بيته حمامًا فكان من المفروض أن أدخل بقدمي اليسرى وأقول وأنا داخل اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث»... وبعد أن تفرست وجه المستشار أدركت أن الرجل يتبع معي سياسة «كسر الأنف»

وسياسـة «الإرباك» وهي سياسة يعرفها الملاكمون وقد مارس الرجل الملاكمة وهو في طور الشباب ويبرع فيها أساطين فنون المفاوضة.. ويبتغي من يتبع هذه السياسـة كسر عناد من يحـاوره وإصابته بالحيرة والارتبـاك حتى يكون منهزمًا نفسـيًّا قبـل أن يبدأ المفاوضة.. فقطعًا كان عبدالمنعم أبـو الفتوح واعيًا للموعد مـن حيث المكان والزمان ولكن الهضيبي رحمه الله أراد بدهائه وأد أي معارضة قـد تبدر منـي، فالمفروض أنني -بهـذه الصورة- قد اقتحمـت بيته دون موعد ولذلك يجب أن أجلس وأنا في حالة خجل لا تسمح لي بمناقشة أو معارضة.

ارتفع صوت المستشار مناديًا: يا هشام هات لنا زجاجتين من مشروب الكولا.

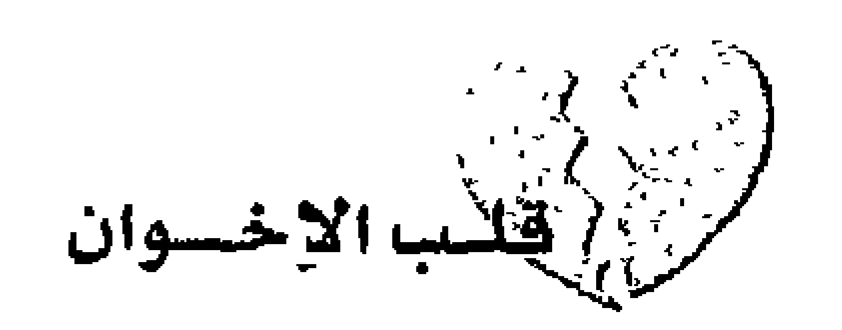
قاطعته مسرعًا: لا داعي..

ـــ لمـاذا لا داعي.. نحن عـرب.. والكرم واجـب.. قالها ثم أعـاد النداء عـلى ابنه هشـام مـرة أخـرى إلا أننـي قلـت بتـؤدة: صدقت.. نحـن عرب لذلك لا داعي لـمشروب الكولا فكما تعلم هناك مقاطعة للبضائع الأمريكية والإسرائيلية والكولا من مشروبات المقاطعة.

ــ آه.. هل أنت منهم.. هه أأنت من أنصار المقاطعة؟ قالها بلهجة تنم عن التهكم فبادرته بنفس لهجته: نعم أنا منهم ولكن يبدو أنك لست منهم.

تجاهل المستشـار الهضيبي تعقيبي وأعاد النداء على ابنه هشام: هات شاي يا بني وحاذر ألا يكون من أنواع المقاطعة.. فالأستاذ مقاطع.

ودون تمهيـد بـادرني بلهجة يشـوبها الاسـتعلاء وكأنه رئيـس مجلس إدارة شركـة يخاطب أحد الموظفين عنـده: أنت أخطأت في حـق الجماعة يا ثروت..



ويبدو أنك لم تعرف ما قاله حسن البنا.. قال نحن جماعة انتظمنا في صف واحد فإذا خرج منا واحد لن يقول الناس خرج واحد ولكن سيقولون صف أعوج..وقوفك مع سامح عاشور كان خطأ.. ومحاولاتك المستمرة التي تسعى من خلالها إلى دعم سامح ونقض تحالفات من اتفق معنا خطأ.... سامح ليس رجل الحكومة ونحن نسعى للتحالف مع من يستطيع أن يقربنا من دوائر صنع القرار ورجائي هو رجل الحكومة وهو من سيقوم بهذا الدور ولكنك أفسدت علينا خطتنا.. هذه خطة كاملة للجماعة لا شأن لها بمن تم حبسه أو بمن سيتم حبسهم في المستقبل.. نحن تحالفنا في الأطباء مع حمدي السيد ومع حسب الله الكفراوي في المهندسين لهذا السبب.. وأي شخص قريب من دوائر السلطة العليا سنتحالف معه ولن نقبل أن يخرج أي واحد منا على هذا القانون.. هذا هو دستور الجماعة.. دستور الجماعة.. وأنت رجل قانون.

انتظرت إلى أن استكمل كلامه ثم قلت: قانون التحالف مع من يكون قريبًا من السلطة أظن أنه من الممكن أن يكون وسيلة مرحلية وليس دستورًا دائمًا.

ظهر الضيق على وجهه ثم قال بنفاد صبر: لا تجادلني.. أنت رجل قانون.. لماذا وضعت الدولة قانونًا للمرور.. طبعًا حتى لا تتصادم السيارات.. ماذا لو خالفت سيارة قانون الدولة وقطعت الإشارة الحمراء.. قطعًا ستقع حوادث وستصطدم السيارات بالمارة.. ماذا لو أقام أحدهم بناية دون ترخيص من الحي وفقًا للقانون... سيصبح الحال فوضى... هناك قانون للعقوبات.. من يخالفه يكون قد ارتكب جريمة أليس كذلك؟

تنفست الصعداء وأنا أقول: لا ليس كذلك.

ـ ماذا تقصد؟ قالها مقاطعًا وهو يبدي استغرابه.

أكملت كلامي وأنا أتناول كتابًا كان على المنضدة وكأنه لم يقاطعني: هناك مواد في القانون يتم محاكمة الإخوان بموجبها مثل المادة 86 من المدونة العقابية.. وبالمناسبة الإخوان يخالفون هذه المادة ويرتكبون بمخالفتهم هذه جريمة إنشاء تنظيم دون أن يكون لهذا التنظيم رخصة من الجهات الرسمية.. فإذا كان قانون الجماعة في رأيك يجب أن يتم احترامه كما نحترم قانون المرور وقانون العقوبات فحينئذ يجب أن نعلن عن حل الجماعة لأنها تخالف قوانين الدولة لأنها نشأت دون رخصة كالبنايات التي تنشأ من غير رخصة، وإلا لأدت هذه المخالفة إلى اصطدام السيارات ووقوع الحوادث وإشاعة حالة فوضى.. أليس كذلك؟

هب الرجل واقفًا وهو يقول بعصبية وحدة: المقابلة انتهت.

تجمع في ذهني في تلك اللحظة كل العمر الذي قضيته في الجماعة وكل ما مر بي من أحداث... مر شريط الذكريات وكأنه دهر ولكنه مر في جزء من الثانية... رأيت أمام عين خيالي تلك المشاهد الرائعة التي شاركت فيها أو اقتربت منها أو تفاعلت معها... رأيت أشخاصًا ربانيين وهبوا أنفسهم للدعوة.. رأيت أفذاذًا في الفقه والفهم وسعة الأفق.. رأيت عقولًا موسوعية وقلوبًا نورانية.. والآن واحسرتاه أرى جماعة بلا قلب.. هذا هو قلب الإخوان!!.. في مكانه فراغ!! فقد تبخر القلب وتناثر خلف من ماتوا ومع من خرجوا.. اندثر القلب وضاع مِن يد مَن قَلَب الإخوان إلى ناحية أخرى...

الآن آن لي أن أختار.. آن لي أن أحسم أمري.. أحببت جماعة الإخوان ووهبتها قلبي ومشاعري وعقلي.. فضلتها على نفسي وبيتي وأولادي.. لم أكن أحبها لذاتها كذلك المحب الوله العاشق الذي يتدله حبًا في محبوبته لذاتها.. ولكنني أحببتها لما ترمي إليه.. لأنها دعوة وحكمة ووسطية وفهم واعتدال.. والآن تبدل الحال فلِمَ أبقى؟ لم أظل أسيرًا في حبائل تلك الجماعة التي فقدت قلبها.. لِمَ أرضى بالأسر والحبس في أسوار عالية تمنع الرؤية وتحجب الرؤيا.. فلا خيال ولا إبداع؟ أأظل رهينة في محبسهم مكبلًا بأغلالهم وأنا من تاقت نفسه إلى سماء بلا قيود وأرض بلا حدود كطائر الباتروس الذي يقضي حياته محلقًا فوق مياه البحار والمحيطات.. طر أيها الطائر.. غادرهم.. اذهب إلى سمائك.. واحذر من أولئك الذين سيقولون لك: إنك ستطير في سماء ملبدة وتسير في أرض مظلمة.. فالنور في قلبي وبين جوانحي فعلامَ أخشى السير في الظلماء؟ علام أخشى الطيران في العتماء.. كن كالنسر فوق القمة الشماء ولا تكن كدودة الأرض في جحر كئيب وجُب سحيق.. لك نظر ولك بصيرة، فأين انتفاعك بنظرك ونظرتك؟ لله در المتنبي حين قال:

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظلم

قم الآن وأمعن النظر ويجب إذا نظرت أن تحسن الخروج كما أحسنت الدخول.

قمت متثاقلًا ثم قلت بهدوء وأنا أنظر إلى الناحية الأخرى: المقابلة انتهت قبل أن تبدأ.. الآن آن لي أن أختار الصواب.. أنا الآن لست معكم في الإخوان.. أنا في طريق وأنتم في طريق.. ثم رفعت صوتي مناديًا: يا هشام هات كوبًا واحدًا من الشاي ويا ليته يكون شايًا أمريكيًا فالوالد ليس من أنصار المقاطعة هههه.

مـا كادت قدمـي تطـأ الطريـق حتـى خلت نفـسي طائـرًا يـكاد يحلق في الأجواء.. كنت خفيفًا في حركتي وكأن أجنحة السعادة تحملني، وكان قلبي منتشيًا يتنسـم رحيقًا كاد أن ينسـاه.. رحيقًا يجهله الجاهلون ويبذل عارفوه أعمارهم من أجله.. رحيق الحرية.

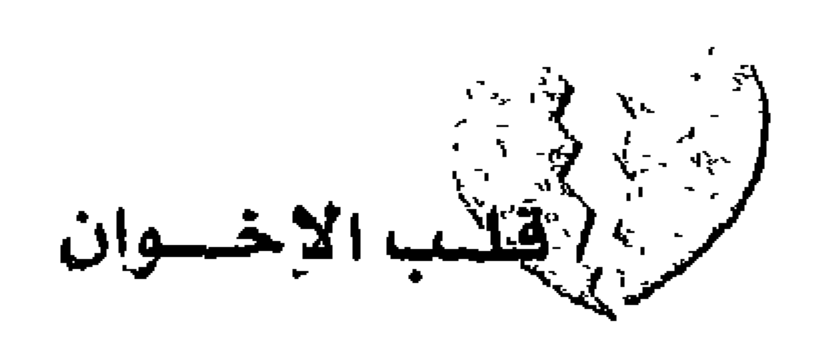
ولأن درس الحرية يجب أن يكتمل فقد أعطاني الله بعد مقابلتي للمستشار الهضيبي بشهر.. وبعد تجربة الخروج من تبعية العباد والتنظيمات منحة ربانية بـدت للجاهلين وكأنهـا محنة ولكنها كانت الجائزة الكـبرى.. جائزة الخروج من تبعية العباد إلى تبعية خالصة لرب العباد.

■■■

مـــا أروع السـجـــود لله

كان ذلـك بعد شـهر واحد من خروجـي من الإخوان، اتصـل بي هاتفيًا ممدوح الحسيني وطلبني لأمر مهم.. قلت له: لست معكم الآن.. أتمنى لكم التوفيق ولكنني لسـت معكـم.. فقال: وهو يلح عليّ بالذهـاب إليه: أريدك لأمـر خاص.. وعندما ذهبت إليه أخبرني أن المرشـد أصدر قرارًا بفصلي من الإخوان!!.. أبديت دهشتي وقلت ممتعضًا: ألم يخبركم المستشار مأمون أنني قابلته وأن المقابلة انتهت بتركي الجماعة!!.

تركتـه وانصرفـت وأنـا أتعجب مـن أحوال النفـس البشريـة.. وأحوال الجماعـات التـي صيغـت بعقلية اسـتبدادية.. الجماعـة التي تزعـم أنها جماعة راشـدة تأبى -كما في الأنظمة الشمولية- أن يستقيل أحد.. وتصمم أن تقيل هي الأخ الذي اختلف معها.. سبحان الله.

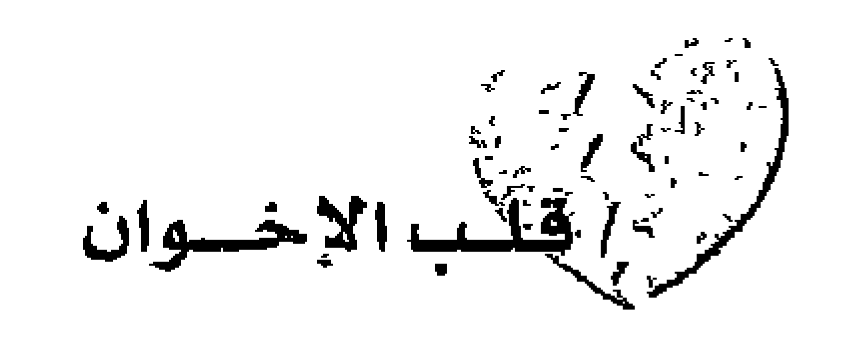


بعد يومين تقريبًا من هذه المقابلة منحني الله تجربة فريدة.. تجربة ما فتئ القلب يستعيد ذكراها وما برح الجسد يتجرع ألمها كلما ألمَّ به ريحها...وسبحان الله الذي يغيّر ولا يتغير..

مابين طرفة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال

كنت أخطو خطواتي رافع الرأس واثقًا مترفعًا داخل إحدى المحاكم حيث كنت أمارس مهنتي، وكان بجواري شاب نابه من شباب المحامين من أصدقائي الأعزاء اسمه محمود النادي، وكنت ساعتها أشدد به أزري في إحدى القضايا، وعلى حين فجأة لم أشعر بقدمي!! وكأنها زالت من مكانها، ثم إذا بي أسمع صوت فرقعة طفيفة صادرة من ركبتي اليمنى ومن بعد ذلك اعتراني ألم رهيب لم تكن له سابقة في حياتي، فكان أن فقدت الوعي من وطأة الألم، وعندما استعدت وعيي وجدت صديقي وهو يبذل ما وسعه الجهد في إفاقتي، ثم قام بحملي هو ومجموعة من الزملاء إلى المستشفى حيث مكثت ساعة أو بعض ساعة داخل أسطوانة أشعة الرنين المغناطيسي التي أشعرتني وكأنني أدخل إلى قبر مظلم خاصة بعد أن عصبوا عيني وصمُّوا أذني ذلك القبر الذي سيكون حتمًا نهاية ذلك الإنسان الذي تشغله الدنيا بزينتها عن حقيقة هي أبعد ما تكون عن خاطره رغم أنها أقرب إليه من حبل الوريد، وبعد أن أجريت الأشعة أبدى الطبيب عجبه مما حدث وقال لي (لديك قطع عجيب في عضلة اسمها العضلة الرباعية وموضع هذه العضلة فوق الركبة مباشرة وهي من أقوى أو أقوى على حد ذاكرتي عضلة في جسم الإنسان ومن المستحيل أن تتعرض لقطع دون سبب!! أنا لم أر مثل هذا من قبل،

فهـذه لا يمكن قطعها إلا في حـادث مريع!!) وفي غرفة العمليات استشـعر فـؤادي المـوت واختلطت معانيه بحشاشـات قلبي فبعد ثانيـة أو أقل يدخل الواحـد في نـوم التخدير الذي قد لا يقـوم منه أبدًا، وقد يذهـب منه إلى عالم البرزخ، عندها تذكرت قولك يا الله يا حي يا قيوم: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة: 28). وانتهت السـاعات الثلاث في غرفـة العمليات وعدت من جديد إلى دنيا الناس وقد أحاط الجبس ذلك الموضع الذي يقع من أخمص القدم إلى أعـلى الركبة، وظللت حبيس هذا الجبس عدة أشـهر حيـث رافقتني عصاي أتـوكأ عليهـا، وظلت عصاي معي لا أجد لي مندوحة في غيرها حتى أذن الله لي بشـفاء من عنـده، كانت هذه التجربة من أعظـم التجارب التي مرت على حيـاتي وقد أطلقت عليهـا (تجربة الافتقاد) ولم يكن الافتقـاد هنا افتقاد وفاء لأصدقـاء وإخوة عرفتهـم في الله وامتزجت معهم عندما كنّا معًا في الإخوان ثـم لم أرهـم في محنـة المرض وقد كنت لهـم أو لبعضهم وجـاءً عندما أدار لهم الزمان ظهر المجن، فما أكثر من طرحني من ذاكرة قلبه ولم يعدني وقتئذ ولكن الذيـن حملـوني في قلوبهـم واحتملوني في مـرضي أكثر، ولم يكـن الافتقاد هنا افتقاد دنيا ستفنى بزخرفها إن آجلًا أو عاجلًا، فلم يهب الله لي من زينة الدنيا ورزقهـا كـما وهب لي في هذه الأيام وكأن الله سـبحانه وتعالى يضع آية نصب عينـي مفادهـا أن الرزق يأتي إلى العبد لا محالة سـواء كان في صحة أو مرض في قـوة أو في ضعف، ولكن الافتقاد الذي أعنيه هو افتقاد السـجود لله حينما عجزت عن وضع جبهتي على الأرض أثناء الصلاة، إذ مكثت عدة أشهر لا



أصلي إلا قاعدًا، افتقدت حينها تعفير وجهي في الأرض لله رب العالمين في موضع لا يكون إلا لله حيث تكون العزة للعبد حين يُذل لله العلي القدير، ما أروع تلك السجدة التي افتقدتها في تلك الأيام الكالحة ،،، وحينما حانت تلك اللحظة النورانية التي منّ الله عليّ فيها بالسجود ووضعت جبهتي على الأرض ارتجف جسدي رجفة لم تحدث لي من قبل وارتعشت أناملي وهي تحاذي رأسي على الأرض وانهمرت دموعي تترى بلا حول مني ولا إرادة وقد احتوتني لذة روحية لم تصادفها روحي قبلها قط ونطق قلبي قبل أن ينطق لساني قول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (الحج: 18).

بعد أن سجدت لله الواحد الأحد وارتعش قلبي رعشة المحب الوله الذي احترق شوقًا للسجود لله أدركت روحي قيمة العبودية لله.. لله وحده.. وقيمة الذل والتذلل لله.. لله وحده.. واستبصر فؤادي قيمة الحرية حين سجدت لله.. نطق لساني وقتها رغمًا عني وكأن قلبي أنطقه: الآن آن لي أنا أن أسجد لرب العالمين لأنال حريتي الكاملة وأتذلل لرب العزة حتى أنال عزتي... ومع السجود جاءت الفطنة.. فطنة الإيمان، وحين سكت اللسان نطقت خلجاتي: حين كنت في الإخوان كنت فيها لتقربني إلى الله زلفى، والآن وأنا أضع جبهتي في التراب.. أسجد لله وحده.. سجد وجهي للذي فطرني، وقبله سجد قلبي لرب العالمين بلا وسيط ولا وساطة.. هأنذا أخرج حقا وصدقًا من تبعية العباد إلى تبعية رب العباد.. آآه ما أروع السجود لله.

خاتمة الكتاب

لكل شيء نهاية.. الإنسان له نهاية..

فكل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوما على آلة حدباء محمول

والدنيا بزخرفها لها نهاية، فزينة الدنيا وإن طالت إقامتها يومًا إلى زوال، نفسه سيزول.. لذلك يجب أن يكون لهذا الكتاب نهاية..

فكل ابن حرف وإن طالت كتابته يومًا على آلة الطبّاع منقول

وخاتمتنا هنا هي نهاية الكتاب وليست خاتمة الأحداث.

قاطعني الإخوان كلهم إلا من رحم ربي.. وامتنع الكثيرون منهم عن إلقاء السلام عليّ إذا تصادف وقابلني.. وحين أصابتني محنة أو منحة المرض لم يزرني من الإخوان إلا حسن عبد الحليم إلا أنني لم أره بعد ذلك وجمال تاج الدين، أما الإخوان الذين كانوا في السجن فلم يرسل لي منهم رسالة اطمئنان إلا مختار نوح وخالد بدوي.

نأتي إلى الشخصيات التي ساهمت في أحداث هذا الكتاب.. ما الذي حدث لها وأين هي الآن؟ لن نتحدث بطبيعة الحال عن كل الشخصيات، بل عن الشخصيات التي رأيت أنها ساهمت في دفع عجلة الأحداث.

أما عن نفسي فقد مارست حياتي منطلقًا من كل قيد.. أحمل للإخوان عرفانًا لا أنكره إلا أن هذا العرفان لم يحل بيني وبين نقد حركتهم.. فكتبت العديد من المقالات طرحت فيها أفكارًا أظن أنها أثارت قدرًا من الحوار داخل الجماعة وخارجها.. ثار الإخوان على كتاباتي وانتقاداتي إلا أنني لم أحفل بثورتهم وسوء ظنهم فحتى وإن جهلوا مقصدي فإن الله مطلع على السرائر.. والحق يظهر وإن غاب ردحًا من الزمن... رفضت الجماعة انتقاداتي المبصرة حينًا من الدهر ثم اعترفت بها ضمنيًّا على ألسنة بعض الكبار فيها حين ظهرت الخلافات بين الفريقين فريق «القطبيين» وفريق «الحساسنة» نسبة إلى حسن البنا... وبعد خروجي من الإخوان كان انخراطي في حزب الوسط تحت التأسيس وجمعية مصر للثقافة حيثِ أصبحت مؤسسًا في هذا وهذه.

وماذا إذن عن الآخرين؟ نبدأ بمختار نوح الذي خرج من محبسه وعانى من الإخوان الذين استخدموا معه كل طرق الإبعاد والتجميد والإقصاء.. ورغم أن اللائحة تعطي له الحق أن يعود لرئاسة قسم المحامين بحسب أنه منتخب من محامي الإخوان لهذا الموقع إلا أن المستشار الهضيبي رحمه الله رفض إعادته لموقعه كما رفض أيضًا الأستاذ مهدي عاكف نفس الأمر!!.. وإزاء هذا الصلف والتعنت وجد مختار أنه ما باليد حيلة فماذا يفعل وقد حيل بينه وبين تحقيق العدالة في جماعة ترفع في شعارها المصحف الذي فيه (اعدلوا هو أقرب للتقوى) وفيه (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) فما كان منه إلا أن أعلن تجميد عضويته في الإخوان وهو تعبير مهذب يعبر فيه عن خروجه من صف الجماعة إلى رحابة العمل الدعوي غير المنظم.. وبعد ثلاثة

أعـوام من خروج مختار من محبسـه رأى أن يرشـح نفسـه نقيبًـا للمحامين في انتخابـات نقابة المحامين الفرعية بالقاهرة ومن عجب أن الإخوان رشـحوا أمامـه منافسًـا من حزب الوفد زعمـوا زورًا أنه هو المؤسـس الحقيقي للجنة الشريعة الإسلامية وكان من قدر الله ألا تكتمل الجمعية العمومية وبالتالي لم تتم الانتخابات، ثم رشـح مختار نفسـه عام 2009 نقيبًا للمحامين كمنافس لسـامح عاشـور إلا أن الحكومـة قامت باسـتبعاده مـن الترشـيح بحجة أنه صدر ضده حكم جنائي من المحكمة العسـكرية يمنعه من الترشيح ويسلب منـه حقوقه السياسـية.. وبعد أن حصل مختار على حكـم قضائي بإلغاء قرار الاسـتبعاد قبـل الانتخابـات بأيام رأى أن ينسـحب لأن فرصتـه في الدعاية لنفسـه كانت قد تبخرت أثناء سـعيه لإلغاء قرار الاستبعاد، ووقف نوح مع حمدي خليفة مؤيدًا له ليسقط سامح عاشور.

نأتي إلى خالد بدوي الذي أصيب وهو في محبسه بانزلاق في إحدى فقرات العمود الفقري وظل يعاني من مرضه وكأن المرض والسجن اجتمعا عليه في آن واحد فكان رهين المحبسـين، وبعد أن خرج من السـجن عاد إلى نشـاطه الدعـوي كخطيـب مفوه وداعية مرهف وهو الآن يـمارس المحاماة في مكتبه بمدينة نصر.. أدعو الله أن يوفقه وأن يغفر لنا وله.

هـل تذكرون أسـامة الغزاوي الـذي كان أول من فتـح عيني وعقلي على الخلافـات التنظيميـة والاختلافـات الفكريـة في الجماعـة.. كان أسـامة من إخـوان الزيتـون كما تعلمـون، الآن هو خارج الإخوان.. ليس وحده الذي تركهـا وانشـغل بحياتـه وأسرته ولكن أكثر مـن أربعين من إخـوان الزيتون

تركوا الجماعة في الفترة من عام 1999 إلى عام 2004 إلى غير رجعة.. كلهم ينتقد الجماعة في جلساتهم الخاصة ولكن صوت انتقاداتهم لا يصل إلى أحد فقد انكفئوا على ذاتهم وتركوا العمل العام بعد أن أيقنوا أن الجماعة التي داعبت مشاعرهم غدرت بهم، ولك أن تتخيل كم الإحباط الذي أصاب هؤلاء كان الله في عونهم.

(هو بين الرجال كالألماس بين الجواهر) لن يكون هذا الوصف إلا من نصيب الدكتور عبدالمنعم أبو الفتوح فهو رجل بمعنى الكلمة.. لم ألتق بعبدالمنعم بعد خروجي من الإخوان إلا مرات تعد على أصابع اليدين وكان يحتفي بي احتفاءً كبيرًا في كل مرة يراني فيها.. وعبدالمنعم هو من ذلك الصنف الذي يمارس قناعاته حتى ولو كانت على حساب طموحاته، لذلك فهو مضطهد من الحكومة وغير مرضي عنه من قيادات بعينها في الإخوان.. وفي غضون عام 2009 تم القبض على عبدالمنعم أبو الفتوح على ذمة قضية من قضايا الإخوان وظل محبوسًا معظم العام وبعد خروجه من محبسه أجريت انتخابات مكتب الإرشاد وأطيح به من عضوية المكتب، فلا تدري هل نال أبو الفتوح حريته حين خرج من السجن أم حين خرج من عضوية مكتب الإرشاد.

أما قلبي فهو مع أحمد ربيع الذي ظل عمره يسعى ما وسعه الجهد لكي يتحول الإخوان إلى جماعة راشدة.. وكان من أمره أن ظل زمنًا بعد هذه الأحداث واقفًا على إحدى ضفتي الجماعة بعيدًا عن قلبها الذي آن له أن يئن.. وبعد أن اعتراه اليأس ورأى جماعته تتنكر له وتعامله بصلف حتى إنها حاربته في انتخابات نقابة المحامين الفرعية بـ 6 أكتوبر والتي رشح نفسه نقيبًا

لها وارتكبت في تلك الحرب جرائم أخلاقية قد يتحدث عنها هو ذات يوم فكان أن خلع رداء التنظيم وأخذ يبحر بسفينته في بحر الدعوة... وحاليًا أوشك أحمد على مناقشة رسالة الدكتوراه في فرع من فروع القانون.. كما أنه على وشك الانتهاء من كتابه الأول الذي سيكون فريدًا في مبحثه ويدور حول أن اللغة العربية هي أصل اللغات الحية كلها وأن كل اللغات مشتقة منها.

عاطف عواد هو الآن أحد قيادات حزب الوسط تحت التأسيس وقد استطاع في خلال عدة أعوام أن يتوسد مكانة مرموقة في عالم الكتابة وقد نشرت له عدة صحف العديد من مقالاته كما أنه استطاع إقامة علاقات وثيقة مع عدد من المفكرين والكتاب من كافة الأطياف في مصر وفي لبنان وتركيا والإمارات وسوريا... وهو أحد الناشطين فيما يتعلق بالمؤتمرات السياسية والندوات الفكرية.

انقطع عني معظم الإخوان في منطقة مدينة نصر أولئك الذين كانت تربطني بهم صلات وثيقة حتى إنني أكاد لا أعرف شيئًا عن كل الذين كانوا معي في أسرتي الإخوانية اللهم إلا المشاهير منهم، فقد تم حبس حسن مالك في قضيته الشهيرة مع خيرت الشاطر كما تم حبس أحمد شوشة أيضًا في ذات القضية.. أدعو الله أن يخرج الاثنان وباقي سجناء الإخوان من سجونهم الكئيبة تلك السجون التي ضمت بين جدرانها الصلبة رجالًا تم سجنهم بسبب الخلاف السياسي حينًا وبسبب الغباء السياسي حينًا آخر، مما لا شك فيه أن حسن مالك وأحمد شوشة من الشخصيَّات التي تتميز بطيب الأصل وكرم المحتد ودماثة الخلق ولكن التواصل بيننا انقطع بعد تركي الجماعة.

غني عن البيان أن المستشار مأمون الهضيبي رحمه الله وغفر لنا وله توفي في باكورة عام 2004 وأصبح المرشد الذي يليه هو الأستاذ محمد مهدي عاكف أما الأستاذ عاكف فقد سأله أحد الإخوة في مدينة نصر لماذا سكت عندما تعرض ثروت الخرباوي لما تعرض له فقال لم أكن راضيًا ولكن لم يكن بيدي حيلة!!.

لابد أن نذكر محمد طوسون ولجنة الشريعة الإسلامية.. أما عن محمد طوسون فما زال إلى حين هذه الخاتمة مسئولًا عن قسم المحامين وقد تسلم مكانه هذا بالتعيين دون انتخاب بالمخالفة للائحة.. ولأنه قليل الإمكانيات فقد هبط بلجنة الشريعة الإسلامية في النقابة هبوطًا كبيرًا.. فتأخرت اللجنة ولم تقم بأداء دورها النقابي وتراجعت تراجعًا ملحوظًا ودخلت في خلافات طاحنة مع النقيب السابق سامح عاشور فضاعت النقابة في خضم هذه الخلافات وأدرك الإخوان على كل المستويات أن طوسون لم يكن من حيث الأداء على المستوى المطلوب فحاولوا البحث عن آخر يتولى هذا القسم ولكنهم لم يجدوا أحدًا يقوم بهذا الدور وما ذلك إلا بسبب الخلافات التي نشبت بين محامي لجنة الشريعة وبسبب كم الكفاءات التي تركت الإخوان من المحامين (تركها قبلي أو بعدي قيادات موهوبة فريدة مثل محمود أبو العينين من الإسماعيلية وعلاء موسى من الشرقية وعلي شعلان من المنوفية وأحمد الحمراوي من الإسكندرية ومحمد عبد الفتاح من القاهرة.. إلخ)، وانقسمت لجنة الشريعة إلى شيع وجماعات.. فهذه مجموعة طوسون وتلك مجموعة جمال تاج وأولئك يرغبون في عودة مختار نوح لرئاسة القسم.. وهكذا وسبحان من له الدوام.

جاء وقت الحديث عن آخر إذ لا بد أن نتحدث عن الأخ فلاح سرور الذي كان مسئولًا في وقت ما عن الشعبة الإخوانية التي كنت أنتمي إليها.. وللأخ فلاح سرور بعد تركي للجماعة قصة طريفة.. إذ كان هناك أخ من الإخوان اسمه عبد العزيز وكانت قد نشبت بينه وبين أحد الإخوة خلافات بشأن شركة تجارية جمعتهما، وكان الأخ الآخر قد استطاع الحصول على عدة ملايين من الجنيهات من جمعية دينية سورية الأصل اسمها (القبيسيات) وقد أخذ هذا الأخ هذه الملايين بزعم أنه سيعطيها للإخوان لتوصيلها إلى فلسطين وبالطبع لم يعطها لأحد واغترفها لنفسه، وبقدر الله علمت جمعية «القبيسيات» هذه من خلال مصادرهم في الإخوان أن هذا الأخ أخذ هذا المال لنفسه وأنه هرب خارج البلاد، ولم تجد القبيسيات أمامهن إلا عبد العزيز والشركة التي يديرها والتي كان الأخ اللص شريكاً له فيها فذهب من يمثلهم إلى عبد العزيز بغية الحصول على حقهم من خلال أصول الشركة فلجأ لي عبد العزيز كي أنقذه من هذه «الورطة» الكبيرة، وبدأت بالفعل متطوعًا دون مقابل في مساعدة عبد العزيز من الناحية القانونية، وبعد شهر من مقابلتي للمستشار الهضيبي رحمه الله هاتفني فلاح سرور حيث طلب مني أن أتوقف عن مساعدة عبد العزيز وأن أسلمه ملف القضية لأن هذه القضية تخص الجماعة وتخص التبرعات التي تتسلمها وأن المرشد أسند لجمال تاج متابعة هذه القضية.. فسلمت عبد العزيز ملفه وكان يبدي أسفه الشديد وشكره أن وقفت معه دون مقابل ودون أتعاب ولكن كما قال (حكم القوي على الضعيف).. ولم يحدث أن تقابلت مع فلاح سرور فيما بعد اللهم إلا مرة



واحدة وكانت بعد استقالتي من جماعة الإخوان بخمس سنوات وكان ذلك أمـام نيابة أمن الدولة أثناء التحقيق مع عدد من الإخوان المقبوض عليهم في إحدى القضايا واكتفينا وقتها بتبادل السـلام وتبادل أرقام الهواتف إلا أنه لم يتصل بي ولم أتصل به.

نأتي إلى ممدوح الحسـيني الذي كان مسـئولًا عن منطقة مدينة نصر وقت احتدام الأحداث والذي كان أحد القضاة الذين حاكموني.. غفر الله لنا وله ولهـم جميعًـا.. أدعـو الله أن يطلق سراح ممـدوح وأن يعـود إلى حريته فقد تم القبض عليه عام 2005 في قضية خيرت الشاطر وصدر ضده حكم بالحبس من محكمة عسكرية.

لا نستطيع أن نقترب من الخاتمة دون أن نتحدث عن الدكتور محمد حبيب والدكتور محمود عزت.. الدكتور محمد حبيب نائب المرشد حاليًا وقد يكون مرشدًا في المسـتقبل صرح لجريدة الأحرار بعد استقالتي من الجماعة بخمسة أعوام أنه لا يعرف شـيئًا عن قرار المرشـد لثروت بالخروج من بيته!! مع أنه كان أحد الذين أشاروا على المرشد بإصدار هذا القرار!!.

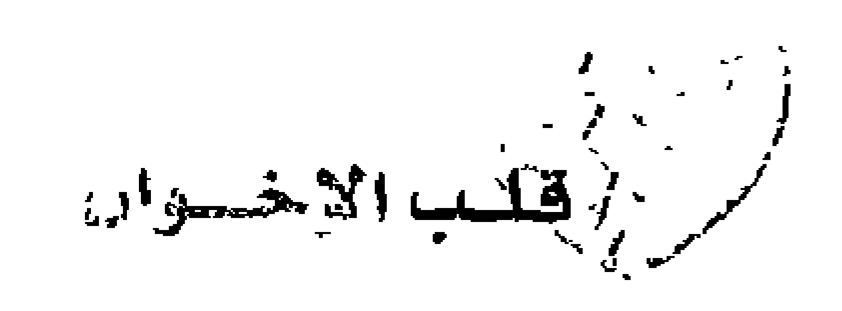
أمـا محمـود عزت فهـو يقود الجماعة ناحيـة الفكر القطبي الـذي هو بعيد الصلـة عـن جماعـة الإخـوان تمامًـا وأصبـح الآن خاصة بعـد حبس خيرت الشـاطر رجـل التنظيـم القـوي الذي يجـب أن يضـع بصمته عـلى كل كبيرة وصغيرة في الجماعة.

الآن اقتربنـا مـن الخاتمة لذلـك يجب أن نتحدث عـن الدكتور محمد بديع

والدكتور محمد بشر.. أما عن الدكتور محمد بديع فقد كان أكثر الناس ودًّا معي عندما كان في سجنه إلا أنه قاطعني تمامًا بعد أن خرج إلى الحرية.. وبعد أيام من خروجه وجه في إحدى صحف الإخوان شكره لمن كان له الفضل بعد الله سبحانه وتعالى في خروجه من محبسه تنفيذًا للحكم الصادر بالإفراج عنه لمرور ثلاثة أرباع المدة، وعندما قال له الصحفي ومن هو صاحب الفضل في إقامة هذه القضية والمرافعة فيها قال: هو مصطفى عمر المحامي الذي يعمل في مكتب مختار نوح!!.

كنت أقرأ حديثًا له منذ فترة وجيزة في صحيفة أسبوعية وهو يتحدث عني فقال إن ثروت ارتكب في حق الإخوان أخطاء فوجب إبعاده من الجماعة فعادت ذاكرتي القهقرى لسنوات مضت حينما قال لي وهو في السجن: سترى مني العجب عندما أخرج!! وقد رأيت العجب فعلًا... ومن بعد أصبح الدكتور محمد بديع مرشدًا لجماعة الإخوان بعد فترة جدل وتخبط واتهامات بعدم شرعية انتخابات مكتب الإرشاد وتزويرها.. ولكن الآن محمد بديع هو المرشد.

أما عن الدكتور محمد بشر فقد كان أفضل حالًا من الدكتور محمد بديع.. صحيح أنه خرج من السجن فلم يفعل شيئًا ولم يصحح الأوضاع ويبدو أن طاقته لا تسمح له بذلك ورحم الله امرءًا عرف قدر نفسه.. ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.. غاية ما فعله الدكتور بشر عقب خروجه هو قيامه بتقبيل رأسي على ملأ من الناس هو والمهندس مدحت الحداد وذلك حين كنت حاضرًا معهما ندوة من فعاليات لجنة سجناء الرأي.. وبعد سنوات



من خروج بشر من سجنه عاد مرة أخرى إليه في قضية خيرت الشاطر وكان معـه في القضية أيضًا المهندس مدحت الحداد.. وبعد أن خرج محمد بشر من محبسه تسـلم ملفات مهمة داخل الإخوان حيث ظل محتفظًا بعضوية مكتب الإرشـاد، بل وأصبح مسـئولا عن قسـم المهنيين فيها وقـد قابلني مؤخرًا في فـرح ابنة الدكتور عبدالمنعم أبو الفتوح واحتفى بي ووجه «بشر» ينطلق بشرًا ولكن الله أعلم بما في القلوب.

وإلى رحمة الله توفي الدكتور توفيق الشاوي وكان الشاوي رحمه الله حكمة صيغت في رجل إن تفرقت على أمة وسعتها.

وتوفي أيضًا إلى رحمة الله الرجل الطيب الخلوق محمد هلال.. وكان قد تم تنصيبه مرشـدًا مؤقتًا عقب وفاة المستشـار مأمون الهضيبـي إلى أن تم اختيار الأسـتاذ مهدي عاكف... وسـبحان مـن له الدوام.. سـبحان الحي الذي لا يموت.

خطابات من قلب الأزمة

الخطاب الأول

أخي الحبيب ثروت الخرباوي:

السلام عليكم ورحمة الله

كنت أراك حتى الأمس القريب فاهمًا لما أقصده، أما الآن وبعد مقالك الأخير فأراك قد أصبحت قاصدًا لما أفهمه، تحقق بكلماتك ما أتمناه وتعبر عما لم أرد البوح به لأحد... ولا أعرف هل هي مشاعرك التي حركتني أم مشاعري التي حركتك أم جمعتنا مشاعر واحدة.. وأراني مدفوعًا إلى أن أكتب لك رغم ثقل الرسائل. هل تصدق مثلًا أنني لم أكتب خطابًا في عمري لصديق.. ولكني أراني مدفوعًا إلى أن أشكرك.. ثم أسأل نفسي وأسألك كيف تعرفت على ما كنت أتمنى قوله؟ ألا يفسح لنا ذلك باب العذر للجميع إن لم يصدقوا أنها كلماتك؟ فما زال الكل يردد أني أقول ما أريده، ولكن مع توقيع ثروت الخرباوي- وهذه مقولة مديح لا إهانة -فحينما يصل الصدق والإخلاص بإنسان إلى درجة أن يعبر عن الآخرين كما يعبر الآخرون عن

أنفسهم- فقد أحسن في الإخلاص وأتفق معك على أن الأمر يعبر عن الاتفاق الروحي كما ورد في خطابك وأزيد عليك أني أصبحت لا أدري يقينًا هل أنت الذي كتب المقال أم أنا..!!

كما أنقل لك شكر أخي الحبيب خالد بدوي – وكل ما أنا واثق به أني لم أتحدث معك بشأن المقال ولا بشأن الأحداث وما تم فيها.. ولكن قراءة المقال أكدت غير ذلك .. فيبدو أني تحدثت معك حديثًا طويلًا.. وتناقشنا.. وانتهينا إلى رأي واحد وكلمات واحدة.. ثم نشرنا هذا المقال.. انظر كم يختصر الحب من مسافات وأوقات!! صحيح أنك كتبت.. وما كنت أحب أن تكتب هذا الأمر.. هذا قبل أن تكتب، ولكن بعد أن كتبت ما كتبت رأيتني أصفك بأنك تعرف ما نريد أكثر مما نعرفه..

يصلك سلام خاص من أخي بدوي وشكر عظيم.. ويصلك سلامي أيضًا ثم السلام على من ذكرتهم في خطابي السابق ومن ترى أن تذكرهم..

ولا تنس وصيتي الدائمة لك بالسلام مع النفس والارتفاع فوق الصغائر والاهتمام بنفسك

سلام إلى أهلك وأبنائك.. وأرجو أن تكون الرؤى قد وصلت إليك مع ما حاولت أن أشرح، وأرسل لي بالرؤى دائمًا فهو أمر محبب إلى نفسي..

أوصيك خيرًا بنفسك وبمن نحب

والسلام عليكم ورحمة الله

الخطاب الثاني

الأخ الحبيب ثروت/ أخي إلى الأبد إن شاء الله.. بحكم الأخوة وحكم الفضل..

السلام عليكم ورحمة الله

وصلني خطابك الغاضب في قراره.. العاقل في لفظه..

ولقد أحسست فيه بأنفاسك وهي تتصاعد وبوجهك وهو عابس.. ولا أرى داعيًا لذلك أبدًا.. فالأمر لا يخلو من فرضين.. إما أن يكون ما تفعله في مجال خدمة الدعوة وهو صميم اعتقادك وخالص نيتك.. أو/ لا..

وأنا أعتقد أنه صميم اعتقادك وخالص نيتك.. واثق في ذلك.. والقرار الذي ستتخذه فأنا به أولى أو خالد.. لأن ما تعرضت له من إيذاء لا يساوي واحدًا على مليون مما تعرضت له، أو مما تعرض له خالد..

ويصعب أن أحكي لك الآن شيئًا مما تعرضت له في السجن وما تم مواجهتك به بشأني فهو نعمة وفضل من الله أن سخر لي من يبرئ ساحتي.. ناهيك عما تم معي خارج السجن.. ولكن من جهة أخرى.. لا يمنعك أحد

من أن تخدم فكرتك داخل مجتمعك سواء أكان مجتمع المحامين أو مجتمع غير المحامين.. واللجنة الطبية التي تتولى التحقيق سيكون لها بصيرة بإذن الله..

المهم.. لا تنظر إلى الحياة على أنها شهر واحد.. ولكن انظر إليها على أنها سنوات وأجيال قادمة.. ووفر انفعالك.. واجعل الأمور وكأنها لم تحدث.. وسر في طريقك، ولكن بثلاث نقاط أرجو الالتزام بها التزامًا شديدًا..

أن توثق صلتك.. جدًّا جدًّا بمدينة نصر.. جدًّا جدًّا.. فهو الأساس.

أن توثق صلتك.. جدًّا جدًّا.. بكافة رموز التيارات السياسية الأخرى في النقابة وأن تعمل معها جاهدًا كداعية، وأعتقد أن هذا مجال لن تصطدم فيه بأحد.

وقبل كل شيء أن توثق صلتك بالله وتخلص نيتك.. ولو أن السطور تملك أن تشرح لك مكنون صدري لشرحت، ولكنها خرساء، حتى الكلمات التي تكتب عليها.. ما هي إلا محاولة لتوضيح المعاني..

واعلم أن نصيحتي لك خالصة.. فقد اتهمتُ يومًا بالسرقة وقدموا الأوراق للنيابة ثم بالذاتية والتمرد والانفراد.. حتى الرشوة لم يتركوها..

وكنت أعلم دائمًا أن الله هو المدافع الذي يجب أن نثق به فتركت له الأمر ولم يخذلني ربي أبدًا ولن يخذلني..

ألا ترى معي يا ثروت أن الموكل ينام في بيته آمنًا مطمئنًّا على قضيته إذا وكَّل بها محاميًا كبيرًا قويًّا ويعود إلى أطفاله قائلًا لقد وكَّلت فلانًا فاطمئنوا..

يقولها في فخر وثقة؛ ذلك أنه يثق في قدرة وكيله.. المحامي

وأنـا يا أخـي وأنت وكل مظلـوم قد وكَّلنـا الله في قضيتنا.. وهو حسـبنا ونعم الوكيل.

وإني لأثق في قدرته سبحانه وتعالى.. ثقة اليقين.

وقد عرضت هـذا الأمر على أخين، أولهما خالد.. فطلب أن أضع توقيعه عـلى الخطاب منضمًّـا لي في كل كلامي.. أما الآخر الثاني فهو أخ فاضل، أثق في رأيه.. أفلت من السـنوات الخمس وهو معنا في قسـم السنوات الثلاث.. أمـا الثالث فالدكتور بديع، والثاني منهما له وضعـه في الدعوى.. وقد أفادني بما نصه:

«إن تقييم الموقف من ثلاث زوايا - فأما الأولى فهي تحليل ما يحدث، وهذا أكد لي أن سبب ما يحدث هو أن ما فعله ثروت أظهر قصور الآخرين لا سيما أن العمل النقابي لا يدور على ما يرام.. فسامح هو الشخصية الطاهرة، ولم نسمع عن مشروع طوال سـبعة الأشهر الماضية.. وعلى المستوى الأخوي لم يقدم لك أحـد - أي مختـار أو خالد -شـيئًا يسـتقيم ومعنـى الأخوة، فثـروت كالعداد السريع الذي أظهر عجز الآخرين.. والغيرة هي الأساس.. في إيثار..

وأما الثانية فهي أن معالجة ثروت للأمر جاءت على خير ما يرام، فتمسكه بمدينـة نصر والتوثيـق معها إجادة في التصرف.. لكن عليـه ألا يقرر هو أي شيء.. لا تقاعد ولا بعد ولا كسـل وإنما يمـضي في طريقه مباشرة، وعليه أن يستشـهد بالدكتور بديع أو الدكتور بشر، وبالـذات الدكتور بشر، لأن خطة تصديـر القلق هي خطة المسـجونين وقد نقلناها إلى طوسـون وأرسـلناها في

خطاب بعد أن علمنا بشأن اتفاق سري مع كمال الشاذلي حضره رجائي عطية واتفق فيه على التزوير، والذي أخبرنا بذلك حي يرزق وحضر اللقاء بنفسه، وقد أخبرنا طوسون وطلبنا منه التمسك بالخطة حتى يلتزم رجائي بالاتفاق معنا ولا يلجأ للتزوير.. ومع ذلك لم تنفذ الخطة ولجأ رجائي للتزوير واستطاع أحمد ناصر أن يوقف الانتخابات بحكم محكمة، والدكتور بشر على استعداد لأن يرسل شهادته كاملة في هذا الشأن لو طلب منه ذلك وتستطيع أن تستشهد بهما أو بأحدهما عما قدمته لنا، بينما عجز الآخرون عن طواعية.. وعلى ثروت أيضًا أن يتمسك بمدينة نصر ويقدم مذكرة مهذبة جدًّا بدفاعه وبشهوده.. ويطلب مقابلة أعلى مستوى معلنًا تمسكه بالجماعة جدًّا جدًّا جدًّا وأنه في خدمتها ولا يعيش بدونها ولا يوقف نفسه أو يعطلها حتى لا يثير قراره غضب الآخرين، وهذا قول من خبير كبير».

أما الدكتور بديع فقال لي: «يجب أن تعيش مع الحق بغير خلق، وأن تعيش مع الخلق بغير نفس، وأن تعيش مع النفس بغير الهوى، وعلى ثروت أن يتمسك بالصبر والهدوء، وسيجني ثمار عمله الطيب، ولا يثار ولا يثير الآخرين..».

ومني أنا، أقول إنك نشرت تصحيحًا لما ورد بالمجلة، وعليك طلب شهادة الدكتور بديع والدكتور بشر عن دورك الإعلامي والقانوني الذي وفقك الله فيه.. وقد استبعدت شهادتي أنا وخالد لأن الكل يعلم من أنت بالنسبة لنا..

ذلـك أن تستشـهد تحديـدًا بالدكتور بشر في خطـة "تصديـر القلق" التي وقف فيها طوسـون وغيره.. كل هذا تعرضه في مذكرة في أحسـن أسـلوب وأروع ألفـاظ.. ولا تجعـل الموقف يسـوء ولا تصدر قـرارًا.. وإن صدر أي قـرار فأخطـرني به ولا تنفعل.. ولن يتخلى الله عنـك وأطلب منك في النهاية أمرين:

أولهما: زيارة سريعة جدًّا.. جدًّا، ولو عن طريق حمدي خليفة، وأنا أعرف مدى صعوبة ذلك.

ثانيهـما: سريـة هذا الخطاب بيني وبينك، ولو أنـك لا تحتاج إلى توصية.. وأرسل لي ردًّا تفصيليًّا مع زوجتي في زيارتها القادمة أو عند حضورك.. وإلى هذا الحين اعلم أننا جميعًا نحبك في الله، وأنا وخالد بصفة خاصة.

مختار نوح

خالد

الخطاب الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي الحبيب ثروت:

رسالة شكر وعرفان أرسلها إليك.. وأرد أولًا على بعض النقاط التي سقتها في خطابك.. وأبدأ بآخر فقرة، وآخر سطر والذي تقول فيه «ولكني عزمت بعد خروجك إن شاء الله على التفرغ لعملي ولحياتي الخاصة، فكَّ الله أسركم جميعًا وأعادكم لنا سالمين».

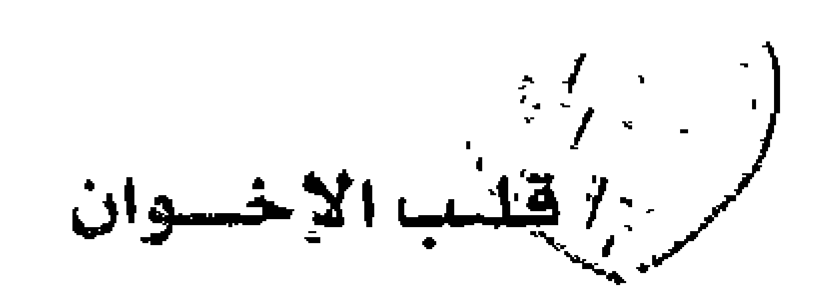
ولا أعرف يا صديقي أنك أصبحت تنفرد بالقرار وتطبقه على نفسك دون مناقشة.. أليس في ذلك إهدار لحقي عليك؟ فكما أني قد مكنتك من قراري قبل دخولي وأسكنتك داخلي فَحُقَّ لي أن أسكن داخلك وأنعم بالتمكن من قرارك... وأحسب أن سيارتك الـ 27 شهدت وفاة العديد من القرارات وكذلك ميلاد الكثير منها عندي وعندك على السواء.. لقد كان السفر وزيارة المكاتب بمثابة ذكريات المتحابين معك.. ألا تذكر يوم أن ذهبنا ومعنا عبد السلام دياب للنظر في مشكلة وليد أبو غزالة في مصر الجديدة وصعدنا إلى المنزل بقرار ونزلنا منه بقرار مختلف؟ كنت أحكي لخالد

منذ أيام على هذه الواقعة ومقولة عبد السلام الشهيرة على طليقة وليد «دي ما تطلقش أبدًا» وضحكت أنا وخالد كما لم نضحك من قبل.. الآن حان التمرد والتفرد بالقرار.. فإن فعلتها أنت.. ما أنا بفاعل.. وكما تقول الأفلام «آسف.. أرفض هذا الطلاق».

1 - علمني معلمي هنا أن أصبر.. وأخبرني أن من يعاشر الناس ويصبر على أذاهم هو الأفضل.. ولكن لا يعني ذلك أني لا أوافقك في المعطيات.. فأنا أعيشه معك وأحس بها.. وأتخيلها.. ولا تنسَ أني بذلك قد أصر على أن يضيف إلى خبرتي خبرة، ما كنت أتخيل حجمها.. اكتسبتها من الحبس طويل المدة إلى حد ما.. فلم تكن السنة التي قضيتها في 81 لتمنحني الشهادة ولا أشهر التسعينيات.. فدعني أعبر لك عن مكنون شعوري نحوك والذي أنضجته المحنة بوقوفك المتفرد معنا.. وأصر على ألا تعزم على شيء إلا بعد أن نلتقي ونتناقش.. ونصل سويًّا إلى رأي واحد.. والذي لا أعرفه الآن ولكن ربما يلقي نور الحرية على الأشياء ما غاب في ظلمة الأسر عنها..

2 - أما الموظف الذي ترافعت عنه.. فهنيئًا له البراءة على يديك.. والحمد لله أنك لم تترافع عنه إلا بعد أن وعى الدرس فهو لص محترف أو كان كذلك.. ولعله تاب.

ولكني أقول معك وبكل صراحة أنه لم يكن اللص الوحيد.. «فيا عزيزي كلهم لصوص».. ولعلي بالغت في إدانته.. إلا أني لم أحوله إلى النيابة وإنما طالبته بتقسيط المبلغ، ثم داهمتني الحراسة.. فحرستني وتركته.. ومبروك



عليه حضورك.. فهو شرف له.. ربما يكون دليل توبة الله عليه.. وحسنًا فعلت أن حسنت ما بيني وبينه، فلعلي كنت مبالغًا أو قد أكون على غير الصواب معه.. وقد حدنا للتشكيك..

أما جهدك في جناية الخفراء التي أحالها المكتب على كتفك ضمن ما أحال من هموم فأكرر لك للمرة الـ 683 شكري وامتناني.. ويا رب توفق في شيكات المانسترلي ولو تأخذ بقيمتها أثاثًا من منزلها.. والأمر يحتاج إلى معرفة أو تدخل لدى النائب العام.. ولعل أ.رجائي عطية قد يفيد في هذا.. فأنا أحتاج كل مليم يرد من هذه الشيكات..

وقد كلفت زوجتي بدراسة بيع الفيلا والانتقال في منطقة نائية رخيصة كالتجمع حتى أصنع فارقًا ماليًا أعيد به صياغة مكتبي إن شاء الله، فياحبذا لو ساعدتها في هذه الدراسة، ولك شكري للمرة الـ 684 ....

3 - أما حركة الناس البطيئة فلا تكترث يا صديقي فأنت «مرسيدس» في عالم «السيات»، وشبابنا الآن ومناضلونا كلهم «سيات» ومنهم المستعمل.. ومنهم الخردة.. وما علينا إلا أن نتحول إلى جرارات لسحب المعطل منهم.. ولكني أرى أنك يجب أن توافق على صرف مبالغ ولو رمزية لك ولعصام.. أو هدايا ولو رمزية في حدود 500 جنيه للهدية الواحدة وبلاش حكاية الأتعاب الآن، وهذا ليس كلامي، بل قرار الدكتور الذي لا رجعة فيه، ونص قراره أن عليك أن تقدر أتعابًا لك ولعصام وللدكتورين عاطف وعصفور فضلاً عن الهدايا.. ولما أخبرت فضيلته مرارًا أنك رفضت.. طلب مني

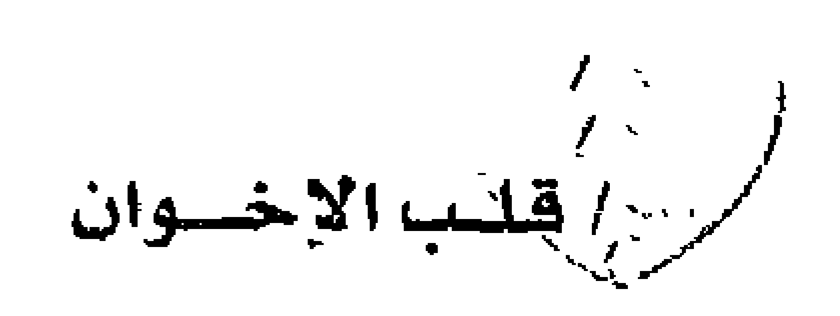
إلزامك بالهدايا ولو لك ولعصام.. وأن أترك موضوع الأتعاب للتصرف.. وعصام لن يقبل أي هدية إلا إذا استلمت أنت هديتك أمامه.. فاذهب واشترِ هديتين ولو بألف جنيه من احتياجاتك واحتياجاته.. وأخبره بقبولك لها حتى يقبل هو.. ولا تنس أننا نريد أن نعرب لعصام عن امتناننا له.. أما أنت فنحن نعلم مدى سمو نفسك ورفعتها وإن كان ما نطلب منك قبوله هو تعبيرًا رمزيًّا عن مكنوننا لك.. على العموم ادرس الأمر وأخبرني برأيك فيه.. وهو أمر لازم، ولا ديمقراطية فيه.

4 - أما الدراسة الميدانية التي أرسلتها بخصوص البيان فهي دقيقة ورائعة.. وأعتقد أنها صحيحة ولو بنسبة عالية جدًّا.. وأرجو ألا تنقطع صلتك بواقع المحاماة وبشخصيات المستقبل.. ورموز التيارات السياسية.. وأقصد بألا تنقطع.. أي لا يتوقف معدل نموها وازديادها..

5 - أعلم أن أحمد ربيع قد انقطع عن الواقع.. وهذا من آثار الواقع.. لكن لو عندك قرص فيتامينات فأرسله له دون أن تعطل نفسك..

6 - سلامي الكبير الكبير إلى عاطف عواد وكل الأحباب من أول عبد السلام حتى شارع شلهوب مرورًا بمحمد ومصطفى صاحبه.. وكل من تراه بعينك وبقلبك.. كما أراه..

7 - وقد سعدت باتصال الآخرين بك.. وجمال برعي شخصية رائعة وعلى خلق ولكن أرجو أن تكون متحفظًا في الكلام وبالذات مع



صبحي صالح.. لأني أخاف من النقل عنك في هذه الآونة.

8 – وسعدت بحسن تعاملك مع الآخرين والهدوء الذي أخبرتني به.. والآن استمع:

زارنا أ.طوسون، الدكتورين وخالد وأنا.. وجلسنا نحن الأربعة معه في حجرة المأمور وأخبرته أني سأرسل لك خلاصة الزيارة..

وخلاصتها.. أني أغبطك.. أغبطك على ما قيل في حقك من الدكتورين ومن خالد ومني.. وإن كنت أنا وخالد أقل الأربعة كلامًا..

وعاتبنا طوسون عتابًا واضحًا ومحددًا وطبعًا كان هدفنا قتل الشيطان وتدمير أسلحته ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ (هود: 88) وكان الأمر سهلًا بفضل الله.. فقد استعمل معه الشيطان سلاحين لا ثالث لهما، أولهما سوء الظن وثانيهما.. سوء النقل..

وكان من حديثهما أي الدكتورين أن الإنسان لا بد وأن يوزن بفعله كله.. وأن ما رأيناه من ثروت أكد تفردًا وعطاء وتفانيًا في وقفته معنا.. وقد فعل...... وفعل......... وفعل.......

وأكدنا له أن من أدخل إليه أننا لا نريد له الحضور في الدعوى قد أساء له وقبل كل شيء.. وأن اسمه في التوكيل، وأن ثروت وضعه في عريضة الدعوى الأولى، وأننا حينما نستبعد اسمًا نذكره بصراحة كما فعلنا مع محمد غريب.. وأنه... وأنه..

ساعة كاملة يا مولانا نحاول أن نعطيك حقك فيها.. ونحاول فيها أن

نعيد قلب طوسون إلى نبضاته الأولى.. ثمانون نبضة في الدقيقة.. ونعيد حرارة المجد بيننا إلى طبيعتها 37 درجة مئوية.. وكان جسرنا في ذلك بيان ما فقد من حقوقنا عنده.. وأولها حق ثروت في التكريم والتعامل معه بصورة لائقة.. تناسب ما قدمه من تضحيات.. وإخاء..

وعاد نبضه إلى معدله الطبيعي في مثل هذه السن وعادت حرارته.. وإن كنا نعلم أن الشيطان سيعاود معه الكرة بمجرد خروجه من الباب.. وهذا دورك أنت..

فسيتصل بك إن شاء الله حسب الاتفاق، وعليك أن تجلس معه منفردًا.. وعليك أن تسلمه صورة ضوئية مع شرح القضايا له بأنواعها.. وطبعًا لا يهمنا علمه القانوني الكامل.. ولكن مجرد حضوره بنفسه.. ومعك في جلسة واحدة.. سيضرب الشيطان على أم رأسه فيرديه صريعًا.

ولا أعتقد أنك تجهل قدر معرفتي بالشيطان وأساليبه.. بل إني أعرف أصحابه -وبالاسم- من الذين يعيشون معنا على الأرض ولكني لم أكن أعرف الأسماء الثلاثية لبعضهم إلا بعد دخولي السجن..

أخي ثروت.. ساعد طوسون على أن يحضر أي جلسة من الجلسات وأفسح له صدرك.. فإن هذا لا يعني ضياع حقوقك في حكم عادل.. ولكنه يعني أنك تسد باب النصر على أصحاب إبليس وجنوده ولو بدرجة قليلة جدًّا لك فيها الأجر.. ولنا فيها النصر إن شاء الله..

أنا لم أحدثك بكل ما أعلم.. ولكنك عليك أن تعلم أني أعلم.. وأني أؤخر علمي لوقت أصلح به..



والقضية عندي ليست العمل بين المحامين أو البعد عنهم، فهذا أمر نقرره معًا إن شاء الله.. وسنتفق بشأنه.. ولكن الأمر عندي أن أحمي دعوتنا من الذين يتسلقون أكتافها ويفرقون بين إخوتها.. واجعل ما بينك وبين طوسون محصورًا فقط بينكما..

اسمع يا ثروت، أنا لم أجاملك في شيء.. ولم أطرحك أو أفرضك على إخواني هنا.. وأنت تعلم نقاء نفوسهم وسعة أفقهم.. ولكنهم فتحوا المذياع في لندن فوجدوك تتحدث عنا.. قرءوا المقالات فوجدوا توقيعك أسفلها.. فكروا في خدمة دعوتهم بابتكار أنواع شتى من القضايا فوجدوا كتفيك تحملانها جميعًا بلا ضجر..

ونحن هنا نتشارك في الرأي وحتى زيادة على اللزوم.. حتى خطاباتك التي تكتبها لي عن القضايا جميعًا أقرؤها عليهم.. عدا ما يخصني وحدي من خطابات..

ولا أرسل لك كلمة أو أكلفك بشيء إلا بموافقتهم، لا سيما الأستاذ الجليل الدكتور .... وكذلك صاحبه......

وقد قرأت في أعينهم وفي مواقفهم تقديرًا لك يشجعني أن أقول لك إنك الآن في درجة مقاتل.. وهم يعتبرونك كذلك..

وأتمنى أن تكون وقفتهم معك أمام طوسون لها ما يكملها لديك.. من خطة وذكاء.. من ذكاء المقاتلين ومن خطط المحاربين..

وأخيرًا فأنا أشكرك وهم يشكرونك على دعوى الـ ¾ ولا تنس أن

الدكتور بشر والدكتور هشـام تكتمل مدة الـ ¾ بعدنا بيوم واحد فقد قبض عليهما بعدنا بيوم.. وأرجو أن تعد شهادات من واقع الملفات العسكرية بهذا المعنـى لنا جميعًا؛ لأن المسـتندات التي قدمتها الداخلية بشـأن المدد في دعوى المادة 86 بها أخطاء..

فالدكتـور بـشر مكتوب أمامـه تاريـخ الخـروج 19/ 10 والدكتور أحمد عماشة مكتوب أمامه الحكم 5 سنوات.. والصحيح 3 وغير ذلك كثير..

والصحيح أننا قد قبض علينا جميعًا في 14/ 10 عدا دكتور بشر والدكتور هشـام من الذين سـيردون في ¾ المدة.. فهي في 15/ 10 وكلنا 3 سنوات بما فينا الدكتور عماشة..

وأخيرًا.. هل تعرف لماذا نجد أمثالكم من الأوفياء..؟

وهل تعرف لماذا هم قليل؟

يا صديقي.. هذا سـؤال شرحه يطول، وأنا الليلة مشـغول، وتصبح على أحلى أخبار.. وكفاية كده علشان أنام.. والسلام عليكم ورحمة الله،

مختار نوح

ملحوظة.. تصدق بالله

أنـا عمـري مـا كتبت سـت صفحـات.. حتى لمـراتي..! خليهـا في سرك وعجبي !!!

الخطاب الرابع

يدور البحث حول عدة نقاط:

أولًا: معنى الخطة الانتخابية.

ثانيًا: لماذا يجب أن نضع خطة انتخابية في هذه المرحلة؟

ثالثًا: عناصر الخطة الانتخابية من حيث المناخ والعدد وأسلوب الدعاية وأسلوب الأداء في ضوء المستهدفات العامة في تلك المرحلة.

رابعًا: مقدمات خاصة بخطتنا الانتخابية.

خامسًا: نتائج على سبيل المثال، تفرض نفسها على الخطة كعناصر أساسية.

المبحث الأول

معنى الخطة الانتخابية

التخطيط روح العمل وأساس نجاحه.. والانتخابات ليست مستهدفة في ذاتها وإنما هي دائمًا وسائل لتحقيق نتائج دعوية واسعة الإصابة والمعاني، وعلى هذا فإن لكل مرحلة خطتها التي تحقق مستهدفاتها، وما كان يمكن تحقيقه في وقت قد لا تتاح فرصة تحقيقه في وقت آخر والعكس صحيح.

ومن هنا، فإن الخطة الانتخابية هي التخطيط الدقيق للوصول إلى أهداف محددة سلفًا في ضوء معطيات مرحلة ما.

لماذا يجب أن نضع خطة انتخابية في هذه المرحلة؟

لم يكن من المستبعد أن يلجأ المضاد إلى مواجهة العمل المهني بالصورة التي تمت؛ فإن عناء السنوات السابقة واللجوء إلى الحلول والأطروحات الفاشلة المتتابعة أدت إلى إنهاك قواه وافتضاح شأنه.

كان ذلك منذ 1990 وما يتبعها- فجاء القانون 100 ثم القانون 5 ثم أحكام الحراسة؛ ولذا فإنه يجب النظر إلى الجناية المنظورة على كونها علاقة ما

بـين معطيات واقعية وبمعنـى أوضح على أنها جزء من أهدافه. ومن هنا فإن قبول ذلك الواقع يعني الاستسلام الكامل للخطة المقابلة.

وإذا كان قـد لوحـظ على بعض النفوس ذلك الاستسـلام فإنه قد لوحظ أيضًـا ثـورة في بعض النفـوس الأخرى، رغـم أنها في مجموعهـا مخلصة فإنها تكـون كلها خطأ، فردود الأفعال لا تواجه مثل هذه المخططات، وذلك لأن المشاعر لا تواجه مخططات وإنما تكون هي الدافع للتخطيط العملي السليم.

ويلاحـظ أن الخصم وهو يضـع خطة لتحجيم تفعيـلات الحركة النقابية فإنـما هو يعتمد أيضًا وفي ذات الوقت على بعض المهدئات والمسـكنات التي تمتص من قوة ضربته؛ ولكي نوضح هذه النقطة نبين ما يلي - من وجهة نظر الخصم- وهي عملية تسمى «بالونة الاختبار»:

الهدف: ضرب تفعيلات ومحركات الحركة النقابية.

الأسلوب: قضية تضم بعض الأسماء قوية التأثير.

التوقيت: قبل الانتخابات بوقت كاف للنظر في رد الفعل.

المعاملة: حاسمة وقوية وسريعة تحت التحكم (محاكمة عسكرية).

المهدئات وعناصر التحكم:

1 - ترك بعض النقابات في عملها (الصيادلة- الأطباء).

2 - عدم شمولية الحركة لتجنب كل العناصر.

3 - الإبقاء على قنوات الترطيب -رجائي عطية- حمدي السيد- والسماح

لهما بحركة محدودة أو غير محدودة حسب الأحوال، مع حسن المعاملة بصفة عامة للمحبوسين.

4 - إجراء انتخابات محدودة في بعض النقابات (المعلمين) وهي تحت السيطرة. ومن هنا يأتي وجوب التحرك داخل إطار الخطة الانتخابية والتي تنطلق من فهم الواقع والتعامل معه، وتنتهي إلى ما بعد انتهاء العملية الانتخابية وتحقيق المستهدفات كلها أو بعضها.

ثالثًا: عناصر الخطة الانتخابية من حيث المناخ والعدد وأسلوب الدعاية وأسلوب الأداء في ضوء المستهدفات العامة في تلك المرحلة.

نبدأ بالمسلمات والمتفق عليه من أصول عامة للتذكرة:

1 - العمل النقابي وسيلة وليس غاية في ذاته؛ ولكي تكون الوسيلة ناجعة فعلينا أن نتصورها في تلك الحدود، ولا يجوز أن نسمح للخصم بفرض شكلها علينا.

2 - إن لم تكن تلك الوسيلة ناجعة لتحقيق الهدف فالاستغناء عنها أولى.

3 - إن العمل النقابي صورة من صور العمل الجماعي وهو مظهر للتيار الإسلامي بما يمثله من نظام وطاعة.

فإن لم يتحقق ذلك فإن الاستغناء عنه أولى، ودفع الأضرار مقدم على جلب المنافع، وهذا المستهدف يجب أن يتحقق في كل طور من أطوار العملية الانتخابية.

1 - إن العناصر المختارة يجب أن تنتقى على أساس الالتزام والكفاءة في

ذات الوقت ويجب هجران طريقة الكثرة العددية والتي جاءت على حساب الكيف والنوع، وأن يكون في إطار لائحي شرعي.

2 – إن إعمال رأي أهل الذكر في المسألة واجب شرعي يجب الالتزام به دائماً.

3 – إن خطتك الانتخابية هي سر لا ينبغي أن يعرفه خصمك.

4 – إن من تتعاون معه من الغير تحاول ألا تتورط في وعود إلا في حدود المقطوع به، ولك في المناورة وتقسيم الأدوار مندوحة.

5 – التصريحات والتحالفات ونعير الأدوار والتكتيك واستثمار الأحداث والشخصيات والمتغيرات ينبغي أن تكون في التكتم ولن يعلن عنها إلا في آخر لحظة.

6 – يجب اتباع اللوائح والشرعية 100٪ في اعتماد المرشحين والتحالفات.

7 – يجب معرفة الوقع جيدًا ومعرفة كيفية استثمار مواطن القوة وتحاشي نقاط الضعف.

8 – الالتزام بالشورى وبلورة المناقشات في قرارات أو توصيات والبعد عن السفسطة والجدال.

9 – أهمية وجود سكرتارية والمتابعة الجيدة اللصيقة وتوزيع الأدوار.

الأهداف العامة:

1 – نشر الفكرة.

2 – إظهار رموز.

3 – التدافع من أجل دفع الشخصيات المحترمة والفعالة لخدمة المهنة.

4 – تطبيق النموذج للعمل.

5 – ملاحظات عامة على المناخ.

مناخ العمليـة الانتخابيـة هو ذلـك المحضن الـذي تربى فيـه الخطوات العملية فإذا ما كان المحضن طبيعيًّا ومناسبًا أفرزت الخطوات نتائجها.

ومناخ الانتخابات بصفة عامة هو مناخ حماس مشتعل بعروض الأفكار والمبارزة فيه ولكن هل هذا هو المناخ المطلوب؟

إن المنـاخ الهـادئ للانتخابـات يعني ببسـاطة نجاح خطة الخصم بنسـبة عالية إن لم تكن بنسبة كاملة وذلك يشجعه حتى على أقل تقدير على أن يعمم التجربـة في النقابات الأخرى فيكفيه تقديم قضيـة أو إجراء اعتقال عند كل انتخابات في كل نقابة.

ومـن هنا فـإن المناخ الذي يجب أن يسـود هـو مناخ الأزمـة وليس مناخ الانتخابات الهادئ المعتاد.

وتعريـف مناخ الأزمـة: هو ذلك المنـاخ الذي يضطر فيه كل مرشـح إلى الـدوران في داخل الحدث (اعتقال النقابيين) ليشـكل مـع مجموعة النقابيين المرشـحين دوائـر هجومية على الحدث ذاته، والنجـاح في خلق هذا المناخ قد يصـل بالأفراد إلى اسـتحداث فكـرة المقاطعـة أو الإضراب أو محاولة وقف الانتخابـات أو عـلى أقل تقدير الحديث الدائم عن عـدم شرعيتها، كل ذلك يتوقـف على نجـاح مجموعة العمـل في خلق منـاخ الأزمة وإتقان اسـتخدام الوسـائل المؤديـة لذلـك- ويأتي على رأس هذه الوسـائل ما سـنذكره مع أن نضع في الاعتبار أن التأخر في استخدام هذه الوسائل لا يعني عدم إعمالها:

1 - البيان النقابي: وهو وسـيلة مخاطبة المرشـحين والناخبين على السواء وإشـعارهم بالجـرم لصمتهم عن تلـك الجريمة (اعتقـال النقابيين)

ووصف كل من يساهم فيها بالإجرام والتدني وأن على المرشحين اتخاذ إجراءات تكون كفيلة بإنهاء الأزمة، ويكون السؤال الدائم على رأس كل بيان ماذا فعلتم من أجل النقابيين المعتقلين؟ (بيانات من لجان متعددة مجهولة ويتم الرد عليها من التيار أيضًا).

2 - تحريك الجماهير عن طريق الندوة والمؤتمر.

3 - إصدار عدد من المحروسة تحت عنوان «وما زالت النقابة محروسة» يتحدث عن الاعتقال ويكون من صفة واحدة.

4 - استخدام أسلوب خطابات المكاتب.

5 - عمل ندوات للمرشحين لمنصب النقيب، يكون موضوعها ماذا سنفعل من أجل النقابيين المعتقلين.

هذا مع أن يوضع في الاعتبار أن مناخ الأزمة هو الوحيد الذي يلائم متطلبات ومستهدفات المرحلة حاليًا، وأن ما ذكر كان على سبيل المثال وأنه يجب التخديم على ذلك بالاتصالات السياسية والحركة الإعلامية والاتصالات بمركز الدراسات القانونية والمنظمات الدولية.

مردود ذلك المناخ على دفع الأحداث وخدمة القضية

العناصر التي لم تستخدم بعد للرد على خطة الخصم هي:

1 - تصدير شعور القلق إلى الخصم من إتمام الانتخابات في ظل هذا المناخ.

2 - تصدير شعور حازم لمرشحي القسم وعلى رأسهم أ/ رجائي عطية بأن نجاحه مرهون بانتهاء ذلك المناخ مع أن يوضع في الاعتبار عدم الخلط

بين هذه النقطة وبين هجـران الوعد أو النكول؛ لأن الوعد والاتفاق هو أن تتم الخطة المشتركة بين الطرفين في ظل مناخ صحيح وأن فساد المنـاخ لا يعني إلا أن يعمل التيار الإسـلامي ما يمكنه في ظل المعطى الجديد فقد يملـك التيار أصواته إلا أنه في ظل المعطيات الجديدة، قد لا يملـك حسـن التخطيـط أو تمام السـيطرة على مجمـوع المحامين أو غالبيتهم، وهو ما ينبغي تصديره إلى الآخرين المتحالفين.

3 - تصدير القلق إلى الجميع وعدم الإفصاح عن خطة ثابتة، لا سـيما أن هذه الخطة لن يعلن عنها حتى بين صفوف التيار إلا قبل الانتخابات بوقت قليل والحديث هنا عن الإعلان وليس عن الإعداد.

4 - تصدير المخاوف إلى الغير واسـتخدام أسلوب الصقور والحمائم فيما لا يتعلق بمخالفة الوعد أو الأمور المتفق عليها.

5 - التعاون مع النقابات الأخرى التي سـتضار من اسـتمرار هذا المناخ على الصعيدين العام والخاص.

إنـه لمن الجدير بالذكـر أن تراضي رجائي عطية عن التدخل بصورة فاعلة في إنهـاء هـذا الموقف سياسـيًّا لا يرجـع إلى أنه لا يمكن ذلـك، ولكن يرجع بالمقام الأول إلى غلبة موازناته الشـخصية حينما لم يجدد دافعًا يدفعه إلى ذلك، أو على الأقل -وبتعبير أدق- لم يجد ما يدفعه إلى العزم الموازي لتدخله الثقيل مـن أجـل إنهاء الموقـف. ولن يتحـرك على صعيـد المغامرة وطـرق الأبواب بعنف إلا إذا استشـعر الخوف من ضياع مصالحه ومن هنا تجدر الإشـارة إلى بعض السـلبيات التي وقع فيها المحامون على صعيد الحركة دونما البحث في

أسبابها، مع الاعتراف الكامل بأن جهدهم الرائع سيظل علامة في تاريخ الأزمات إلا أنه تجدر الإشارة إلى السلبيات التالية:

1 - لقد كان من الإيجابي إشراك أ.رجائي عطية في الدعوى منذ أول يوم ولكن كان من السلبي أن يكون هو المحامي الأوحد في صفوف الدعوى.

2 - كان من الإيجابي أن يكون له الرأي من الناحية الفنية.. ولكن كان من السلبي أن تغيب الآراء الأخرى ولو بإبداء الرأي أو المشاورة.

3 - لقد كان من الإيجابي اختيار هذه النخبة من نجوم الدفاع والمحاماة ولكن كان من السلبي أن تهمش أدوارهم حتى يفقدوا الشعور بالرغبة في الحضور والمتابعة.

4 - لقد كان من الإيجابي أن تجيد القيادة الإدارية وهي في أيدينا، ولكن كان من السلبي ألا تحسن هذه القيادة إظهار المحامين الآخرين أو الاحتفاظ بأوراق اللعبة والحركة في أيديها فإذا ما غاب الفارس الأوحد ظهرت هي على الأقل بدور محدود وليس بدور التخديم على غيبته.

■ هذا لا يقدح فيما تم من إدارة فعالة ومؤتمرات صحفية.. رائعة؛ وللإنصاف فإن السلبيات لدى بقية المهن كانت أسوأ وأكثر. ويكفي المحامين شرفًا أن تحملوا عبء الدفاع والحركة في ظل هذه المتغيرات.

لذلك

يجب أن يدفع رجائي دفعًا لإنهاء الأزمة خلال هذا الزمن الوجيز وأن يبدو أمامه الصف الإسلامي لن يقبل أن تتم الانتخابات والقضية على هذا

النحو، وأن المرافعات والخدمة القانونية قد تؤدي إلى الامتنان ولكنها لن تقف حائلًا دون حق الصف الإسلامي في اتخاذ موقف مضاد- وأن الأمور على هذا النحو تتجه إلى مضيق حرج- هذا ما يصل إليه وبالطبع دون المساس بحقه في أصواتنا آتفاقًا أو عرفانًا- دون الحركة الانتخابية الفاعلة.

كل هذا يجب أن يصل - في صراحة ووضوح - ولكن بالطريقة التي يتم اختيارها وبالأشخاص الذين يجيدون هذه الاقتراحات وعرضها ونرى:

أ- أن جمال برعي أقل حرجًا عند العرض من طوسون وأنه لم يُستغل حتى الآن.

ب- أن تقديم ثروت الخرباوي للعمل وإن جاء متأخرًا إلا أنه إيجابية يجب أن تظهر ثمارها على الأقل في التفاوض.

جـ- أن جموح أحمد ربيع ينبغي أن يدخل ضمن منظومة الإلزام الأدبي دون أن يكون له تعامل مباشر مع رجائي، ولكن يمكن استخدامه كصقر لا يخالف الأدبيات المتفق عليها، ولكنه يجيد التعاون مع التيارات الأخرى.

د- سرية هذه الأمور، ومحدودية تداولها.

هـ- أن انضمام علي شعلان سيكون له بالغ الأثر إن شاء الله لحرفيته النقابية وذلك بعد الموافقات اللازمة.

و - أن الاهتمام بوحدة الصف ووحدة القرار هو الأصل الذي ينبغي أن يظلل كل هذا مع استحضار النية.

انتهى الجزء الأول

الجزء الثاني يشمل الحديث عن مزيد من التفاصيل ومتابعة ما تم.

بعد الكتاب

بعد الكتاب توالت الأحداث، إذ قامت الجماعة بفصل عبدالمنعم أبو الفتوح، وفُصل الدكتور محمد حبيب الذي كان قاب قوسين أو أدنى من منصب المرشد، واستقال الدكتور كمال الهلباوي الذي كان أحد أهم القيادات الإخوانية في أوروبا، وتحكم فريق سيد قطب/ النظام الخاص فارضًا سيطرة تامة، واختفت الرموز التي تشكلت مفاهيمها على يد عمر التلمساني والذين كانوا أصحاب الأفكار الوسطية المعتدلة، وأصبحت الجماعة الحالية هي جماعة سيد قطب ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ثروت الخرباوي

الفهرس

أحـــدث إصــــدارات

الأســتــاذ

ثــروت الخــربــاوي

- ســـر المـعـبـد . . الأســرار الخفيــة لجماعــة الإخــوان المسلمين
- قلــب الإخــوان .



قلب الإخوان

محاكم تفتيش الجماعة

حينما يصبح التفكير خطيئة، والاختلاف ممنوعًا، والسمع والطاعة فريضة لا مفر منها... يكون الوجود في قلب جماعة الإخوان المسلمين محفوفًا بالمخاطر لمن يرفضون تسليم عقولهم للآخرين. وهو ما حدث مع المحامي ثروت الخرباوي الذي خرج من الجماعة وانشق عنها في عام 2002 ويروي قصته في هذا الكتاب «قلب الإخوان»... شارحًا-عبر تجربة حية-أساليب التفكير والتعامل و الحكم على الأمور داخل الجماعة، تاركًا للقارئ الحكم النهائي على التجربة لعله يجد تفسيرًا لما يحدث الآن.

الناشر

Bibliotheca Alexandrina
1156768

6 221133 345729



دار نهضة مصر للنشر
www.nahdetmisr.com